الحجاج في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ

حجاجيّة التّخييل وتخييل الحجاج



محمّد النّاصر كحّولي



الحجاج في الخبر

الأدبيّ الأندلسيّ

الحجاج في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ

الكتاب: **الحجاج في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ** (حجاجيّة التّخييل وتخييل الحجاج)
المؤلف: **محمّد النّاصر كحّولي**
عدد الصفحات: 136 صفحة
الترقيم الدولي: 978-9973-33-464-0
الطبعة الأولى: 2016

الناشر:



نادي القصيم الأدبي
المملكة العربية السعودية - القصيم - بريدة
هاتف: 0163815302 - فاكس: 0163814148
بريد الكتروني: adabi-qassim@hotmai.com
موقع الكتروني: www.adabi-qassim.com



دار محمد علي للنشر
هاتف: 21674407440 - فاكس: 21674407441
بريد الكتروني: edition.medali@tunet.tn
موقع الكتروني: www.edition-medali.com
رقم الناشر: 936/16-564

توزيع:



دار التنوير للطباعة والنشر
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الحجاج في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ

حجاجيّة التّخييل وتخييل الحجاج

محمّد النّاصر كحّولي

تقديم:
أ، بشير الوسلاتي





التّقديم

لنثرنا الفنّيّ القديم قيمة أدبيّة تعدّدت درجاتها التّعبيريّة وتشعّبت مسالكها البلاغيّة بفضل تنوّع أنماطه الخطابيّة من حكاية مثليّة ونادرة وخبر ومقامة.. وغيرها. لذلك تتالت المقاربات النّقديّة الرّاهنة السّاعية إلى تدبّره وفق زوايا نظر مستحدثة ناجمة بالأساس عن نشوء اتّجاهات ومدارس تأويليّة جديدة.

وفي هذا السّياق يندرج كتاب محمّد النّاصر كحّولي الموسوم بـ«الخبر الأدبيّ خطابا حجاجيّا: حجاجيّة التخييل وتخييل الحجاج». ومداره محاولة جادّة من أجل تطويع النّصّ الأدبيّ القديم لاستيعاب النّظريّة الحديثة.

ولا ريب في أنّ هذا المسلك لا يخلو من مغامرة نقديّة محفوفة بالمخاطر التي منها عسف محتمل، وهتك لحدود النّصّ المقروء ووسعه، أو فوات وإسقاط تاريخيّ بموجب التّباعد الزّمنيّ والمسافة الفاصلة بين ماض سحيق وحاضر نعايشه الآن بمصطلحاته ومفاهيمه الحادثة.

والذي يدركه النّاظر في محتوى هذا الكتاب أنّ صاحبه تخطّى هذه المعضلة في الغالب الأعمّ، وقد أسعفه على تخطّيها أمران: أمّا الأمر الأوّل، فيتمثّل في النّصّ محلّ الدّرس، وبه نعني خبرا أدبيّا مفعما بالعمق الفنّيّ والطّابع القصصيّ الطّافح. وأمّا الأمر الثّاني، ففضله راجع إلى إحاطة نظريّة بالمنهج المتّبع، واصطفاء النّافع منه المتناغم مع العمليّة النّقديّة.

وبناء على ذلك، زخر الكتاب بمصطلحات جديدة مستمدّة من جماع قواميس بلاغيّة وسرديّة وتداوليّة، فيها وشائج قربى متينة متعاضدة، وفيها ثنائيّات جدليّة مثمرة جعلت النتائج التي توصّل إليها الباحث مهمّة مجدية. فالثّنائيّة المضمّنة في عنوان الكتاب ثنائيّة مركزيّة تفرّعت إلى ثنائيّات داخليّة مثل المركز والهامش، والتداخل والتّخارج، وحجاجيّة الصّورة وتصويريّة الحجّة...

ومن اللّافت للنّظر جمع محمّد النّاصر كحّولي في كتابه هذا بين مسلكيْ التّنظير والتّطبيق، واهتمامه بالخبر الأدبيّ في الأندلس، بعد أن التفت الدارسون إلى الخبر المشرقيّ بإطناب، واصطفاؤه من المصنّفات عشرة مصادر بتمامها على اختلاف ذيوع صيتها وانتشارها بين القرّاء.

ويضاف إلى ذلك التزام صارم دقيق بالإجراء المنهجيّ المتّبع، وتناول الخبر الأدبيّ باعتباره عملا قوليّا كبيرا مستبطنا حجاجا لسانيّا، ومتضمّنا سياقا تخاطبيّا وأدوات حجاجيّة.. وغيرها من المقتضيات التّداوليّة..

وإنّه لمن المهمّ تحليل عيّنات أخباريّة. بهدف الوصل بين النّظريّة والتّطبيق. لا سيما أنّ الخبر المصطبغ بالأدبيّة يحتضن جماليّة سرديّة قائمة على توفّر الأركان القصصيّة الأساسيّة من حدث وزمن ومكان وشخصيّة، فضلا عن الرّاوي المتحكّم في مختلف هذه المكوّنات.

وعلى هذا النّحو، أمكن فتح زوايا نظر وسّعت آفاق النّقد المتعلّق بالنّثر الفنيّ القديم، وأثبتت تجدّد القراءة التّراثيّة بموجب الانفتاح على المدارس الغربيّة وأخذ العناصر الملائمة منها.

وعلى ما حظيت به مصنّفات ذات صيت من فحص وتدبّر، فإنّ تناولها بالدّرس ما انفكّ يتجدّد بتجدّد زوايا النّظر وتطوّر سبل التّأويل، ناهيك من المصنّفات النّثريّة المغمورة في الأدب الأندلسيّ على وجه التّخصيص.

وبالجملة، هذا كتاب يرام به بلوغ هدف سام وغاية محمودة. فما رغب صاحبه في تحقيقه إنّما مداره فعل إحيائيّ استقرائيّ مستحدث لضرب من الكتابة السّرديّة العريقة المتّسمة بغزارة رصيدها الإبداعيّ ومخزونها الحافز على التدبّر والفحص في كلّ عصر ومصر. وإنّ مسعاه لكامن في نفض الغبار عن عيّنات أخباريّة في حاجة إلى من يكشف خفاياها ويُبِين عن دقائقها المشكّلة لجماليّتها المخصوصة.

لقد رام الباحث الظفر بإضافة نقديّة تحليليّة مهّدت له النظريّة التداوليّة سبيل بلوغها، فإذا بنا حيال إفادة معتبرة للمدوّنة الأخباريّة القديمة وللرصيد النقديّ الحديث.

ولا شكّ في أنّ الخبر الأدبيّ القديم يتيح، بفضل مقوّماته البنائيّة والدلاليّة، مجالا واسعا للدارس كي يسائله مساءلة مستطرفة كهذه التي بين أيدينا.

الأستاذ: بشير الوسلاتي

المقدّمة

فتحت اللّسانيّات العامّة فتوحا معرفيّة جليلة وأحدثت منذ تأسيسها على يد فردينان دي سوسير (Ferdinand du Saussure) ثورة في الدّرس اللّغويّ وقطعت ابستيمولوجيّا مع المقاربات السّابقة مثل الفيلولوجيا أو فقه اللّغة والدّراسات المقارنة أو المقارنيّة وبحوث النّحاة المحدثين أو اللّسانيّات التّاريخيّة وقدّمت تصوّرا علميّا يستند إلى مفاهيم نظريّة مزوّدة بأدوات إجرائيّة مكّنت من توصيف اللّغات الطّبيعيّة توصيفا علميّا دقيقا.

وعلى الرّغم من تفرّع اللّسانيات العامّة إلى فروع عدّة تبعا لاختلاف وجهات النّظر وتباين المقاصد وظهور عدّة مدارس لسانيّة[1] فإنّها تتّفق على أنّ منطلق الدّراسة هو الجملة، فسميّت جميعها بلسانيات الجملة.

ويقوم التّصوّر اللّسانيّ على دراسة اللّغة لذاتها ومن أجل ذاتها دراسة علميّة وصفيّة تستهدف بنية الألسنة البشريّة وكيفيّة اشتغالها وتطوّرها على مرّ العصور، وكان من أخطر نتائجه إقصاء الكلام باعتباره إنجازا فرديّا متغيّرا وهامشيّا، فأقصي مستعملو اللّغة وأُعرض عن مقامات التّواصل وجميع ما يحيل عليه الكلام من أبعاد مرجعيّة وإحاليّة.

أثّرت المفاهيم اللّسانيّة وتصوّراتها والمقاربة الشّكلانيّة[2] ونتائج الدّراسات

---

[1] نذكر من أبرز المدارس اللسانيّة التّوزيعيّة مع بلومفيلد (Bloomfield) وهوكات (Hocket) والكلوسيماتيكيّة مع لويس هلمسليف (Hjelmslev Louis) والتّوليديّة التّحويليّة مع نعوم تشومسكي (Chomsky Noam).

[2] توجّه الشّكلانيون إلى دراسة الشّعر دراسة لسانيّة وتحليل الخرافة تحليلا وظائفيّا، وقد اختلفت توجّهاتهم وأهدافهم حيث توجّه فلاديمير بروب (Propp Vladimir) وشكلوفسكي (Chklovski) إلى تتبّع البنى الحدثيّة، وكشف إيخنباوم (Eikhenbaum) وباختين (Bakhtine) عن السّمات الأسلوبيّة المميّزة للنّصوص، ونظر رومان جاكبسون (Roman Jakobson) في الخصائص الصّوتيّة. وعالج توماشفسكي (Tomachevski) الخصائص الايقاعيّة. وكان الجامع المشترك بينهم دراسة الأثر الأدبيّ دراسة محايثة ومقاربته مقاربة مخبريّة ووصفه وصفا آنيّا. ولئن عمد فلاديمير بروب إلى التّخفيف من ضغوطات الصّرامة العلميّة بالنظر في «تحوّلات الخرافة العجيبة» تاريخيّا فإنّه قدّم دراسة الظّاهرة الأدبيّة دراسة وصفيّة آنيّة على دراستها دراسة تاريخيّة. يُنظر:

Vladimir Propp,*Morphologie du conte* ,Editions du Seuil 1965 ,et ,1970 p.31 .

الأنثروبولوجيّة[1] في النّقد الأدبيّ فانسلّت من رحمها اتّجاهات بنيويّة[2] انكبّ أعلامها على تجويد مقولاتهم ومناهجهم وتدقيقها أملا في الوصول بها إلى نظريّة عالمة تستوفي شروط مقاربة سائر التّجلّيات النّصّيّة مهما اختلفت أجناسها وتباينت أنواعها وتضاربت سياقاتها، بل إنّ تودوروف عمل على تأسيس علم جديد متفرّع من الإنشائيّة باعتبارها علم الأدب هو السّرديّات (Narratologie) أو علم القصص[3].

وعلى الرّغم من السّمات الفارقة بين هذه الاتّجاهات نظريّا ومنهجيّا فإنّها تتّفق حول عدّة كلّيّات ثابتة أبرزها على الإطلاق اعتبار الخطاب بنية مغلقة ونسقا من العلامات يتميّز باتّساقه (Cohérence) وتماسكه (Cohésion)، فانكبّوا على تفكيك نسيج دوالّه ونظم إنتاجها للدّلالة وقطعوا مع السّياقات الخارج -نصّيّة واقتصروا على الدّراسة المحايثة بالنّظر في بنية النّصّ الدّاخليّة ومنطق انتظام عناصره وآليات اشتغالها لإنتاج المعنى.

وارتهن الخطاب بذلك إلى تصوّرات البنيويّة ومقولاتها الجامدة التي ضيّقت واسعا وحصرت عمليّة إنتاج المعنى في تفاعل مجموعة عناصر سياقيّا وجدوليّا تتجلّى في المستويات المعجميّة والصّرفيّة والتّركيبيّة في الخطاب سواء كان جملة أو نصّا.

أقصت البنيويّة بهذا التّصوّر جميع العناصر الخارجة عن الخطاب أو غير اللّسانيّة من باثّ ومتقبّل ومقام، وعملت على الحؤول دون اللّغة ومستعمليها وملابسات إنتاجها. فأهملت بذلك عناصر جوهريّة وبنيات أساسيّة في إنتاج المعنى وبناء الدّلالة. ولا غرابة في ذلك إذ البنيويّة مظهر من مظاهر تجلّيات الفلسفة الغربيّة، فالتّمركز حول البنية لدى البنيويّين امتداد لتمركز الفكر الغربيّ حول العقل مثلما تمركز الفكر العربيّ حول الوحي.

ساهمت هذه النّقائص والهنات في تطوّر الدّراسات التي ضاقت ذرعا بقيود البنيويّةوضوابطها الصّارمة،بل عملت على تقويض مقولاتها وتحرير الخطاب من براثنها[4].

---

[1] توصّل كلود ليفي شتراوس (strauss-Lévi Claud) في بحوثه الأنثربولوجيّة إلى عدّة نتائج في دراسة الأساطير وكيفيّة اشتراكها في البنى الأساسيّة على اختلاف الأزمنة والأمكنة.

[2] من هذه الاتّجاهات الاتّجاه السيميائيّ بريادة قريماس (Greimas) وكلود بريمون (Bremond Claude) والاتّجاه الإنشائيّ بزعامة تودوروف (Todorov Tzvetan) وجيرار جينات (Genette Gérard)، وبينهما اتّجاه وسطيّ هو سيمياء الدّلالة مثّله رولان بارت (Barthes Roland).

[3] Tzvetan Todorov,*Grammaire du Décaméron* ,Mouton ,The Hague-Paris ,1969 ,p.10.

[4] نعتت جماعة مو (Mu Groupe) في كتاب «البلاغة العامّة» (*générale Rhétorique*) البنيويّة بـ«الإمبرياليّة اللّسانيّة». أمّا ميشال فوكو فقد رأى في قيام البنيويّة على النّسق المغلق «موت المؤلّف». ويعدّ جاك دريدا (Derrida Jacques) من أشدّ المنتقدين للبنيويّة واعتبرها تعيش انقساما بين ما وعدت به وما أنجزته، فعمد إلى تمزيقها وتفكيكها، ولم تعد هناك بنية أو مركز وإنّما المركز هو خارج النّصّ وداخله فهو لعبة متواصلة بين المركز واللّامركز. وأمّا كريستيفا (Kristeva Julia) فقد سعت في كتبها وتحديدا «ثورة اللّغة الشّعريّة» إلى تشريح جثّة الألسنيّة.

والجامع بين أغلب هذه التّيّارات هو السّعي بلا هوادة من أجل تحرير الخطاب من «الشّرنقة»[1] البنيويّة وسلطتها المميتة وذلك بإيجاد مراكز جديدة موازية لمركزيّة البنية سواء اتّصلت بالمنتج أو المتقبّل أو السّياق الاجتماعيّ أو المقام الحافّ بعمليّة إنتاج الخطاب وتأويله.

انطلقت اللّسانيات وربيبتها البنيويّة من معطى جوهريّ أساسه أنّ اللّغة نظام علامات وعليه فإنّ المنجز منها خطاب بنيويّ ونسق مغلق دالّ في ذاته، والحال أنّ اللّغة نظام تواصل والمنجز منها خطاب تكوينيّ ونسق منفتح دالّ في غيره.

فالإنسان اكتسب اللّغة وتعلّمها مواضعة في شكل علامات لسانيّة ليتواصل مع محيطه وينقل فكره وعواطفه، وارتباط اللّغة بشروط التّعلّم ونظريّة «الاكتساب» هو تماما ما نجده في التّصوّر الدّينيّ الإسلاميّ حيث اكتسب آدم اللّغة عن طريق التّعلّم من الله «وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا»[2]. ويُعتبر التّواصل الوظيفة الجوهريّة في جميع اللّغات الطّبيعيّة وعلّة وجودها بدءا من نشأتها في التّصوّر الدّينيّ: «قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ»[3]، فالتّسمية هي أولى مراتب الوعي بعمليّة التّواصل.

وتُعتبر وظيفة الخطاب وكيفيّة اشتغال عناصره التّكوينيّة المسألة الخلافيّة الجوهريّة بين مختلف التّيّارات والمدارس، ومن هذا المستوى بالذّات دخلت البلاغة الجديدة حرم الخطاب فقاربته حجاجيّا وتداوليّا وتلفّظيّا انطلاقا من ربطه بالسّياق التّواصليّ وسائر العناصر المقاميّة. وقد ركّزت بالأساس على مقصديّة المتلفّظ ووظيفة الخطاب ورسالته وجميع العناصر النّاهضة بذلك بدءا من مميّزات مقام التّواصل وصولا إلى طبيعة العلاقة بين الباثّ والمتلقّي مرورا بمؤشّرات الحجاج ومعيّنات الذّات في الخطاب. فلئن كانت اللّسانيات تتحرّك ضمن مجالات البنية والدّلالة وتتّجه رأسا إلى داخل الخطاب فإنّ البلاغة الجديدة تتحرّك ضمن مجالات الوظيفة والسّياق المقاميّ والرّسالة وتتّجه رأسا إلى خارج الخطاب، ويمكن اعتبار ذلك بمثابة الانقلاب الابستيمولوجيّ على الأسس المعرفيّة في الدّرس اللّسانيّ الحديث.

والنّاظر اليوم في المنجز النّقديّ المتّصل بالخبر الأدبيّ يقف على كمّ من الدّراسات

---

[1] محمّد نجيب العمامي، الذاتيّة في الخطاب السرديّ، دار محمّد علي للنّشر، صفاقس وكلّيّة الآداب والفنون والإنسانيّات، منوبة، الطّبعة الأولى، 2011، ص 203.

[2] سورة البقرة، الآية 31.

[3] سورة البقرة، الآية 33.

والبحوث غزير[1]، ولعلّ الجامع المشترك بين الأغلب الأعمّ من هذه الأعمال أن يكون اتّكاء أصحابها على المقولات الإنشائيّة وأدواتها الإجرائيّة ومناهجها التّحليليّة الوافدة من الغرب، مقاربين الخبر الأدبيّ من جهة كونه خطابا سرديّا تخييليّا، فقدّموا المقاربات السّرديّة خصوصا والسّيميائيّة والوظائفيّة عموما في مقاربة الخبر الأدبيّ وأعرضوا في المقابل عن المقاربات البلاغيّة من حجاجيّة وتداوليّة وتلفّظيّة إلّا لماما، فأضيئت من الخبر الأدبيّ بنيته السّرديّة وكيفيّة انتظام الأحداث وانبناء العلاقة بين الفواعل، وأضيئت كذلك خصائص الخطاب وكيفيّة تشكّل طرائق القصّ فيه، ولكن ظلّت سائر المكوّنات الأخرى في العتمة.

فأقصي الأخباريّ الكاتب والقارئ سواء أكانا حقيقيّيْن أم مفترضيْن. وحُكم على الخبر الأدبيّ أن يظلّ سجينا داخل حدوده النّصّيّة، ليس له أن يغادرسفر الكتاب إلى صاحبه أو متقبّله، وليس بوسعه أن يلتمس لنفسه موقعا بين الخطابات التي تجعل الإنسان والعالم في سيرورة تغيّر مستمرّ، وليس له أن يكون موضوع بحث ودرس من وجهة نظر البلاغة الجديدة.

وإنّ النّظر اليوم إلى الخبر الأدبيّ من جهة كونه فعلا قوليّا يفتح آفاقا جديدة في التّعاطي معه والتّأسيس لتقبّله تقبّلا مختلفا يُكمل ما ظلّ ناقصا منه وينير ما بقي منه في العتمة. واعتبار الخبر الأدبيّ فعلا قوليّا يمنحه هويّة جديدة إلى جانب هويّة التّخييل من شأنها أن تفسح المجال وسيعا أمام مقاربته من جهة بلاغة التّداول، فتتقاطع في بنيتيْه السّطحيّة والعميقة بلاغة التّخييل وبلاغة التّداول. ولكن دون ذلك عقبات كأداء ليس من اليسير تذليلها.

---

[1] نذكر من أبرز هذه البحوث:
- محمد أحمد خلف الله، صاحب الأغاني أبو الفرج الأصبهاني الرّاوية، مكتبة الأنجلو المصرية، الطّبعة الثّانية، 1962.
- محمد حسن عبد الله، كتاب الفرج بعد الشّدّة للقاضي التّنوخي: دراسة فنيّة تحليليّة، عالم الفكر، المجلّد 14، العدد الثّاني، يوليو / أغسطس / سبتمبر 1983.
- محمد القاضي، الخبر في الأدب العربيّ: دراسة في السّرديّة العربيّة، كلية الآداب، منوبة، تونس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، 1998.
- سعيد جبار، الخبر في السّرد العربيّ: الثّوابت والمتغيّرات، شركة النّشر والتّوزيع المدارس، الدّار البيضاء، الطّبعة الأولى، 2004.
- بشير الوسلاتي، مدخل إلى كتاب الفرج بعد الشدّة للقاضي التّنوخي. مقال ضمن كتابه «في القصّ العربيّ قديمه وحديثه»، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، وحدة البحث «الدّراسات الإنشائيّة»، 2010.
- محمّد النّاصر كحّولي، فنّ الخبر في الأدب العربيّ: من القرن الخامس إلى القرن العاشر هجريّا، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتورا بكلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، أشرف عليها الأستاذ عبد الله تاج وناقشتها يوم 29/ 01/ 2015 لجنة تتكوّن من الأساتذة: محمّد الخبو (رئيسا) وعبد العزيز شبيل (مقرّرا) وبشير الوسلاتي (مقرّرا) ومحمّد رشيد ثابت (عضوا) وعبد الله تاج (مشرفا).

وتقتضي هذه الهويّة الجديدة تنزيل الخبر الأدبيّ ضمن الخطابات القائمة على «المرجّح والممكن والمحتمل»[1] فتتراجع هويّته التّخييليّة القائمة على أنّه كذب يحتمل الصّدق يجري إلى الإمتاع وتبرز الهويّة التّداوليّة الجديدة القائمة على أنّه صدق يحتمل الكذب يجري إلى الإقناع. والسّؤال هنا: كيف للخبر الأدبيّ أن يتّسع لتداخل البنيات التّخييليّة والبنيات التّداوليّة واشتغالها معا في آن واحد؟

وتتفرع عن هذا السّؤال المحوريّ أسئلة أخرى: هل ينهض الخبر الأدبيّ بالوظيفة الجماليّة الفنيّة والوظيفة الحجاجيّة؟ أي هل يتّسع الخبر الأدبيّ لما هو أدبيّ جماليّ وما هو تداوليّ حجاجيّ؟ هل يتعايش المكوّن الأسلوبيّ والمكوّن الحجاجيّ داخل الخبر ويتكاملان أم يُقصي أحدهما الآخر ويجور عليه؟

ومن مقتضيات هذه الهويّة الجديدة أن يكون الخبر الأدبيّ حوارا بين طرفين حقيقيّين أو افتراضيّين، وإجابة عن أسئلة ما تنفكّ تتواتر كلّما طرأ على معايير التّقبّل تغيير مّا، والسّؤال الآن: كيف للخبر الأدبيّ وهو النّصّ المكتوب أن يستجيب لشروط السّياق التّخاطبيّ الواجب توفّرها في كلّ حوار؟

وهل تتحقّق بلاغة الخبر الأدبيّ من خلال المكوّن الأسلوبيّ النّاهض بوظيفة جماليّة أدبيّة أم تتحقّق من خلال المكوّن التّداوليّ، فنصنّف عندئذ الأخبار صنفين، صنفا غلب عليه الخطاب السّرديّ التّخييليّ من خلال أسلوب التّصوير القصصيّ وكثافة المكوّنات السّرديّة من أفعال وشخصيات ومكان وزمان، وتضخّم ممكنات السّرد، فهي نصوص سرديّة تخييليّة خالصة. وصنفا غلب عليه الخطاب التّداوليّ من خلال تواتر التّبادلات القوليّة وتباين الأطروحات، فهي نصوص تداوليّة حجاجيّة خالصة، ويكون بذلك الخبر الأدبيّ قد خرج من مجال الإبداع الأدبيّ والإمتاع الفنّيّ ودخل في مجال السّجال الفكريّ والمنازعة الحجاجيّة، أم تتحقّق هذه البلاغة من خلال تفاعل الخطابيْن معا، فنجد صنفا ثالثا يتعايش فيه الخطاب السّرديّ التّخييليّ والخطاب التّداوليّ الحجاجيّ؟

وحينئذ يجوز القول بنشأة بلاغة جديدة في رحاب الخبر الأدبيّ يندمج فيها مسلكا التّخييل والتّداول، بلاغة تخييليّة تجعل الخبر الأدبيّ خطابا يرتكز في جانب منه على المكوّن الأسلوبيّ والوظيفة الجماليّة ويدعو القارئ إلى التّأويل والإسهام في استكمال

---

[1] العبارة لبيرلمان وتيتيكاه.
Chaim Perelman et Lucie Olbrechts - Tyteca ,*Traité de l'argumentation :La nouvelle rhétorique,* 5e édition, Editions de l'université de Bruxelles,1992 ,p.10.

دلالاته وبناء معانيه. وبلاغة تداوليّة تجعله خطابا يرتكز في جانبه الآخر على المكوّن الحجاجيّ ويدعو المتقبّل إلى الانخراط في الخطاب والتّفاعل مع الدّعوى التي يؤسّس لها المنشئ. فيمكن اعتبار الخبر الأدبيّ جماعا من الصّيغ الخطابيّة تتولّى تشكيل بلاغته، وتؤهّله للاندراج ضمن الخطابات التي تشكّل موضوع البلاغة العامّة.

إنّ التّأسيس لبلاغة جديدة في أدب الأخبار وتحديدا في الأندلس تقوم على الدّمج بين مسلكيْ البلاغة: التّخييل والتّداول، لمن أوكد مطامحنا في هذا العمل، لا سيّما أنّ الدّراسات التي تصدّت لمنزلة التّداول في النّصوص التّخييليّة[1] عموما والخبر الأدبيّ[2] خصوصا سواء أكانت نظريّة[3] أم تطبيقيّة[4] ما زالت محدودة، ومحاولة الدّمج بين مسلكيْ البلاغة ما زالت تتلمّس الخطى. وقد آثرنا تقسيم هذا العمل ستّة فصول، سنمحّض الفصليْن الأوّل والثّاني للجوانب النّظريّة، وسنفرد الفصل الأوّل لعقد الصّلات بين الخبر الأدبيّ والخطاب التّداوليّ والنّظر في الوجوه التي بها يكون الخبر الأدبيّ خطابا تداوليّا.

فالخبر الأدبيّ من جهة كونه فعلا قوليّا حوار بين منشئ ومتقبّل حقيقيّن في مستوى ومفترضين في مستويات أخرى، ثمّ هو إجابة عن أسئلة عدّة:

كيف أروّح عن نفسي؟ كيف أعلم؟ كيف أقول؟ وكيف أفعل؟ وفي المحصّلة إنّها إجابة عن سؤال كيف أكون؟ وكلّما تجدّدت معايير التّقبّل وتنوّعت وجوه القراءة تجدّدت الإجابات وأبان الخبر عن ثراء وقابليّة لتقديم أجوبة وتفاعل مع المتجدّد من القراءة. وهي إجابات ترشح بالوظيفة التّواصليّة العمليّة وتحفّز المتلقّي على الفعل فينشط ويتعلّم ويقتنع ويفعل، ولعلّ هذا أن يكون مدخلا تتسرّب منه بلاغة التّداول إلى فضاء الخبر الأدبيّ.

---

[1] نذكر منها: البلاغة والخطاب، إعداد محمّد مشبال وتنسيقه، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2014.

[2] محمّد مشبال، البلاغة والسّرد: جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كليّة الآداب جامعة عبد الملك السّعدي تطوان، المغرب، 2010.

[3] نذكر من أبرز الدّراسات:

-محمّد العمري، البلاغة الجديدة: بين التّخييل والتّداول، إفريقيا الشرق، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء، 2005.

-Olivier Riboul ,*Introduction à la rhétorique* ,Press Universitaire de France ,Paris.1994 ,

[4] وجدنا في ما أمكننا الاطّلاع عليه دراستين تطبيقيّتين لنصّ سرديّ تخييليّ من منظور تداوليّ. أنجز الدّراسة الأولى محمّد نجيب العمامي وعنوانها: مقاربة النّصّ السّرديّ التّخييليّ من وجهة تداوليّة: «المقامة البغداديّة» للهمذاني أنموذجا. ضمن كتاب: بحوث في السّرد العربيّ، دار نهى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، صفاقس، الطّبعة الأولى، جانفي 2005، ص ــ ص 99 ــ 121.

وأنجز الدّراسة الثّانية بشير الوسلاتي وعنوانها: المقامة البغداديّة من وجهة نظر تداوليّة. ضمن كتاب: في القصّ العربيّ قديمه وحديثه، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، وحدة البحث: «الدّراسات الإنشائيّة»، 2010، ص ــ ص 103 ــ 122. وقد مثلت الدّراستان تحوّلا معرفيّا جذريّا في سياق مقاربة نصّ تراثيّ بأدوات إجرائيّة تداوليّة.

وبعد أن يستقيم لنا الأمر على نحو من الأنحاء سنسعى في الفصل الثّاني إلى النّظر في طرائق الدّمج بين التّخييل هويّة الخبر الأدبيّ الأساسيّة القديمة والتّداول الهويّة الحادثة الجديدة، مع ما يستتبع ذلك من كشف مناطق التّقاطع والتّخارج بين التّخييل والتّداول وكيفيّة اشتغال بنيات كلّ منهما من أجل النّهوض بوظيفتيْ الإمتاع والإقناع في الوقت ذاته.

فلئن كان الخبر الأدبيّ تحقيقا لمتعة وإنتاجا لمعنى ورسما لدلالة تساهم معايير التّلقّي وكفاءة القارئ في استكمال بنائها، فإنّه يُساق كذلك لتمثيل قيمة وإثبات فكرة ودعم موقف أو لإبطال دعوى وتفنيد قناعة وتهجين سلوك. وقد تكون هذه الفكرة مضمرة أو صريحة وردت الإشارة إليها في مقدّمة الكتاب أو الباب أو وردت على سبيل التّمهيد للخبر كما هو الشّأن في أخبار طوق الحمامة في الألفة والألّاف لابن حزم الأندلسيّ.

ومتى بلغنا من مطمحنا هذه الدّرجات سنعدل إلى الجوانب الإجرائيّة والتّطبيقيّة في ما تبقّى من الفصول، وسنخصّص الفصل الثّالث للحجاج البلاغيّ منطلقين في ذلك من أبرز الأطر والتّقنيّات النّظريّة المؤسّسة له منذ البلاغة اليونانيّة مع أرسطو إلى البلاغة الحديثة مع بيرلمان وتيتيكاه مرورا بالبلاغة العربيّة. وسنسعى إلى إجراء هذه المقولات على بعض التّجلّيّات النّصّيّة من أدب الأخبار في الأندلس.

وسنوجّه عنايتنا في الفصل الرّابع إلى الحجاج التّداوليّ ناشرين الكلام في أهمّ المصطلحات والمفاهيم التي يرتكز عليها تمهيدا لاختبار مدى نجاعتها في مقاربة الخبر الأدبيّ المنجز في الأندلس. ثمّ نقف عند الحجاج اللّسانيّ، وسنبسط القول في ما ذهب إليّه أعلام هذا التّوجّه من مقولات نظريّة وتقنيّات إجرائيّة تكون مهادا لتطبيقها على نموذج من الأخبار الأدبيّة في الأندلس. ثم نختم هذا العمل بالنّظر في أبرز مقولات الحجاج الخِطابيّ، وسنسعى إلى رصد تجلّياته في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ.

ولا يفوتنا في ختام هذه المقدّمة أن نتوجّه بجزيل الشّكر للأستاذ بشير الوسلاتي الذي تقبّل برحابة صدر تقديم هذا العمل. كما نتوجّه بفائق التقدير والاحترام للأستاذ محمّد نجيب العمامي على ما قدّمه لنا من سديد الرأي ودقيق الملاحظة.

الفصل الأوّل

الخبر الأدبيّ خطابا حجاجيّا

إنّ الخبر الأدبيّ نوع من أنواع السّرد الأصليّة إلى جانب الحكاية والقصّة والسّيرة، وهو وحدة سرديّة بسيطة مستقلّة بذاتها يتقدّم الحدث فيها على الشّخصيّة ويكون أقلّ تمركزا في الزّمن والفضاء ويُخرَج بأساليب موجزة. والملاحظ أنّ الخبر الأدبيّ يقوم على البنيات السّرديّة الأساسيّة الواجب توفّرها في كلّ خطاب سرديّ أصليّا كان أو فرعيّا، وتتمثّل في الحدث والشّخصيّة والإطارين الزّمانيّ والمكانيّ. وهو يختلف عن سائر الخطابات السّرديّة الأخرى بطريقة إجرائه لهذه البنيات ودرجة حضورها فيه. وتجعل هذه الخصائص المميّزة الخبر الأدبيّ خطابا سرديّا خالصا. ولنا أن نتساءل هنا كيف للخبر الأدبيّ وهو خطاب سرديّ خالص أن يكون خطابا حجاجيّا[1]؟

---

[1] تواترت تعريفات الحجاج وتلوّنت تبعا لتلوّن الحقول المعرفيّة التي عرضت له مثل الفلسفة والمنطق والبلاغة وعلم الكلام وأصول الفقه والقانون واللّسانيّات والتّداوليّة وسائر علوم النّصّ.
الحجاج عند أرسطو حجاجان، الحجاج الجدليّ، والحجاج الخطابيّ. وأشار القدامى من العرب إلى الحجاج بمصطلحات عدّة من قبيل البيان كما في قول الجاحظ: «مدار الأمر والغاية التي إليها يجريا لقائل والسّامع إنّما هوالفهم والإفهام. فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هوالبيان في ذلك الموضع» وكثيرا ما يتطابق مفهوم الحجاج مع مفهوم البلاغة عند الجاحظ فـ«جماع البلاغة البصر بالحجّة»[4]. للتوسّع يُنظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص ص 56–66.
ولعلّ أطرف المصطلحات والتّعريفات ما نجده عند ابن الأثير الكاتب إذ وظّف مصطلح الاستدراج وعرّفه بقوله: «وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه وإن تضمّن بلاغة فليس الغرض ههنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكر ما تضمّنه من النّكت الدّقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتّسليم». يُنظر: ابن الأثير الكاتب، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 472.
واستعمل ابن وهب مصطلح الجدل مرادفا لمصطلح الحجاج في قوله: «وأمّا الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه من اعتقاد المتجادلين، ويستعمل في المذاهب والدّيانات وفي الحقوق والخصومات والتّسوّل في الاعتذارات. ويدخل في الشّعر وفي النّثر. يُنظر: أبوالحسن إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تقديم وتحقيق،جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، عابدين، مصر، د ت، ص 150/ ...
... وعرّف عبد الله صولة الحجاج الجدليّ بقوله: «ومداره على مناقشة نظريّة محضة لغاية التّأثير العقليّ المجرّد. وعرّف الحجاج الخطابيّ مستندا إلى ما ورد عند أرسطو بأنّه «حجاج موجّه إلى جمهور ذي أوضاع خاصّة في مقامات خاصّة. والحجاج ههنا ليس لغاية التّأثير النّظريّ العقليّ وإنّما يتعدّاه إلى التّأثير العاطفيّ وإلى إثارة المشاعر والانفعالات وإلى إرضاء الجمهور واستمالته ولو كان بمغالطته وخداعه وإيهامه بصحّة الواقع. للتوسّع يُنظر: عبد الله صولة،الحجاح في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، ج 1،كليّة الآداب بمنّوبة، 2001، صص 22–21.
وعرّف شايم بيرلمان (Chaim Perelman) لوسي أولبريشت – تيتيكاه (Lucie Olbrechts - Tyteca) الحجاج بقولهما: «موضوع نظريّة الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو تزيد في درجة ذلك التّسليم». يُنظر:
1) Chaim Perelman et Lucie Olbrechts Tyteca,*Traité de l’argumentation*,op. cit.p. 5.
وأمّا ميشال ماير (Michel Meyer) فـقد صاغ تعريف الحجاج في إطار نظريّة المساءلة (Théorie du questionnement) ورأى أنّه يقوم على دراسة العلاقة بين ما هو مصرّح به في الكلام وما هو ضمنيّ. والمصرّح به في الكلام إنّما هو الجواب، والضّمنيّ هو السّؤال الذي يتوصل المتقبّل إلى استنباطه من خلال ما يرد في الجواب من واسمات حجاجيّة وما يتوفّر عليه السّياق من خصائص مقاميّة. ثمّ دقّق التّعريف بقوله إنّ الحجاج يهدف إلى إيجاد الأدوات المؤدّية إلى =

I - حوار المركز والهامش

يفترض كلّ حجاج سياقا تواصليّا وحوارا بين طرفيْن سواء أكانا حقيقيّيْن أم مفترضيْن. وكلّ خطاب يروم أن يكون حجاجيّا يجب أن يستجيب إلى مثل هذه الخصائص ويستجيب لشروط القول والتّلقّي. وسنختبر على هذا الأساس الخبر الأدبيّ في الأندلس وننظر إن كان مستجيبا لهذه الخصائص والشّروط التي تؤهّله لأن يكون خطابا حجاجيّا.

يتنزّل الخبر الأدبيّ في الأندلس ضمن سياق تواصليّ داخل الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، وحوار ثقافيّ طرفاه المركز والهامش، يمثّل المشرق العربيّ المركز وتمثّل سائر الآفاق الأخرى بما فيها الأندلس الهامش.

ولئن كان الخبر الأدبيّ هشّا من النّاحية التّداوليّة باعتباره خطابا مكتوبا لا يستجيب لشرط القول والتّلقّي ولا يجمع بين منشئه ومتقبّله سياق مقاميّ واحد[1] فإنّه قبل تدوينه أو ترهينه نتاج عمليّة تلفّظ، وكلّ «تلفّظ يعدّ في جوهره تحاوريّا (dialogique) بالمعنى نفسه الذي يكون قابلا للتّحليل»[2].

ويتنزّل المتلقّي منزلة جوهريّة في هذا الحوار ترتقي به إلى مرتبة السّامع الكونيّ (auditoire universel) باعتباره لا يشارك الأخباريّ السّياق التّخاطبيّ، وهو المعني الأوّل بتلقّي الخطاب وتأويله ومن ثمّة الحكم للهامش أو عليه في صراعه مع المركز. فالمتلقّي سيتواصل مع خطاب ناشئ في الأندلس الرّحم الجديد في الإنتاج العلميّ والإبداع الأدبيّ، وقد يجد فيه بعض العلامات أو الإشارات التي تساعده في عمليّة التّأويل وتدعوه إلى استكمال الرّسالة التي يروم الأخباريّ إيصالها إليه. وقد لا يجد أيّ علامة فيلتجئ إلى التّأويل متوسّلا بكفاءته القصصيّة والموسوعيّة ليتعاون مع الأخباريّ أو الرّاوي في استنطاق النّصّ وتأويله.

لقد ظلّ العربيّ المسلم في الشّرق محكوما في بنيتيْه الذّهنيّة والوجدانيّة بمعادلة

= الجواب الموحّد وإرضاء المتلقّي وإقناعه لا سيّما متى تعدّدت الأسئلة وتباينت المواقف». يُنظر:

Michel Meyer,*Qu'est-ce que l'argumentation?*, Paris, Vrin, 2005, p. 15.

واعتبر أنسكومبر (Jean-Claude Anscombre) وديكرو (OswaldDucrot) الحجاج إنجازا لعملين هما عمل التّصريح بالحجّة وعمل الاستنتاج وقد ترد النّتيجة صريحة أو ضمنيّة. يُنظر:

Jean-ClaudeAnscombre et Oswald Ducrot,*L'argumentation dans la langue*, Editions Mardaga, 1997, p.10.

[1] DominiqueMaingueneau,*Pragmatique pour le discours littéraire* ,Nathan ,Paris ,p.27 .

[2] *Ibid*, p.18.

المركز والهامش، وهي معادلة تستمدّ مرجعيّتها من النّصّ الدّينيّ كما في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1].

ويتجلّى مبدأ الخيريّة كذلك في ترتيب المسلمين أنفسهم منذ نشأة أمّتهم، فقد ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

استند العربيّ إلى هذه المرجعيّة الدّينيّة وأوجد لنفسه بعد أن تنزّل في أعلى هرم الأمم طبقيّة داخليّة تقوم أساسا على الأسبقيّة إلى الإسلام في الزّمن، فتقدّم المهاجرون باعتبارهم السّابقين إلى الإسلام، ثمّ الأنصار لكونهم حاضنة الإسلام والمسلمين ثمّ، التّابعون ثم الذين يلونهم.

فتكوّن في لاوعي العربيّ تصنيف اجتماعيّ طبقيّ ذو شكل دائريّ مركزه أصحاب النّبى وزمانهم ومكانهم، وكلّما ابتعدنا في العرق أو العصر أو المصر ابتعدنا عن المركز واقتربنا من الهامش. ووجد العربيّ نفسه في المركز بعد انقضاء عصر النّبي ووفاة الصّحابة والتّابعين. ثمّ وسّع مقولة المركز والهامش لتشمل الجانبيْن الثّقافيّ والحضاريّ.

فالعربيّ المسلم مركز وسائر الأجناس وأهل الأديان الأخرى هوامش، ومدنه المقدّسة وعواصمه السّياسيّة مراكز، وسائر الآفاق الأخرى هوامش، وأدب الخاصّة مركز وأدب العّامة هامش، وقد شبّه فرج بن رمضان العلاقة بين المركز والهامش في الأدب بعلاقة قاضي البصرة بالذّباب، «فإنّما مثل القصص العربيّ القديم في علاقته بالثّقافة الرّسميّة السّائدة مثل الذّباب في علاقته بقاضي البصرة وهو في مجلسه كالبناء المبنيّ أو الصّخرة المنصوبة»[3].

شكّلت هذه الخيريّة التّراتبيّة مرجعيّة العربيّ في نظرته إلى الآخر وموقفه منه، فوجد هذا الآخر القادم من خارج المركز أو الموجود في الهامش نفسَه مهمّشا مقصيّا غير معترف بفضله مطعونا في كفاءته. وكان هذا شأن أهل الأندلس الذين لم يعانوا من التّهميش فحسب بل تلقّوا إهانات متتالية[4] من أهل الشّرق.

[1] سورة آل عمران، الآية 110.
[2] سورة التّوبة، الآية 100.
[3] فرج بن رمضان، محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربيّ القديم، ص 278.
[4] ذمّ ابن حوقل [تـ 370هـ] أهل الأندلس في قوله: «ومن أعجب ما في هذه الجزيرة، بقاؤها على من هي في يده، مع صغر أحلام أهلها، وضعة نفوسهم، ونقص عقولهم، وبعدهم من البأس والشّجاعة والفروسيّة والبسالة ولقاء الرّجال ومراس الأنجاد والأبطال». =

ولّدت هذه الإهانات المتتالية لدى أهل الأندلس الشّعور بالنّقص والتّبعيّة، فحرصوا على بناء شخصيّة علميّة مستقلّة عن الشّخصيّة المركزيّة في الشّرق ونمّت بداخلهم الإحساس بالانتماء القوميّ إلى أفقهم الأندلس، ففتحوا باب الحوار مع الشّرق ودخلوا في مرحلة أولى مجال المنافسة معه، «وتبارى المشارقة والمغاربة من المتقدّمين والمتأخّرين»[1] في سائر وجوه الإبداع، ونزّل أهل الأندلس أعلامهم منازل أعلام الشّرق[2].

ثمّ اقتحم أهل الأندلس في مرحلة ثانية مجال التّحدّي[3]، فقطعوا مع مختلف أشكال التّبعيّة للشّرق المركزيّ. وتجلى ذلك في الأنشطة العلميّة والأدبيّة بما فيها أدب الأخبار.

= المقّري، نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 82.
واستهزأالصّاحب ابن عبّاد [326هـ ــــ 385هـ] بكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربّه [246 هـ ــــ 328هـ] وقد أورد ياقوت الحموي [574هـ ــــ 626هـ] خبر ذلك: «وبلغني أنّ الصّاحب ابن عبّاد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده، فلمّا تأمّله، قال: «هذه بضاعتنا ردّت إلينا ظننت أنّ هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، وإنّما هو مشتمل على أخبار بلادنا، لا حاجة لنا فيه». فردّه».
ياقوت الحموي، معجم الأدباء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 490.
واعتبر أهل الشّرق كتاب الحصري «زهر الآداب وثمر الألباب» «البضاعة الأدبيّة الشرقيّة الثانية»[3].
الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، مقدّمة المحقّق،موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص1.

[1] المقّري، نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب، ص 1668.

[2] اعتبر أهل الأندلس ابن قزمان في الزّجالين بمنزلة المتنبّي في الشّعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام،بالنّظر إلى الانطباع والصّناعة. فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغليس ملتفت إلى اللّفظ.
المقّري، نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب، ص 1767.
وابن قزمان الزّجّال، محمّد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان القرطبي المتفرّد بإبداع الزّجل.توفي سنة أربع وخمسين وخمس مائة. وأمّا مدغليس فزجّال أندلسيّ عاش في القرن السّادس هجريّا.
ذكر ابن حجّة الحموي سبب هذا الاسم فقال: «وهذا الاسم مركّب من كلمتين أصله مضغ اللّيس، واللّيس جمع ليسة وهي ليقة الدّواة، وذلك لأنّه كان صغيراً بالمكتب يمضغ ليقته، والمصريّون يبدلون الضّاد دالا، فانطلق عليه هذا الاسم وعرف به. وكنيته في ديوانه أبو عبد الله بن الحاج، يُنظر: ابن حجّة الحموي، بلوغ الأمل في فنّ الزّجل، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 39.
ومجّد ابنُ خاقان الأديب أبا القاسم محمّد بن هانئ وباهى به أهل الشّرق قائلا: «عِلقٌ خطير، وروض أدبٍ مَطير، وله نَظم تتمنّى الثّريا أن تُتوَّج به وتتقلّد، ويودّ البدر أن يكتبَ فيه ما اخترع وولّد، زهتبه الأندلس وتاهت وحاسَنت ببدائعه الأشمس وباهت فحسد المغرب فيه المَشرق، وغصّ به منبالعراق وشّرق». يُنظر:
ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التّأنّس في ملح أهل الأندلس، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص ص 103 ــ 104.

[3] يقول أحمد المصباحي بعد استعراض ثلاثة كتب لأبي بكر محمّد بن الحسن الزّبيدي (تـ 379 هـ/ 989 م): والخلاصة أنّه من خلال شخصيّة واحدة من بين شخصيّات أندلسيّة أخرى ستكون في مستوى أبي بكر العلميّ أو أكثر من جهة، وفي عصر مبكّر بالمقارنة لما بقي في عمر الوجود العربيّ بالأندلس بعد عصر الخلافة من جهة ثانية، وجدنا إلى أيّ حدّ استطاع الأندلسيّون الوقوف أمام زملائهم المشارقة ندّا للنّدّ في الكتابيْن الأوّل والثّاني، ثمّ التّفوّق عليهم بالاعتماد على تلامذتهم الأندلسيّين لاستتمام معارفهم كما هو الحال في الكتاب الثّالث...
يُنظر: أحمد السّماوي، تأثيرات الأدب الأندلسيّ في الأدب المشرقيّ: الظّاهرة اللّغويّة، مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد 23، جانفي 2000، ص 66.
ردّ ابن سعيد المغربيّ على النّاصر ملك الشّام إهانته واستنقاصه أهل الأندلس على الرّغم من هيبة المقام وجلل الموقف، قائلا: «ولمّا عدت من العراق أنشدته من محاسن الدّوبيتيات ما أمر بكتبه. ثمّ قال لي: هذا طراز لا تحسنهالمغاربة. فقلت: يا خوند، كما أنّ الموشّحات والأزجال طراز لا تحسنه المشارقة، والمحاسن قد قسمهاالله تعالى على البلاد والعباد. قال: صدقت، فهات ممّا نظمت أنت في هذا الطّراز».
ابن سعيد المغربيّ، المقتطف من أزاهر الطّرف، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 156.

وشرع أهل الأندلس يمجّدون أعلامهم ويباهون بهم أهل الشّرق، وانعكس ذلك في سائر الأعمال الإبداعيّة بما فيها الخبر الأدبيّ[1].

وكان لهذا السّياق عميق الأثر في تشكيل البنية الحجاجيّة في الخبر الأدبيّ إذ نزّل الأخباريّون في الأندلس الخبر الأدبيّ منزلة الحجّة لأطروحة مضمرة قوامها القناعة التّالية: «أنا الأفضل» أو الفعل الإنجازي: «أنا أتحدّى». فأصبح الخبر الأدبيّ تمثيلا حكائيّا وحجّة سرديّة لموقف مضمر حينا صريح أحيانا أخرى. فـ«الخبر في بنيته السّطحيّة الظّاهرة يسرد حكاية، لكنّه من الواضح يخدم أغراضا بلاغيّة، أي إنّه يمثّل في بنيته العامّة حجّة. وهذا التّداخل بين الحجاج والسّرد في النّصّ هو الذي يفرض على التّحليل البلاغيّ المتكامل أن لا ينظر إليه باعتباره سردا خالصا أو خطابا حجاجيّا مستقلّا، بل ينظر إليه في صيغه المتداخلة بين التّخييل والإقناع، أو بين الخطاب السّرديّ والخطاب الحجاجيّ»[2].

وتجلّى هذا التّحدّي في صناعة الخبر الأدبيّ في مستوى الخبر ومستوى الخطاب. ففي المستوى الأوّل استحدث الأخباريّون في الأندلس أخبارا جديدة مستمدّة من تجاربهم وواقع مجتمعهم، فقد تضمّن كتاب «كنز الكتّاب ومنتخب الآداب» أخبارا «لمن نشأ في جزيرة الأندلس من الكتّاب والأدباء»[3].

وكان ابن بسّام جريئا في المجاهرة بالتّحدّي في قوله متحدّثا عن كتابه: «ضمّنت كتابي هذا من أخبار أهل هذا الأفق ما لعلّي سأربى به على أهل الشّرق»[4].

وراعي ابن حزم جميع العناصر المكوّنة لبنية المقام الخارجيّ وهو مقام منافسة وسجال مع المشارقة، فوردت أخبار «طوق الحمامة» مبتكرة لم يسبق إليها أخباريّ من أهل الشّرق. وكان المشرقيّ مبدعا ومتلقّيا جزءا من هذا المقام باعتباره مرويّا له، ماثلا في ذهن الأخباريّ لحظة كتابة الخبر أو ترهينه. فتحوّل الخبر الأدبيّ من إنشاء وقائع ومواقف أو ترهينها إلى فعل كلاميّ وعمل لغويّ موجّه رأسا إلى المشرقيّ، ولكنّه فعل كلاميّ غير ركحي يُنجز كتابة لا مشافهة، عوّضت فيه الإشارات اللّغويّة الصّريحة

[1] ساق البونسي خبرا أدبيّا جمع فيه بين جودة السّبك وطرافة الموضوع، معليا شأن أعلام أفقه، مقيما الحجّة من وجوه عدّة على أفضليّة أهل الأندلس على نظرائهم في المشرق. يُنظر:
البونسي، كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 461.

[2] محمّد مشبال، السّرد والحجاج: تحليل بلاغيّ حجاجيّ لنصّ سرديّ قديم، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، الجزء الرّابع: الحجاج والمراس، ص 364.

[3] البونسي، كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ص 5.

[4] ابن بسّام، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 4.

والمضمرة العلامات غير اللّسانيّة من تقاسيم الوجه وحركات اليد وسائر الإشارات الجسميّة.

ثمّ انقسم هذا المقام الخارجيّ مقامين اثنين مقام إخبار ومقام وصف. وكلّ مقام يجري إلى البرهنة والاستدلال على تقدّم الأندلسيّ على نظيره المشرقيّ.

«وأنا أدركت بنت زكريّا بن يحي التّميمي المعروف بابن برطال، وعمّها كان قاضي الجماعةبقرطبة محمّد بن يحيى، وأخوه الوزير القائد الذي كان قتله غالب وقائدين له في الوقعة المشهورة بالثّغور، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف ابن سعيد العكي، وكانت متزوّجة بيحي بن محمّد ابن الوزير يحي بن إسحاق، فعاجلته المنية وهو في أغضّ عيشه وأنضر سرورهما، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه في دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله، ثم لم يفارقها الأسف بعدهحين موتها»[1].

إنّ مقام الإخبار في هذا الخبر بُني على التّجديد في مستوى المغامرة لا سيّما عنصريْ السّرد الشّخصيّات والأمكنة، فقد أصبحت الشّخصيّة الأندلسيّة[2] هي مدار الخبر الأدبيّ وتمثّلت في بنت زكريّا من النّساء وابن برطال من الأعيان ومحمّد بن يحي من القضاة ويحي بن إسحاق من الوزراء إلى جانب القادة العسكريّين. وحلّت قرطبة وغيرها من المدن الأخرى من قبيل لورقة وإشبيليّة محلّ البصرة وبغداد ودمشق.

فابن حزم في هذا الخبر كما في سائر أخباره ومثل سائر الأخباريّين في الأندلس يؤسّس لهامش مستقلّ عن مركز متعال إقصائيّ، بل هو يجري إلى قلب المعادلة وتحويل الهامش مركزا والمركز هامشا، لذلك احتجّ بما احتج به أهل المركز من عظمة حواضره واستفاضة شخصيّاته وسبقهم إلى كلّ مكرمة، وكأنّ لسان حاله يقول: لكم حواضركم وعظماؤكم ولنا حواضرنا وعظماؤنا. وهويصدر في كلّ ذلك من خلفيّة ضاربة في عمق الثّقافة العربيّة الإسلاميّة ومتحكّمة بوجه من الوجوه في بنية العقل العربيّ، إنّها خلفيّة السّابق واللّاحق وما تولّد عنها من حرص السّابق على تهميش اللّاحق، ورغبة اللّاحق في إدراك منزلة السّابق، ألم تقل الأنصار لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة: «منّا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منّا الأمراء ومنكم الوزراء»[3].

[1] ابن حزم، طوق الحمامة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 91.
[2] نورد على سبيل الذّكر لا الحصر من الملوك المنصور ابن أبي عامر والمعتمد بن عبّاد، ومن الأمراء المظفّر بن الأفطس، ومن الحاشية ابن عمّار ومن الشّعراء النحليّ ومن الوزراء ابن برد الأكبر وابن عبدوس، ومن القضاة ابن ذكوان، ومن الأدباء ابن قزمان، ومن الكتّاب ابن الزّليانيّ، ومن النّساء ولّادة، ومن الجواري الرّوميْكيّة.
[3] ابن جرير الطّبري، تاريخ الطّبري، موسوعة الشّعر العربي، الإصدار الأوّل، 2009، ص 1502.

كما عمد الأخباريّون في الأندلس في مستوى المغامرة إلى الوصف الذي لم يكن غرضا مقصودا لذاته في المنجز من أخبار المشارقة، فاستوى على أيديهم غرضا قائما بذاته واتّخذ من الطّبيعة موضوعا له إلى جانب النّوازع الإنسانيّة والنّزهة والسّمات الخِلقيّة والخُلقيّة[1] حتّى ليخيّل إلينا أنّه إرهاص مبكّر للرّومنسيّة في الأدب الحديث.

وتنمو في ظلّ هذا المقام العامّ الوظائف الجماليّة وتتبرعم الوظائف الحجاجيّة ثمّ تندمج، فيتحوّل الخبر الأدبيّ إلى حجّة تؤكّد أمرين، أوّلهما عظمة الطّبيعة مستقرّة ومضطربة في الأندلس مقارنة بالطّبيعة في المشرق حيث الجفاف وشدّة الحرّ صيفا والقرّ شتاء.

وهذا من شأنه أن يدحض عقيدة مركزيّة المكان التي يؤمن بها المشارقة. وثانيهما تفوّق الأندلسيّين على المشارقة في الابتكار والإبداع، وهذا بدوره يفنّد فكرة الأسبقيّة في العلم والأدب المتحكّمة في شخصيّة المشرقيّ.

أمّا في مستوى الخطاب فقد لجأ الأخباريّون في الأندلس إلى الصّنعة اللّفظية، كما عمدوا إلى أخبار أهل الشّرق وجرّدوها من خطابها وأعادوا ترهينها بأسلوب مختلف، فجعلوا من الخطاب حجّة تثبت مهارتهم وبراعتهم في الإنشاء وتؤكّد أسبقيّتهم في جودة السّبك، لذلك احتفلوا بالمحسّنات البديعيّة أيّما احتفال وتحديدا السّجع، إذ لم يتميّز الخبر الأدبيّ في الأندلس بخاصيّة بلاغيّة مثلما تميّز بالسّجع الذي أصبح سمة لازمة وعنصرا تكوينيّا قارّا فيه. وإذا جيء بالسّجع عند المشارقة لغايات جماليّة سواء في الخبر الأدبيّ أو المقامة فإنّ الأخباريّين في الأندلس عدلوا بالسّجع إلى وظيفة حجاجيّة تتجلّى في التّأثير في المتلقّي وحمله على الاقتناع بأنّ الشّرق ليس أرومة الإبداع الوحيدة وإنّما هناك مواطن جديدة تتقاسم الإبداع مع أهل الشّرق بل وتظهر عليهم وتتجاوزهم[2].

وتبطن كثافة السّجع مقصديّة الأخباريّين في الأندلس ورسائلهم الموجّهة إلى المتلقّي عموما والأخباريّين في الشّرق خصوصا قوامها تميّز الخطاب في أدب الأخبار بجودة السّبك، وقصور أهل الشّرق وعجزهم عن الإتيان بمثله، ما يحمل المتلقّي على الاقتناع بتقدّم الأندلسيّين في هذه الصّناعة ومن هنا تنبثق وظيفة السّجع الحجاجيّة الثّانية.

إنّ السّرد والوصف وما وصل بينهما من مغامرة وخطاب عند الأخباريّين في

[1] وضع أبو الوليد ابن عامر (ت 440هـ) كتابه «البديع في وصف الرّبيع» جمع فيه أرقّ ما قيل في وصف الرّبيع نظما ونثرا ممّا فاضت به قرائح أدباء الأندلس ومعظمهم من معاصريه.
[2] البونسي، كنز الكتّاب، ص ص 386 ــ 387.

الأندلس أدوات ضروريّة في التّواصل مع المتلقّي عموما والمشرقيّ خصوصا من أجل إقناعه بالمبدأ المفترض: أنت الأسبق وأنا الأفضل، ولذلك وجب عليه أن يعدّل قناعاته ويغيّر ألوان سلوكه في التّواصل مع أهل الهامش عموما وأهل الأندلس خصوصا.

وقد أدّى هذا الحوار القائم على المنافسة والتّحدّي إلى اقتناع[1] أهل الشّرق بأفضليّة أهل الأندلس وتقدّمهم وشهدوا بذلك،فقد نقل النّواجي إقرار أبي الحسين الجزّار بعجزه وأدباء مصر عن مجاراة ابن سعيد المغربيّ في سرعة بديهته وحسن سبكه ورقّة معانيه[2].

II – حوار الأخباريّ والمتقبّل

وإذا نظرنا إلى الخبر الأدبيّ داخل الكتاب أو المجموع الذي تضمّنه وجدناه قد حافظ على البنية الحجاجيّة ذاتها باعتباره حجّة، ولكن يطرأ تغيير على طرفيْ الحوار حيث يصبح المتحاوران الأخباريّ من جهة والقارئ الفعليّ من جهة أخرى، ويتّخذ الحوار بينهما ثلاثة سياقات.

يمثّل عنوان الكتاب فضاء الحوار ومركزه في السّياق الأوّل، و«كلّ عنوان يخلق أفاق انتظار قد تتحقّق أو تخيب»[3]، حيث يورد الأخباريّ أطروحته مضمرة ويكتفي بالإشارة البعيدة إلى مقاصده من إيراد الأخبار باعتبارها حججا لدعم تلك الأطروحة، وهي تغيير أفكار المتقبّل وقناعاته أو مشاعره وأحاسيسه. وتتلبّس هذه المقاصدالحجاجيّة بالأخباريّ فيثبتها في العنوان باعتباره الموطن الاستراتيجيّ حسب تيري أوزوالد، فيحمّل بذلك العنوان إشارة ورمزا إلى أنّ الكتاب إنّما هو خطاب حجاجيّ يجري إلى التّأثير أو الإقناع أو الحمل على الاقتناع، ونبيّن ذلك في التّرسيمة التّالية:

عنوان الكتاب	صاحبه	التّأثير الوجدانيّ	الإقناع العقليّ
العقد الفريد	ابن عبد ربّه (246هـ/ 328هـ)	العقد الفريد	Ø
قطب السّرور في أوصاف الخمور	الرّقيق القيروانيّ (ت 425هـ)	قطب السّرور	أوصاف الخمور

[1] ذكر محمّد النّويري في سياق تحليله لخبر «غنيّة الأعرابيّة» ما يلي: تتّضح الوظيفة الحجاجيّة للخبر باعتبار ما انتهى إليه من الإقناع بالفكرة وترسيخ الحجّة عن طريق الملحة. محمّد النّويري، البلاغة وثقافة الفجولة: دراسة في كتاب العصا للجاحظ، وحدة البحث في تحليل الخطاب، كليّة الآداب منّوبة، 2003، ص 67.

[2] ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التّأنّس في ملح أهل الأندلس، ص 71.

[3] محمّد نجيب العماميّ، البعد الحجاجيّ في أقصوصة «القلعة» لجمال الغيطاني، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ج 4، ص 206.

زهر الآداب وثمر الألباب	الحصري (ت 453هـ)	زهر الآداب	ثمر الألباب
جمع الجواهر في الملح والنّوادر	الحصري	الجواهر / الملح والنّوادر	Ø
بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذّهن والهاجس	ابن عبد البرّ (368هـ/ 463هـ)	بهجة المجالس وأنس المجالس	وشحن الذّهن والهاجس
مطمح الأنفس ومسرح التّأنّس في ملح أهل الأندلس	ابن خاقان (480هـ/ 528هـ)	مطمح الأنفس ومسرح التّأنّس	Ø
روضة الأزهار وبهجة النّفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الآداب	الخطيب الأمويّ (514هـ/ 602هـ)	روضة الأزهار وبهجة النّفوس	نزهة الأبصار
كنز الكتّاب ومنتخب الآداب	البونسي (573هـ/ 651هـ)	منتخب الآداب	كنز الكتّاب
المقتطف من أزاهر الطّرف	ابن سعيد المغربيّ (610هـ/ 685هـ)	أزاهر الطّرف	Ø
ديوان الصّبابة	ابن أبي حجلة التّلمسانيّ (725هـ/ 776هـ)	الصّبابة	Ø
حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنّوادر	ابن عاصم (760هـ/ 829هـ)	المضحكات / الحكايات / النّوادر	مستحسن الأجوبة / الحكم والأمثال

وظّف الأخباريّون في عناوين كتبهم معجميْن دالّين على مقاصدهم، ينتظم كلّ معجم في قطب دلاليّ واحد، أوّلهما معجم التّأثير بإمتاع السّامع ومؤانسته وهو المستفاد من الواد الرّابع في التّرسيمة، وثانيهما معجم الإقناع ويستفاد من الواد الأخير إلّا أقلّه إذ غلّب ابن عبد ربّه وابن خاقان وابن سعيد المغربيّ وابن أبي حجلة التّلمسانيّ مقصد التّأثير على مقصد الإقناع، ولهذا التّغليب مبرّرات فنّيّة تتعلّق بموضوع الكتاب، ومبرّرات تاريخيّة تتّصل بخصوصيّة المرحلة التّاريخيّة التي عاش فيها كلّ منهم.

ولكنّنا لا نعدم مقصد الإقناع في متون هذه الكتب وإن كان بمقدار، فابن أبي حجلة التّلمسانيّ ــ مثلا ــ عمل على إقناع المتقبّل بأفكار مختلفة في متن كتابه أظهرها أنّ

الهوى رداء المروءة ودليل العقل يجلب الحلم ويدرأ الظّلم. وفي مقابل ذلك نجد أفكارا أخرى تقوم على اعتبار الهوى مسلبة الهيبة والوقار ومهوى الوجهاء والأخيار،إذ ينهزم العقل أمام سلطة الوجدان، وينقاد المرء إلى مهالك الرّدى من حيث لا يحتسب، وقد أورد الخبر التّالي ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ لإقناع المتقبّل بعواقب متّبع هوى النّفس ومناها: «وحُكى أنّ الحجّاج مرّ ذات ليلة بدكّان لبّان وعنده بستوقة فيها لبن وهو يقول متمنياً: أنا أبيع هذااللّبن بكذا وكذا وأشتري كذا ثمّ أبيعه فأكسب فيه كذا وكذا. فيكثر مالي ويحسن حالي وأخطب بنت الحجاج وأتزوّجها، فتلد لي أبناً وأدخل إليها يوما فتخاصمني فأضربها برجلي هكذا. ورفس برجله فكسر البستوقة وتبدّد اللّبن، فقرع الحجّاج الباب ففتح له فضربه خمسين سوطا، وقال: أليس لو رفستابنتي هكذا فجعتني فيها»[1].

فعناوين الكتب والمجموعات الأخباريّة تؤشّر إلى أنّ الخبر الأدبيّ إنّما هو حجّة سرديّة أو تمثيل حكائيّ لفضيلة أو رذيلة أو فكرة أو موقف، ويجري إلى مخاطبة الوجدان «لتلذّ النّفس بالانتقال من حال إلى حال، فقد جُبلت على محبّة التّحوّل وطُبعت على اختيار التّنقّل»[2].

كما يجري بالقدر ذاته إلى «شحذ الذّهن واللّبّ»[3] وإفراغ العقل وملئه، إفراغه ممّا يُعتقد أنّه القبيح والشّرّ والحرام وملؤه بما يُعتقد أنّه الحَسن والخير والحلال.

وتمثّل مقدّمة الكتاب أو المجموع في السّياق الثّاني فضاء الحوار بين الأخباريّ والقارئ الفعليّ ومركزه، وترد الأطروحة ظاهرة والمقصد التّواصليّ العمليّ جليّا والتّحفيز على الفعل بيّنا، حيث يصرّح الأخباريّ بذلك في مقدّمة كتابه، كما في قول ابن حزم: «وكلّفتني أعزّك الله أن أصنّف لك رسالة في صفة الحبّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة لا متزيّدا ولا مفتنّا»[4].

ضبط ابن حزم في قوله هذا حدود الأطروحة المراد دعمها وهي ما اتّصل بالحبّ من صفاته ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله. كما ضبط شروطها وهي أن تتّصل الأفكار بالواقع المرجعيّ بمعزل عن التّخييل أو التّخيّل. ثمّ ضبط أنواع الحجج

---

[1] ابن أبي حجلة التّلمسانيّ، ديوان الصّبابة، موسوعة الشعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 251.
[2] الحصري، جمع الجواهر في الملح والنّوادر، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009،ص 6.
[3] ابن عبد البرّ، بهجة المجالس... موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009،ص 1.
[4] ابن حزم، طوق الحمامة، ص 2.

في قوله: «والذي كلّفتني لا بدّ فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنايتي وحدّثني به الثّقات من أهل زمانه»[1]. هذه الحجج مبنيّة على الواقع فهي تجريبيّة مستمدّة من تجارب ابن حزم أو واقعيّة مأخوذة من تجارب الآخرين. وهي تمثّل الأخبار ذاتها التي ساقها في كتابه، فأصبح الخبر حجّة سرديّة لأطروحة ظاهرة ضُبطت حدودها في مقدّمة الكتاب.

وأمّا السّياق الثّالث الذي يكتنف الحوار بين الأخباريّ والقارئ فهو أبواب الكتاب.

فقد تتفرّع أطروحة الأخباريّ الأساسيّة إلى أفكار يُصطلح عليها سابقا بـ«الغرض»، وتستقلّ كلّ فكرة أو غرض بحيّز من الكتاب وقسم منه اصطلح عليه كلّ أخباريّ بما رآه دالّا يفي بالغرض. فقد استعمل ابن عبد ربّه أسماء الجواهر وخصّ كلّ غرض بجوهرة. واختار ابن أبي حجلة التّلمسانيّ مصطلح «باب»: «وأمّا الأبواب فالباب الأوّل في ذكر الحسن والجمال وما قيل فيهما من تفصيل وإجمال، والباب الثّاني في ذكر المحبّين والظّرفاء من الملوك والخلفاء. والباب الثّالث في ذكر منعشق على السّماع ووقع من النّزوع إلى الحبيب في نزاع...»[2].

ووظّف ابن عاصم مصطلح «حديقة» ولكنّه فرّعها إلى «أبواب» تبعا لتلوّن الفكرة الواحدة بألوان مختلفة: «وجعلته ستّ حدائق: الحديقة الأولى: في المجاوبة البديهيّة والمخاطبة المرضيّة، وفيها ثلاثة أبواب: الباب الأوّل في مسكت الجواب ومفحم الخطاب، الباب الثّاني في مستحسن الأجوبة التي هي عن ذكاء قائلها معربة، الباب الثّالث في أبيات شعر وقعت جوابا واستعملت خطابا»[3].

وخصّ الخطيب الأمويّ كلّ باب من أبواب كتابه بفكرة أو قناعة وساق الأخبار حججا ناهضة وداعمة لها، وحدّد غايته من ذلك وهي غاية حجاجيّة تتمثّل في صرف المتقبّل عن فكرة أو إليها وحمله على الانفعال بإثارة تعجّبه استحسانا أو استهجانا، فقال في الباب الخامس الوارد تحت عنوان «في البخلاء وذمّهم»: «وفي هذا الباب من أخبار البخلاء ودناءتهم ما تعتبر فيه وتتعجّب»[4].

[1] المرجع نفسه، ص 2.
[2] ابن أبي حجلة التّلمساني، ديوان الصّبابة، ص 8.
[3] ابن عاصم، حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال،موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 3.
[4] الخطيب الأمويّ، روضة الأزهار وبهجة النّفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الآداب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 60.

والحاصل ممّا تقدّم أنّ الخبر الأدبيّ يتنزّل منزلة الحجّة جيء به ليدعم أطروحة الأخباريّ الظّاهرة أو المضمرة ومقصده من كتابه سواء كان إقناعا أو تأثيرا.

III - حوار الرّاوي والقارئ

إذا نظرنا إلى الخبر الأدبيّ في الأندلس في ذاته من حيث هو خطاب بمعزل عن السّياق الذي انتظمه والكتاب الذي ضمّه أي نظرنا إليه نظرة محايثة بدت لنا أمور أَخَر تتّصل أساسا ببنيته الحجاجيّة، إذ ينأى الخبر الأدبيّ بنفسه عن أن يكون مجرّد حجّة وجزءا من بنية أكبر منه ويصبح خطابا مستقلّا بذاته وحوارا بين طرفيْن هما الرّاوي من جهة كونه منشئ النّصّ والقارئ.

ويرد هذا الخطاب ذا بنية حجاجيّة محقّقة لوظيفة الدّعم أو وظيفة الدّحض حيث يتضمّن أطروحة وحججا ناهضة أو داحضة، ولكنّ البناء الدّاخليّ يختلف من خبر إلى آخر فقد ترد الأطروحة في مطلع الخبر كما في الخبر التّالي:

«لولّادة أخبارٌ يفوتُ إحْصاؤها ويقلّ استقصاؤها، وكانت في ذكاء خاطرها، وكثْرة نوادرها، آية من آيات فاطِرِها. ذكروا أنّها مرتْذات يوم بالوزير أبي عامر ابن عبدوس وكان من أعيان المصر، في ذلك العصر، وكان مِمَّنْ هذى باسمها، وتعرَّف على حكمها، وكانت أمامَ دارِه بركة تتولّدُ من الأمطار، وربّما استمدّتْ بشيء وممّا كان ثمّ من الأقذار. فمرتْ به، وهو قاعدٌ قد نشرَ كمّيه، ونظر في عِطْفيه، وحسن أعوانه إليه، فقالت له: أبا عامر:

أنتَ الخصيبُ وهذه مِصْرُ فتَدَفَّقا فَكِلاكُما بحْرُ

فتركته لا يحيرُ حرفاً،ولا يَرُدُّ طرْفا»[1].

تضمّن هذا الخبر أطروحة قوامها الحكم على شخصيّة ولّادة بـ«ذكاء خاطرها، وكثْرة نوادرها »، وحجّة تجريبيّة تتّصل بتجربتها مع ابن عبدوس، ممّا يدعم الصّفات المنسوبة إليها في الأطروحة.

وقد ترد الأطروحة في آخر الخبر فتتنزّل منزلة الاستنتاج[2].

[1] البونسي، كنز الكتّاب ومنتخب الاداب، ص 374.
[2] ابن أبي حجلة التّلمساني، ديوان الصّبابة، ص 30.

IV - حوار الشّخصيّات

ينبنى الخبر الأدبيّ في السّياق التّخاطبيّ الدّاخليّ على حوار بين شخصيّتين أو أكثر من شخصيّاته. ويبلغ الحوار أقصى درجاته الحجاجيّة متى كان حول مسألة خلافيّة، فيجنّد كلّ طرف طائفة من الحجج النّاهضة لتأييد موقفه والحجج الدّاحضة لردّ موقف خصمه من أجل الظّهور عليه والظّفر بالخصومة، وكثيرا ما تكون مواقف إحدى الشّخصيات صدى لمواقف الأخباريّ ذاته، إذ هي في الأصل النّاطق الرّسميّ باسمه: «ومن ألطف ما حكى عنه (الإمام ابن الإمام محمّد بن داود الظّاهري) أنّه التقى هو وأبو العبّاس بن سريج في مجلس أبي الحسن بن عيسى الوزير فتناظرا في مسألة من الإيلاء. فقال له ابن سريج: أنت بقولك من كثرت لحظاته دامت حسراته أحذق من أن تتكلّم في الفقه. فقال له محمّد بن داود: إن قلت ذلك فإنّي أقول:

أنــزّه في روض المحاسن مقلتي وأمــنــع نفسي أن تــنــال محرمّا

فقال له ابن سريج فيم تفتخر علي ولو شئت لقلت:

ومــســاهــر بالغنج مــن لحظاته قــد بـــتّ أمــنــعــه لــذيــذ سناته

فقال محمّد: احفظ عليه أيّها الوزير ما أقرّ به من الاجتماع حتّى يقيم البيّنة بشاهدي عدل على البراءة. فقال له ابن سريج: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك. قال: فضحك الوزير وقال: لقد جمعتما علماً وفهماً وظرفاً ولطفاً»[1].

بُني هذا الخبر على مسألتين خلافيّتين: تتمثّل أولاهما في حرص كلّ شخصيّة على إقناع الوزير بتفوّقها في النّظم والحطّ من شأن الشّخصيّة الأخرى، وأمّا المسألة الخلافيّة الثّانيّة فتتّصل باتّهام كلّ شخصيّة للأخرى بالمجون. وهي دعوى ضمنيّة للوزير لإحالة الماجن إلى القاضي ليقيم عليه الحدّ. فكلّ شخصيّة تسعى إلى الإيقاع بالأخرى وتوريطها في ما يوجب الحدّ الشّرعيّ وتنزيلها منزلة السّخرية والهزء. ولتحقيق هذا المبتغى وظّفت كلّ شخصيّة حجّة الشّاهد القوليّ من شعر الخصم أملا في إقناع الوزير بصدق دعواها.

يتبيّن لنا بما سلف أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس قد هيمنت عليه المقاصد الحجاجيّة باعتباره فعلا كلاميّا وحدثا تواصليّا موجّها في المقام الخارجيّ إلى أدباء الشّرق خصوصا

[1] المرجع نفسه، ص ص 321 ــ 322.

والقارئ العربيّ عموما من أجل إقناع هذا المتقبّل بنضج الخطاب الإبداعي الأندلسيّ وتميّز المبدع في الأندلس على نظيره في الشّرق. وتبعا لذلك يقتنع المتقبّل بأنّ الهامش لم يعد هامشا وإنّما أصبح مركزا وأنّ المبدأ الجديد في العلاقة بين المركز والهامش هو: أنت الأسبق وأنا الأفضل، وقد أحكم ابن أبي حجلة التّلمساني نحت هذا المبدأ كما رأينا سابقا.

وقد توسّل الأخباريّون في الأندلس بمختلف الآليات والأساليب وعدلوا بها من وظائفها الجماليّة والإخباريّة إلى وظائف حجاجيّة تدعم دعواهم وتدحض دعوى أهل المشرق، فاشتغلت هذه الآليات والأساليب بما يستجيب لمقاصد أهل الأندلس ويحقّق غاياتهم. ولعلّ الطّريف في الأمر أنّ الحجاج في الخبر الأدبيّ قد أثمر وحمل المتلقّي في الشّرق على الاستجابة والانخراط في خطاب الأخباريّين الأندلسيّين والاقتناع بدعواهم، وقد تجلّى ذلك في عدّة مواقف من أعلام الشّرق.

ويتّضح لنا أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس قد استجاب للشّروط الأساسيّة الواجب توفّرها في كلّ خطاب يروم أن يكون خطابا حجاجيّا. وهي أساسا الحوار بين طرفيْن حقيقيّيْن أو مفترضيْن، والسّياق سواء أكان سياقا خارجيّا توجد عناصره المقاميّة خارج النّصّ أم سياقا داخليّا تتشكّل عناصره المقاميّة داخل النّصّ. ومن هنا أصبح

الخبر الأدبيّ من جهة كونه خطابا أمام مسلكين اثنين فهو خطاب سرديّ خالص كما أنّه خطاب حجاجيّ خالص، ولكن ألا توجد سبيل ثالثة يمكن بواسطتها دمج المسلكين معا دونما إقصاء لأحدهما أو التّعسّف عليه، فقد يكون من الجور بمكان حصر الخبر الأدبيّ في مسلك دون آخر؟ إنّ الإجابة عن هذا السّؤال وما هو منه بسبيل ستكون مدار اهتمامنا في الفصل الموالي.

الفصل الثّاني

الخبر الأدبيّ بين

بلاغة التّخييل وبلاغة الحجاج

رأينا في الفصل السّابق أنّ الخبر الأدبيّ قد اكتسب الصبغة العلميّة للانتماء إلى الخطابات الحجاجيّة بعدما توفّرت فيه جميع الخصائص الأساسيّة المميّزة لكلّ خطاب حجاجيّ. وأصبحت صفة «حجاجيّ» ملازمة للخبر الأدبي ملازمة صفة «سرديّ» له. ورأينا كذلك أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس ليس ترفا خطابيّا وإنّما هو خطاب يجري إلى مستقرّ له ذي نسب وثيق بمقاصد الأخباريّ السّاعي إلى إثبات ذاته الأندلسيّة والبرهنة على تفرّد شخصيّته العلميّة واستقلالها عن الشّخصيّة المشرقيّة.

فهل الخبر الأدبيّ سرديّ في سياق مّا وحجاجيّ في سياق آخر أم أنّه سرديّ وحجاجيّ في آن معا أم أنّ الأمر موكول إلى كفاءة المتلقّي في التّمييز بين الخطابات؟

I ـ الخطاب السّرديّ والتّخييل

تتوفّر في الخطاب السّرديّ ثلاثة أنماط، الواقعيّ (le réel) والتّخييليّ[1] (le fictif) والتّخيّليّ (l'imaginaire). مع تباين درجات حضورها من نصّ إلى آخر.

ويرد الخطاب الواقعيّ محيلا في جميع بنياته ومكوّناته على الواقع المرجعيّ التّاريخيّ، ويشتغل الواقعيّ داخل الخطاب من خلال البنيات السّرديّة الأساسيّة حيث تكون الأحداث ممّا هو قابل للتّفسير العلميّ والتّعليل المنطقيّ ولا يتقاطع وقوانين الطّبيعة. وتكون الشّخصيّات تاريخيّة لها وجود فعليّ. وأمّا الزّمان فهو الزّمان الفيزيائي الميقاتي المقيس بوسائل قيس الزّمان في حياة الإنسان. ويحيل المكان على أمكنة حقيقيّة موجودة في الواقع المرجعيّ.

غير أنّ الخطاب السّرديّ بما في ذلك الخبر الأدبيّ مهما يقتربمن الواقع المرجعيّ

[1] تتبّع سعيد جبار مفهوم التخييل عند الفلاسفة والبلاغيّين، وفي الدراسات الحديثة، ونظر في علاقته بالتداوليّة وانتهى إلى القول: إنّ التخييل ليس بالضرورة أن يكون مخالفا للواقع أو منافيا له، فقد يكون جزءا من الواقع ويستغلّ أحداثا واقعيّة حقيقيّة ليمرّر عبرها هذه الدلالات الضمنيّة التي يسعى إلة إبلاغها لمخاطبه. يُنظر:
سعيد جبار، من السرديّة إلى التخيليّة، بحث في بعض الأنساق الدلاليّة في السرد العربيّ، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2013.

فإنّه لا يستطيع أن يستنسخه أو ينقله كما هو، وأقصى ما يمكنه إنجازه هو المحاكاة والمشاكلة (Vraisemblance) وبناء واقع جديد من اللّغة، فيتوهّم القارئ أنّ الخطاب يستحضر له واقعا مّا.

أمّا التّخييل فهو «العالم الذي أخرجه النّصّ: الخبر والشّخصيّات والفضاء والزّمان، فهو ينبني بنسق تصاعديّ من خلال العلاقة بين النّصّ وقراءته»[1]، ويظهر في الخطاب الأدبيّ عموما والخطاب السّرديّ خصوصا في مفارقة الواقع وإن حاكاه، فيصبح الخطاب غير إحاليّ ولا يرتبط بأيّ واقع مرجعيّ وإنّما هو بصدد بناء عوالم متخيّلة (Mondes fictionnels) أو عوالم ممكنة (Mondes possibles) يمكن أن توجد في عالم الحقيقة.

ويقسّم القرطاجنّي التّخييل حسب متعلّقاته قسمين: «تخيّل المقول فيه بالقول، وتخيّل أشياء في المقول فيه وفي القول من جهة ألفاظه ومعانيه ونظمه وأسلوبه. فالتّخييل الأول يجرى مجرى تخطيط الصّور وتشكيلها. والتّخييلات الثّواني تجرى مجرى النّقوش في الصّور والتّوشية في الأثواب والتّفصيل في فرائد العقود وأحجارها[2].

ويشتغل التّخييل في الخطاب من خلال العناصر ذاتها التي يشتغل بواسطتها الواقعيّ، ولكن بتخريج جديد يقوم على تكسير حدوده حيث ترد الشّخصيّة نكرة غفلا ولا تحيل على أيّ شخصيّة خارج الخطاب، وتنتقل من التّفرّد والخصوصيّة إلى التّعدّد والعموميّة، وتصبح شكلا فارغا يمكن أن تملأه أيّ شخصيّة في الواقع.

أمّا الزّمان فغائم يتّسم بالإطلاقيّة، إذ تتقلّص المؤشّرات الزّمانيّة التي تشدّ الحدث إلى الزّمان الخطّيّ التّسجيليّ، وإذا نحن أمام زمان تخييليّ إنشائيّ. كما يغلب الطّابع الكلّيّ العموميّ على الإطار المكانيّ فلا يحيل إلى مكان بذاته في الواقع المرجعيّ وإن كان له به شبه «إذ للمكان في النّصّ منطقه الخاصّ ونظامه الخاصّ الذي به يختلف عن نظام المكان في الواقع»[3].

ويتمثّل النّمط الثّالث في التّخيّل وهو درجة متقدّمة من التّخييل تحوّل الخطاب أحيانا إلى أليغوريا (Allégorie)[4]. ويشتغل من خلال العناصر ذاتها حيث يُطعّم الخطاب

[1] Yves Reuter ,*L'analyse du récit* ,Editions Dunod ,Paris ,1997 ,p.64 .

[2] حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009،ص 80.

[3] مجموعة مؤلّفين، معجم السّرديّات، إشراف محمّد القاضي، نشر مشترك، الطّبعة الأولى، 2010، ص 75.

[4] الأليغوريا هي الكلام بطريقة أخرى، أي أن تعني بالكلام على شيء شيئا آخر. وتُستخدم في المجال الأدبيّ، ويكثر استخدامها في الحكاية المثليّة. واعتبرها هنري مورييه (H. Morier) حكاية ذات طابع رمزيّ أو تلميحيّ تقوم على

بمظاهر من الغريب والعجيب، فترد الأحداث على صورة يعسر تفسيرها بقوانين الواقع الموضوعيّ والمنطق العقليّ، وتفارق الشّخصيّات الواقع وتأتي بالعجيب من الأفعال كالحيوانات النّاطقة، أو تكون شخصيّات فوق طبيعيّة. أمّا الإطاران الزّمانيّ والمكانيّ فيغرقان في الإطلاقيّة والعموميّة.

وقد درج الباحثون اليوم على استعمال مصطلح التّخييل على كلّ ما فارق الواقع سواء أكان تخييلا أم تخيّلا ولعلّ ذلك ما يفسّر تصنيف النّصوص المتخيّلة حسب معجم السّرديّات صنفين «من ناحية علاقة المتخيّل بالواقع ومن ناحية إمكان حدوث هذا المتخيّل. فثمّة نصوص قصصيّة متخيّلة أقرب إلى أن تحاكي الواقع ونصوص تنزع إلى الابتعاد عنه ابتعادا»[1].

والتّخييل أحد موضوعيْ البلاغة، وهي تدرس مواطنه في النّصّ ومستوياته ونظامه وكيفيّة اشتغال بنياته ووظائفه. وكنّا رأينا أنّ النّصّ السّرديّ عموما والخبر الأدبيّ في الأندلس خصوصا نصّ حجاجيّ، والحجاج بدوره الموضوع الثّاني للبلاغة، فكيف سيشتغل الحجاج والتّخييل داخل النّصّ الواحد؟ هل سيحافظ كلّ مكوّن على حدوده في نطاق علاقة التّجاور فحسب أم سيتكاملان عن طريق التّداخل والتّخارج من خلال التّماسّ بين الصّورة (Figure) والحجّة (Argument)، ومن ثمّة التّفاعل في بناء دلالة النّصّ ومقاصده؟ كيف سيبني الخبر الأدبيّ بلاغته الحجاجيّة وبلاغته التّخييليّة في آنواحد؟ وهل يمكن الدّمج بين مسلكيْ البلاغة ونصل إلى ما نعتبره حجاجيّة التّخييل وتخييل الحجاج؟

II - التّخييل والحجاج: جدل التداخل والتخارج

تواترت الدّراسات السّاعية إلى التّقريب بين مسلكيْ البلاغة التّخييل والحجاج[2]،

تسلسل أعمال وتعرض شخصيّات (كائنات بشريّة أو حيوانيّة أو تجريدات مشخّصة)... للتّوسّع يُنظر معجم السّرديّات، صص 34-35.

[1] المرجع نفسه، ص 76.

[2] يطرح جاك موشلير وآن ريبول ضمن نظريّة المناسبة (La théorie de la pertinence) مسألة العلاقة بين التّخييل والخطابات غير الجادّة التي تفتقد للمعاني الحرفيّة المؤسّسة لصدقيّتها،فيستحيل إدراجها ضمن أيّ نسق معرفيّ يهدف إلى بناء تصوّر للعالم يتّسم بأكثر ما يمكن من الصّدقيّة، ممّا يطرح إمكانيّة إقصاء كلّ خطاب تخييليّ من دائرة الحجاج القائم على صدقيّة الأطروحة. ولكنّ الباحثيْن بعد الاشتغال برواية تخييليّة وأخرى تاريخيّة توصّلا إلى أنّ القارئ أو المشاهد يمكنه استخلاص نتائج من العمل التّخييليّ الذي لم يقدّم الأفكار والحقائق بصورة حرفيّة ومباشرة، ممّا يُبقي على الخطاب التّخييليّ ضمن دائرة الخطابات الجادّة.
للتّوسّع يُنظر:
Anne Reboul, Jacques Moeschler,*La pragmatique aujourd'huit : une nouvelle science de la communication*, Editions du Seuil, septembre 1998, pp. 173-174. =

وإذابة الحدود بينهما، وحاول أصحابها إيجاد صلات وروابط بين البنيات التّخييليّة والبنيات الحجاجيّة ودمجهما في خطاب واحد، والتّأسيس لحجاجيّة التّخييل وتخييل الحجاج[1].

تقتضي البلاغة الجديدة أن توجد منطقة أو جهة يلتقي فيها التّخييل والتّداول أو الحجاج، من أجل التّقريب بينهما ودمجهما في خطاب واحد. وكان حازم القرطاجنّي

[1] سعى سيمور شتمان (Chatman Seymour) إلى بيان حجاجيّة السّرد، فرأى أنّ أنواع النّصوص تتداخل وتتعايش، فكلّ منها تابع للآخر وخادم له. وتوظيف مفهوم التّبعيّة في مقاربة النّصوص يمكّن من تبسيطها وإثرائها في الوقت نفسه. فالقول إنّ إحدى حكايات إيزوب (Ezope) سرد بسيط لأنّها تروي حكاية لا يمكنه إلّا أن يهمل خصائص النّصّ الأساسيّة. فمن البديهيّ أنّ الحكاية في بنيتها السّطحيّة سرد، ولكن من الواضح أنّها تخدم بعدا أخلاقيّا، وهذا يعنيّ أنّ النّصّ برمّته من زاوية وظيفيّة يُختزل إلى حجّة، ومثلما أشارت سوزان سليمان فإنّ هذه النّصوص ومثيلاتها تتأسّس على الفعل الإنجازيّ: أنا أبيّن».

وذهب الباحث إلى أنّ النّصوص السّرديّة لا سيّما التّخييليّة قائمة في جوهرها على الإيديولوجيا، وأنّ الحجاج قد وُظّف لخدمة السّرد التّخييليّ، ثمّ يعلّق على نموذج من بداية رواية فيلدينغ (Fielding) «جوزيف أندروس» قائلا: «إنّ السّارد يحاجج للفكرة التي تعتبر الرّوايات وسائل لنشر الفضيلة»، ويرى شاتمان أنّ السّرد قد وُظّف في خدمة الحجاج منذ الزّمن الغابر ويستدلّ على ذلك بالأمثال والحكم والحكايات الخرافيّة، ويصل في الأخير إلى أنّ «مفهوم الخدمة» أو «مفهوم التّبعيّة» يمكّن من الملاءمة بين أنواع النّصوص ويساعد على تحليل ما كان يعتبر دائما من قبيل التّوتّر. يُنظر:
SeymourChatman,*Arguments et narrations*, in L’argumentation, Colloque de Cerisy, Mardaga, 1991, p. 149.

أمّا ليونيل بلنجر (Lionel Bellenger) فقد أدرج السّرد وكذلك الوصف ضمن الحجج الشّارحة إلى جانب التّعريف والمقارنة والتّشبيه. فالمحاجج وهو يسرد يثير انبهار المتلقّي بقدرته على الحكي، ويجعله «في حالة افتقاد لما سيأتي»، وتكمن هنا قوّة السّرد الإقناعيّة إذ يُجبر المتلقّي ضمنيّا على الإنصات. وقد جعل بلنجر من السّرد خطابا حجاجيّا إذ نحسّ بوجود الحجاج من مجرّد الفعل السّرديّ والوصفيّ، بل إنّ الحكي هو إقناع بالدّرجة الأولى.

يُنظر: ليونيل بلنجر: عدّة الأدوات الحجاجيّة، ترجمة قوتال فضيلة، الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، الجزء الخامس: نصوص مترجمة، ص 124.

... واعتبر محمّد مشبال النّصّ السّرديّ عموما أداة تسعى إلى التّأثير في سلوك المتقبّل وأفعاله، وعلى الدّارس أن يتّجه إلى دراسة آثار النّصّ في المتلقّي، أي النّظر إليه بوصفه خطابا صيغ على نحو يؤدّي وظيفة تداوليّة وتوصيل رسالة إلى متلقّ مستعدّ لتقبّلها والاستجابة العمليّة لمقصديّة صاحبها.

فالنّصّ من زاوية التّلقّي فعل تواصليّ يروم إقناع المتلقّي بصدق ما يُقال أو تثبيته في نفسه لأجل العمل به، وتجعل هذه الخلفيّة الوظيفيّة بلاغة النّصّ مختزلة في المقاصد والحجج والآثار، وقائمة على مفاهيم النّجاعة والتّوافق مع المقام الخارجيّ الملموس الذي يتحكّم في إنتاج المعنى وتأويله.

فالخبر جزء من السّياق الذي صيغ فيه، وكلّ قراءة تكتفي بالنّظر إلى البناء الدّاخلي تعدّ مقاربة قاصرة لأنّ السّرد ليس أداة للإمتاع فقط ولكنّه أيضا أداة للتّواصل تتغيا الإقناع وتبليغ المعرفة. ويرى الباحث أنّ الأخبار تبدو نصوصا تواصليّة تتحدّد قيمتها بما تنطوي عليه من تأثير عمليّ يمكن الكشف عنه بتحديد رسائلها التي لا تكاد تخرج عن المقاصد الخلقيّة والعقديّة والفلسفيّة والتّعليميّة والهزليّة، وببيان الحجج التي توسّلت بها في توصيل مقاصدها. وتختزل هذه النّظرة الوظيفيّة «النّصّ السّرديّ في الخطاب الحجاجيّ إذ الخبر حجّة أو فعل لغويّ إنجازيّ (acte illocutoire) يتوجّه إلى المتلقّي مذكّرا أو منبّها أو ناصحا.

ويصل الباحث إلى نتيجة أساسيّة مفادها أنّ النّصّ السّرديّ عند الجاحظ نمط بلاغيّ يلتقي مع النّصوص الحجاجيّة الصّريحة مثل الخطبة والموعظة في توجّهها نحو المتلقّي لتعديل فكره أو تحفيزه على الفعل، لكنّه يشترك مع النّصوص التّخييليّة في كونه خطابا سرديّا يروي حكاية متخيّلة غير قابلة للاختبار. وتفترض هذه النّتيجة إقصاء مبدأ هيمنة وظيفة على الوظائف الأخرى في النّصوص واعتماد مبدأ التّوتّر والتّنافس بين الوظيفة الأدبيّة الجماليّة والوظائف التّواصليّة، واعتبر الباحث أخبار الجاحظ في بنيتها العامّة حججا وشواهد قصصيّة تعتمد حكايات وأحداثا وعلاقات محسوسة ومصيرا تؤول إليه الأمور، أي إنّها تعتمد الخطاب السّرديّ لإيصال رسالتها وإحداث أثرها في المتلقّي. إنّها حكايات سرديّة تقوم بتمثيل مضمون خلقيّ أو حكمة مشتركة أو معنى عقديّ أو فكرة فلسفيّة أو علميّة، فإذا كانت في بنيتها السّطحيّة الظّاهرة تسرد حكاية فإنّها من الواضح تخدم أغراضا بلاغيّة.

يُنظر تفصيل ذلك: محمد مشبال، البلاغة والسّرد: جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ.

قد وقف عند هذه المنطقة في قوله: «لمّا كان علم البلاغة مشتملا على صناعتي الشّعر والخطابة وكان الشّعر والخطابة يشتركان في مادّة المعاني ويفترقان بصورتي التّخييل والإقناع وكان لكلتيهما أن تخيّل وأن تقنع في شيء من الموجودات الممكن أن يحيط بها علم إنسانيّ وكان القصد في التّخييل والإقناع حمل النّفوس على فعلشيء أو اعتقاده أو التّخلّي عن فعله واعتقاده... فأمّا بالنظر إلى حقيقة الشّعر فلا فرق بين ما انفرد به الخاصّة دون العامّة وبين ما شارك وهم فيه، ولا ميزة بين ما اشتدّت علقته بالأغراض المألوفة وبين ما ليس له كبير علقة إذا كان التّخييل في جميع ذلك على حدّ واحد، إذ المعتبر في حقيقة الشّعر إنّما هو التّخييل والمحاكاة في أي معنى اتّفق ذلك»[1].

يلتقي التّخييل والحجاج في تصوّر حازم القرطاجنّي في كون كلّ منهما خطابا احتماليّا على ما بينهما من اختلاف، إذ التّخييل كذب يحتمل الصّدق والحجاج صدق يحتمل الكذب. كما يلتقيان في مستوى المعانيّ التي تمثّل المادّة الأوّليّة والأساسيّة في الخطابين. وتزداد منطقة التّقاطع المركزيّة اتّساعا لتشمل المقاصد، فكل خطاب يُجري هذه المعاني لغاية التّأثير والإقناع.

ويمكن لمنطقة التّقاطع[2] هذه أن تتّسع أكثر بالنّظر في الخصائص الجوهريّة المميّزة لكلّ خطاب وبيان كيفيّة اشتغالها متى أُدمجت في الخطاب الآخر، وتتحوّل إلى منطقة تداخل وتخارج تتبادل فيها الصورة والحجّة الأدوار والوظائف.

فالحجّة والصّورة، تقنيتان مختلفتان مادّة وبنية ووظيفة، ولكلّ منهما مجالها الذي تؤثّثه وفضاؤها الذي تبنيه، فالحجّة لا تتبرعم إلّا إذا كانت بسبب من الخطاب الحجاجيّ متين، والصّورة لا تثير إلّا متى كانت بسبب من الخطاب التّخييليّ مكين، بل إنّ محمّد العمري ذهب إلى اعتبار الحجّة من خصائص الحجاج الجوهريّة وعدّ الصّورة من خصائص التّخييل الجوهريّة[3].

إنّ كلّ اتّصال أو انفصال بين الحجّة والصّورة يفضي ضرورة إلى اتّصال الحجاج والتّخييل أو انفصالهما. وإذا كانت البلاغة الجديدة قد أخذت على نفسها دمج الحجاج

[1] حازم القرطاجنّي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، صص 12-13.

[2] يستبعد بول ريكور (Paul Ricoeur) في مقاله *herméneutique-poétique-Rhétorique* إمكانيّة قيام بلاغة عامّة تستوعب الشّعريّ والخطابيّ بسبب نزوع الخطاب التّخييليّ إلى الإمتاع ونزوع الخطاب التّداوليّ إلى الإقناع. أمّا أوليفيي ريبول (Olivier Reboul) فيصل في كتابه *Introduction à la rhétorique* إلى إمكانيّة تأسيس بلاغة عامّة تجمع بين المسلك التّداوليّ والمسلك التّخييليّ من خلال مناطق التّقاطع بين الأسلوب والحجاج. وحصر محمّد العمري في كتابه «البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول» منطقة التّقاطع في «البلاغات الخاصّة» وتحديدا فنّ الخبر والسّيرة الذّاتيّة.

[3] محمّد العمري، الحجاج مبحث بلاغيّ، فما البلاغة،الحجاج، ج1، ص 25.

والتّخييل في خطاب واحد فإنّ سبيلها إلى ذلك هو بيان ما في الحجّة من خصائص تصويريّة وبيان ما في الصّورة من طاقة حجاجيّة، يقول محمّد العمري مستعرضا وجهة نظر أوليفيي ريبول: «التّقريب بين قطبي الاحتمال (الصّدق والكذب) من خلال فحص طبيعة الآليات الجوهريّة الخاصّة بكلّ منهما، أو المعتبرة كذلك وهي: الصّور (figures) والحجج (arguments) حيث صار من الشّائع الحديث عن بلاغة الصّورة (أو الصّور) وبلاغة الحجاج»[1].

1 ـ حجاجيّة الصّورة

يلازم التّصوير سائر الخطابات لا سيّما التّخييليّة منها،يعاضدها في بناء المعنى وتحقيق الفائدة. ويقوم على تمثيل المجرّد والعدول به إلى مجال المدرك الحسّيّ. وقد عرّف عبد الله صولة الصّورة بأنّها «تعبير استبداليّ يقوم فيه «الشّيء» المشاهد أو «الملموس» أي الصّورة[2] بديلا عن الفكرة أو المعنى أو المفهوم (والمفهوم هنا بمعنى Concept)»[3]. فالصّورة من هذه الجهة مجالها المجاز وتقوم في بنيتها على إحلال المجاز محلّ الحقيقة واستبدالها به[4].

بيّن أنّ المجاز[5] يشمل سائر وجوه العدول والانزياح التي تطال الكلمة، وكيفما أُجريت هذه الكلمة سواء على سبيل التّشبيه أو على سبيل الاستعارة باعتبارها تشبيها مختزلا أو أيّ وجه من إخراج الكلام عن مجال الحقيقة.

---

[1] محمّد العمري، البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، ص 7.

[2] استند عبد الله صولة إلى تعريف بول ريكور : الصّورة هي أن تشاهد الشّيء على هيئة شيء آخر».
يُنظر:. Paul Ricoeur, *la métaphore vive*, Editions du Seuil, 1975, p. 269.

[3] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 2، ص 547.

[4] يقول ابن الأثير،وتحقّق أنّ فائدة الكلام الخطابيّ هو إثبات الغرض المقصود في نفس السّامع بالتّخييل والتّصوير حتى يكاد ينظر إليه عياناً، ألا ترى أنّ حقيقة قولنا «زيد أسد» هي قولنا «زيد شجاع» لكن فرق بين القولينفي التّصوير والتّخييل وإثبات الغرض المقصود في نفس السّامع، لأن قولنا: «زيد شجاع» لا يتخيّل منه السّامع سوى أنّه رجل جريء مقدام، فإذا قلنا «زيد أسد» يخيّل عند ذلك صورة الأسد وهيئته وماعنده من البطش والقوّة ودقّ الفرائس وهذا لا نزاع فيه.
يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ص 62.

[5] المجاز كما عرّفه عبد القاهر الجرجانيّ: كلّ كلمة أريد بها غيرُ ماوقعت له في وَضْع واضعها، لملاحظةٍ بين الثّاني والأوّل، فهي مجازوإن شئت قلت: كلّ كلمة جُزْتَ بها ما وقعتْ به في وَضْع الواضع إلى ما لم توضع له، من غير أنتستأنف فيها وضعاً، لملاحظةٍ بين ما تُجُوّز بها إليه، وبين أصلها الذي وُضعت له فيوضع واضعها فهي مجاز. ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، صص 262–263.
وذهب السّكاكي إلى هذا المعنى في قوله: المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما تدلّ عليه بنفسها دلالة ظاهرةاستعمالاً في الغير بالنّسبة على نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة ما تدلّ عليه بنفسها في ذلك النّوع، ولك أن تقول المجاز هو الكلمة المستعملة في معنى معناها بالتّحقيق استعمالا في ذلك بالنّسبةعلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النّوع.يُنظر: السّكاكي، مفتاح العلوم، ص 330.

وبصرف النّظر عن منشأ الصّورة[1] ونوعها[2] فإنّ ما يعنينا في ما نحن منه بسبيل ما عُقد للصّورة من وظائف في مخاطبة عقل المتقبّل ووجدانه.

لمّا كان التّصوير مندرجا في باب المجاز فإنّه أولى باختزال كلّ ما في المجاز من وظائف، وقد طوى ابن رشيق الكلام عن وظائف المجاز بقوله «المجاز أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا في القلوب والسّماع[3]، ولكنّ ابن الأثير نشره قائلا: «وأعجب ما في العبارة المجازيّة أنّها تنقل السّامع عن خلقه الطّبيعيّ في بعض الأحوال، حتى إنّها ليسمح بها البخيل، ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطّائش المتسرّع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو فحوى السّحر الحلال، المستغني عن إلقاء العصا والحبال»[4].

وإذا سلّمنا بالتّصوّر الذي ساقه كريستيان بلانتان (Christian Plantin) بأنّ الكلام لا يمكن تجريده من وظائفه ومقاصده الحجاجيّة[5] كي لا يصبح مجرّد هذيان محموم وفلتات مجنون فإنّ الصّورة باعتبارها تشكّلا للكلام على هيأة مخصوصة، ومن حيث هي تعبير مجازيّ توكل إليها من جهة مادّتها أو بنيتها[6] وظيفتيْ الإفهام والإمتاع من خلال مخاطبة القلوب والأسماع المداخل الأساسيّة الموصلة إلى العقل. إذ هي بحكم قيامها على الاستبدال تقرّب المجرّد وتجسّد المعاني والأفكار وتجعلها أيسر مأخذا وأسهل تمثّلا و«حضورها في ذهن السّامع أقوى ووقعها عليه أشدّ»[7].

---

[1] أثار عبد الله صولة مسألة اختلاف المحدثين حول منشأ الصّورة وذهب إلى أنّ «الأنواع البلاغيّة كلّها قائمة من حيث بنيتها على الاستبدال في المقام إلّا ما كان منه استبدالا لمفهوم بصورة وعلى هذا أغلب المجازات.يُنظر تفصيل ذلك: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 2، ص 554.

[2] صنّف أوليفيي ريبول الصّورة أربعة أنواع: صور الكلمات وصور المعنى وصور التّركيب وصور الفكر، وهذه الأنواع تنهض بدور محوريّ في الخطاب الحجاجيّ. يُنظرتفصيل ذلك:

Olivier Riboul, *Introduction à la rhétorique*, op. cit. pp. 121-145.

أمّا روبريو فقد صنّف الصّورة خمسة أنواع، حيث أضاف إلى تصنيف ريبول صور الصّياغة. يُنظر ذلك مفصّلا:

Jean-Jacques Robrieux, *argumentation et rhétorique*, op. cit. pp. 41-140.

[3] ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 302.

[4] ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ص 62.

[5] يقول بلانتين مقدّما بعض تصوّرات الحجاج: «كلّ كلام حجاجيّ حتما، فهو نتيجة ملموسة للتّلفّظ في مقام، وكلّ ملفوظ يرمي إلى التّأثير في المرسل إليه، في الآخر، وتبديل نسق فكره. وكلّ ملفوظ يجبر أو يحمل الآخر على الاعتقاد وعلى النّظر وعلى الفعل بطريقة غير طريقته».

يُنظر: كريستيان بلانتان، الحجاج، ترجمة عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للتّرجمة، تونس، 2008، ص 34.

[6] تستمدّ الصّورة أغلب مادّتها من المحسوسات وأحيانا ممّا هو ذهنيّ، وتتميّز بان بنائها على التّمثيل. يُنظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 2، صص 545–681.

[7] المرجع نفسه، ص 558.

ويبلغ تأثير الصّورة أوسع مداه عندما تبدّد قناعات المتقبّل وأحاسيسه وتزرع أخرى مكانها ممّا يؤدّي إلى تغيير مواقفه وتصوّراته وأحيانا طباعه التي جُبل عليها، فيتغيّر تبعا لذلك سلوكه.

وعلى هذا الأساس فإنّ وظيفتيْ الصّورة الأساسيّتين وهما الإفهام والإمتاع من خلال التّجسيد والتّمثيل لا يقصيان الوظيفة الحجاجيّة القائمة على التّأثير والإقناع وإنّما يرتدان ويتحوّلان إلى مجرّد تمهيد للوظيفة الحجاجيّة،فتعملان على تهيئة السّامع وجعله في حالة نفسيّة وذهنيّة أكثر تقبّلا لما يريد الخطيب الوصول إليه من مقاصد تداوليّة وتحفيز على الفعل. فتصبح الصّورة التي هي من خواصّ التّخييل منشأ الحجاج ومصدره، ويمكن القول إنّ كلّ صورة حجّة.

2 ـ **تصويريّة الحجّة**

تمثّل الحجّة على خلاف الصّورة خاصيّة جوهريّة في كلّ خطاب يروم أن يكون حجاجيّا، ويكاد يجمع الباحثون في تعريفها على أنّها ما دوفع به الخصم والوجه الذي يكون به الظّفر عند الخصومة. ولا يكون الظّفر إلّا بالتّأثير في المتقبّل وترسيخ الفكرة في عقله أو حمله على الاقتناع بخلاف ما هو مقتنع به مسبقا. ولذلك يكون كلّ ما يتيحه الكلام باعتباره وسيلة تخاطب من إمكانات فكريّة ونفسيّة وأساليب لغويّة وآليات بلاغيّة «حجيرات وخزّانا وضاحية»[1] تستمدّ منها الحجج. ولعلّ ذلك من أكثر الأسباب التي أدّت إلى اختلاف الباحثين في تصنيف الحجج وتبويبها[2].

---

[1] العبارة لرولان بارط، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، ص 61.

[2] لئن اتّفق الباحثون على أنّ الحجّة هي الوسيلة التي يكون بها التّأثير أو الإقناع أو الحمل على الاقتناع فإنّهم اختلفوا شيعا شتّى في تصنيفها،فقد قسّم بيرلمان و تيتيكا الحجج حسب معيار المرجع قسمين:حجج قاعدتها الذهن وهي الحجج شبه المنطقيّة، وحجج قاعدتها الواقع وهي الحجج القائمة على بنى الواقع. ثمّ عاد بيرلمان ودقّقها في عمل مفرد: يُنظر تفصيل ذلك:

Chaim Perlman,*L'empire rhétorique, rhétorique et argumentation*, Librairie philosophique , J. Vrin, 2002, pp. 79-134.

... أمّا روبيريو فقد عقد الفصل الثّالث للحجج شبه المنطقيّة، والفصل الرّابع للحجج التّجريبيّة، وخصّص الفصل الخامس للحجج المضادّة،يُنظر:

Jean-Jacques Robrieux,*Rhétorique et argumentation*, pp. 143-224.op. cit.

وجعل ريبول الحجج أربعة أنواع هي: الحجج شبه المنطقيّة والحجج المؤسّسة على بنية الواقع والحجج المؤسّسة لبنية الواقع والحجج بالمفاهيم المتعارضة. يُنظر:

Olivier Riboul,*Introduction à la rhétorique*, op. cit. pp. 174 - 197.

وصنّف عبد السّلام عشير أنواع الحجج إلى الحجاج بالسّلطة، والحجاج بالتّجهيل والمغالطة المعرفيّة، والحجاج بالقوّة، والمحاجّة الجماهيريّة، والمحاجّة الانفعاليّة (الحجاج الدّيماغوجيّ)، والحجاج بالمصادرة على المطلوب. يُنظر مفصّلا، عبد السّلام عشير: عندما نتواصل نتغيّر: مقاربة تداوليّة لآليات التّواصل والحجاج، أفريقيا الشّرق، الدّار البيضاء، الطّبعة الثّانية، 2012، صص 164–171.

فتصوير مخلّفات الحرب حجّة تجري إلى الإقناع بوحشيّة الحرب وأنّها تعرك الإنسان عرك الرّحى بثقالها على حدّ عبارة زهير بن أبي سلمى. وقد يكون تصوير وقائع مخيّلة حجّة للإقناع بفكرة أو العدول عن أخرى أو لمدح فضيلة وذمّ رذيلة، مثلما كان تصوير وقائع «كليلة ودمنة» حجّة للإقناع بضعف الملك وفساد حاشيته.

ليس مقصدنا من هذا الاحتجاج للقول بأنّ كلّ حجّة صورة، فلك أن تستدلّ على صواب فكرة بقول علّامة، أو تبرهن على سداد رأي بتجربة من هو مرجع وإمام في مجال من المجالات دون أن تحتاج إلى التّصوير، فليست كلّ حجّة صورة، وإنّما القصد هو أنّ الحجّة تستمدّ نفوذها على المتقبّل من طاقتها التّصويريّة فكلّما كان التّصوير ماثلا في مادّة الحجّة وبنيتها كان مفعولها في المتقبّل أشدّ، و«برهانها أنور وسلطانها أقهر وبيانها أبهر»[1].

يتبيّن لنا بما سلف أنّ التّصوير قائم في جوهره على الحجاج ويجري مجرى الحجّة لا سيّما في الخطاب الحجاجيّ،وأنّ الحجج وإن لم تكن تصويرا خالصا فهي على جانب عظيم منه. ويمكن القّول حينئذ إنّ كلّ صورة حجّة وليست كلّ حجّة صورة. وتصبح حجاجيّة الصّورة وتصويريّة الحجّة نقطة الارتكاز الجامعة بين الحجاج والتّخييل ومنطقة التّقاطع والتّداخل بين مسلكيْ البلاغة، ولهذا وشبهه قال أوليفيي ريبول: «لن نبحث عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج، بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتّحديد. بعبارة أخرى ينتمي إلى البلاغة بالنّسبة إلينا كلّ خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كلّ خطاب تحضر فيه الوظائف الثّلاث: المتعة والتّعليم والإثارة مجتمعة متعاضدة، كلّ خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين بالحجاج»[2].

وأمّا كيفيّة اشتغال الصّورة حجاجيّا واشتغال الحجّة تصويريّا فأمر موكولة دقّته ونجاعته إلى الوقوف على خصائص السّياق المقاميّ والسّياق المقاليّ وأساليب الخطيب في بناء الصّورة وإخراج الحجّة.

IV ـ التداخل والتخارج في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ

ساق البونسي الخبر التّالي: «روى بعض الأدباء قال: كان بسوسة إفريقية رجل أديب

[1] التّعبير للجرجاني متحدّثا على التّمثيل،مع تغيير المطابقة في الجنس.يُنظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 80.
[2] أوليفي روبول، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغيّ؟ ترجمة محمّد العمري، ضمن كتاب البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول.

ظريف، فهام بغلام جميل من غلمانها، يروق العين منظره، ويسترق الأحرار مخبره. فلمّا استولى على ذلك الرّجل غرامه، وكلفه، وتمادى به أسفه وشغفه، عمد إلى المدام، ليداوي بها بعض ما يجد من الآلام. فشرب منها فوق المقدار، وأسرف حتّى غلبت على عقله سورة العقار، وحمله السّكر على خلع ثوب الوقار. فأخذ قبس نار، وجاء إلى دار ذلك الغلام ليحرقها، فرأى ذلك من فعله بعض الجيران، فأطفأ النّار، وسلمت الدّار، وبقي عليهامن السَّتر أوقى صَدار. فلمّا أصبح، جيء بالرّجل إلى الحاكم، لما وشى به أهل النّمائم، فسأله لم فعل ذلك، فأنشأ يقول: [مخلّع البسيط]

لـمَّـا تـمـادى عـلـى بِعَـادي وأضْـرمَ النَّارَ في فُــؤَادِي

ولم أجِـدْ مِـنْ هَـوَاهُ بُــدّاً ولا مُعيناً عَلَى السُّهـادِ

حَـمَـلْـتُ نَفْسي عَـلَـى وُقُـوفـي بِبَابِهِ حَمْلَةَ الجَـوادِ

فَـثَـارَ مِـنْ بَـعْـضِ نـارِ قَلْبـي أَقَلَّ مِنْ قَدْحَةِ الزِّنـادِ

فـاحـتـرقَ الـدَّارُ دونَ عِلْمي ولـم يـكـنْ ذاكَ مـنْ مُـرَادِي

فاستظرفه قاضي البلاد، وتحمّل عنه قيمة ما أفسد[1].

لننظر في هذا الخبر من جهة بلاغة التّخييل، فقد تأسّست بنيته السّرديّة على حدث مركزيّ قوامه السّعي إلى الخلاص، وقد تقدّم وفق أربعة أفعال تمثّل اللّحظات الحاسمة. وهي فعل نفسيّ يتجلى في عشق الرّجل الأديب الظّريف لأحد غلمان سوسة، وفعل ذهنيّ يتمثّل في قرار إحراق الدّار، وفعل حسّي مركّب يتمثّل في شرب المدام وإحراق الدّار، وفعل قوليّ يتمثّل في الاعتذار. والملاحظ أنّ الحدث المركزّي قد تطوّر تبعا لتطوّر الأفعال النّاهضة به من السّعي إلى الخلاص من وطأة عشق الفتى إلى السّعي إلى الخلاص من عقوبة القاضي.

أمّا الشّخصيّات الواردة في الخبر فهي الرّجل الأديب الظّريف والغلام والقاضي وبعض الجيران، وهي شخصيّات تخييليّة محضة حيث لم تذكر بالاسم ولم تحل إلى شخصيّات مرجعيّة وإنّما أحالت إلى فئات تمثّل ركائز المجتمع العربيّ الإسلاميّ وهي الغلمان والأدباء الظّرفاء والقضاة والأجوار. فخرجت بذلك من التّفرّد والخصوصيّة إلى التّعدّد والعموميّة. وأصبحت الأحداث تبعا لذلك ممكنة الوقوع في كلّ زمان ومكان،

[1] البونسي، كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ص 658.

وتؤسّس لعالم ممكن يبنيه الرّاوي بواسطة اللّغة، وهذا ما يبرّر الغياب المطلق لكلّ مؤشّر زمانيّ. أمّا الإطار المكانيّ فهو سوسة أفريقيّة والمقصود بها الولاية السّاحليّة التّونسيّة،وهي الإشارة المكانيّة الوحيدة إلى مكان الأحداث المرجعيّ. ولكن سرعان ما يخيّم على هذا المكان المرجعيّ التّخييل حيث لا نجد أيّ إشارة أخرى من شأنها أن تدقّقه وتؤكّد واقعيّته مثل مكان الأحداث كالشّارع أو الحيّ، أو مكان الشّرب، أو منزل الغلام، أو مجلس القاضي.

وعاضد الوصف السّرد بمساهمته في تدقيق صورة الشّخصيات فأبرز سمات الرّجل الخُلقيّة من خلال الصّفات المشبّهة: أديب / ظريف، فإذا هو شخصيّة طريفة، وبيّن سماته النّفسيّة من خلال الأفعال الوصفيّة: هام / استولى / تمادى، وكثافة معجم العشق: غرامه / كلفه / شغفه، فإذا هو شخصيّة عاشقة. كما بيّن الوصف سمات الغلام الخِلقيّة: جميل / يروق العين منظره ويسترق الأحرار مخبره. فإذا هو على درجة من وسامة الصّورة تشدّ الأنظار وتلوي إليها الأعناق.

تنزّلت هذه الصّفات بمنزلة المبرّر لكلّ ما صدر من أفعال، فصفات الغلام كانت سببا لأفعال الرّجل، وصفات الرّجل كانت سببا لطريقته في الاعتذار ولفعل القاضي المتمثّل في إصلاح ما فسد. ممّا جعل الوصف والسّرد يتكاملان في بناء السّرديّة في الخبر ويندمجان في علاقة منطقيّة قوامها علاقة السّبب بالنّتيجة والعلّة بالمعلول.

وقد تأتت جماليّة هذا الخبر ومتعته الفنّيّة من طرافة الأفعال وتطوّرها غير المنتظر، وطريقة اعتذار الرّجل الأديب الظّريف،واستملاح القاضي الأبيات الشّعريّة واستطراف الجرم الذي ارتكبه العاشق وحكمه غير المنتظر كذلك. كما تولّدت جماليّة الخبر ومتعه الفنّيّة من جودة السّبك ودقّة الوصف ، وجرس الإيقاع المتأتي من تواتر السّجع والتّوازي التّركيبيّ إلى جانب التّفاعل بين السّرد والشّعر. فأصبح الخبر من هذه الجهة خطابا تخييليّا خالصا.

ولننظر الآن في الخبر من جهة بلاغة الحجاج، فقد تأسّس على ثلاثة سياقات تخاطبيّة، سياقيْن خارجيّين وسياق داخليّ.

طرفا السّياق التّخاطبيّ الخارجيّ الأوّل الأخباريّ الحقيقيّ والقارئ الفعليّ، وقد سعى الأخباريّ إلى إقناع القارئ بفكرتيْن أولاهما أنّ العشق مهلك أصحابه، وتتمثّل الثّانية في أن بلاغة الاعتذار سبيل إلى النّجاة. ولا شكّ أنّ الأخباريّ استقى

هاتين الفكرتين لاسيّما الفكرة الثّانية من المخزون الثّقافيّ والحوادث التّاريخيّة التي من المحتمل أن تكون جزءا من كفاءة القارئ الموسوعيّة، فتعمل بفاعليّة وتدفع نحو الاقتناع. والاعتذار شعرا عن الجرم طلبا للعفو كان من الأساليب المتواترة في السّائر من الأخبار الأدبيّة. فقد اعتذر تميم بن جميل للمعتصم عن جرم شنيع بقصيدته الشّهيرة ومطلعها: [الطّويل]

أَرَى الْموتَ بينَ النَّطعِ والسَّيفِ كامِنا   يُلاحِظُني مِـن حيثُ ما أَتلَفّتُ

كما اعتذر إبراهيم بن المهدي لابن أخيه المأمون شعرا. والشّواهد التّاريخيّة عديدة، والجامع المشترك بين هذه المواقف هو أنّ المُعتذَرَ له يقبل العذر ويعفو عن المعتذِر.

أمّا السّياق التّخاطبيّ الخارجيّ الثّاني فمداره على الخبر باعتباره فعلا كلاميّا أي أثناء روايته أو التّلفّظ به، وهو سياق غائم يكتنف الغموض أغلب مكوّناته. فطرف الحوار الأوّل هو الرّاوي الأوّليّ الذي نقل إلينا الخبر والطّرف الثّاني ورد ذكره في السّند وهو «بعض الأدباء»، وتظلّ العناصر المقاميّة مبتورة وغائمة، ففي أي مجلس التقى طرفا الحوار؟ ومتى كان ذلك؟ وما هي المناسبة؟[1]. وبسبب هذا الغموض لم يكتس هذا السّياق أهميّة كبرى في الخبر.

وتتكوّن عناصر السّياق التّخاطبيّ الدّاخليّ من طرفيْ الحوار وهما الرّجل الأديب الظّريف والقاضي إلى جانب الحاضرين من الشّهود ومن جاء من النّاس لمهمّ، والمكان المفترض وهو مجلس القاضي. والمقام في هذا الخبر مقام محاكمة وعقاب ويقابل الخطبة القضائيّة أو المشاجريّة عند أرسطو كما سنرى في الفصل الموالي، وما على الرّجل الأديب الظّريف إلّا العمل على التّخلّص من العقوبة بعدما ضُبط متلبّسا بجرمه، والسّبيل إلى ذلك هو إقناع القاضي ببراءته.

وقد اعتمد الرّجل الأديب الظّريف أثناء المحاكمة استراتيجيّة حجاجيّة محكمة تقوم على مرحلتين، صوّر في المرحلة الأولى معاناته النّفسيّة أملا في تحريك انفعالات القاضي وحمله على التّأثّر والتّعاطف معه، فقدّم صورة عن ذاته (image de soi) في

[1] طوّر الأخباريّون في الأندلس بعد القرن الخامس هجريّا مرتبة التّحمّل «الوجادة» وجعلوها مرتبة «النّقل»، وتجاوزوا ضوابط علماء الحديث في مراتب التّحمّل وعبارات الأداء، فطوّعوا سائر عبارات الأداء لمرتبة التّحمّل «النّقل». ولئن حافظوا على السّند فإنّهم اقتصروا على مكوّناته الدّنيا من فعل الأداء والرّاوي الأخير والفعل الإسناديّ، كما كسروا الحلقة الأخيرة من سلسلة الرّواة. وهم في أغلب أسانيدهم إنّما ينقلون من الكتب وقد اكتفوا بالإحالة إليها في مقدّمات كتبهم.

خطابه الشّعريّ لغايات حجاجيّة. وركّز في المرحلة الثّانية على غياب ركن القصديّة والنّيّة في الجريمة أملا في إقناعه ببطلان الجريمة.

وكان لهذه الاستراتيجيّة تأثيرها الفعّال حيث استطرف القاضي أفعال الرّجل الأديب الظّريف وأسلوبه في الاعتذار واقتنع بعدم توفّر ركن أساسيّ من أركان الجريمة، ولئن لم يبرّئه مطلقا فقد تحمّل عنه إصلاح ما أفسد بسبب ظرفه وأدبه.

توفّر هذا الخبر على سياقات تخاطبيّة مختلفة ودرجات متباينة من الحوار، وحرصت كلّ شخصيّة في كلّ سياق تخاطبيّ على التّأثير في الطّرف الثّاني أو إقناعه، وتحقّقت الوظائف التّواصليّة والغايات العمليّة. فتحوّل الخبر إلى خطاب حجاجيّ خالص، ونشأت من هذا البعد التّواصليّ العمليّ القائم على التّحفيز على الفعل بلاغة الخبر الأدبيّ وتبرعمت.

ونجد أنفسنا الآن أمام مقاربتين مختلفتين للخبر الواحد مقاربة سرديّة تخييليّة وأخرى حجاجيّة تداوليّة، وكلّ مقاربة تدّعي أنّها بلاغيّة، وتقود إلى نتائج مغايرة. ولكنّنا سنسعى إلى مقاربة ثالثة تقوم على الدّمج بين المقاربتين البلاغيّتين، وذلك بكشف مظاهر الحجاج في البنيات التّخييليّة وبيان مستويات التّخييل في البنيات الحجاجيّة.

استأثر السّردفي هذا الخبر بالقسم الأوّل منه وكنّا وقفنا عند مظاهر اشتغال بنياته سرديّا، ومن أبرز تلك البنيات الأفعال المسندة إلى الرّجل الأديب الظّريف، فقد نقلت ما أنجزته الشّخصيّة وما طرأ عليها من تطوّر، ولكنّ هذه الأفعال اشتغلت في الوقت نفسه حجاجيّا[1] من خلال كونها حجّة تدين الرّجل الأديب الظّريف، فشربه المدام حجّة على فقدانه القدرة على التّمييز، وقراره الانتقام من الغلام حجّة على أنّه أضمر الإساءة، وإشعاله النّار حجّة على تعمّده إلحاق الأذى بالغلام وأسرته. فأصبح السّرد حجّة تدين الرّجل الأديب الظّريف وتقيم عليه البيّنة.

ولم يقتصر الوصف على تصوير سمات الرّجل الخُلقيّة والنّفسيّة أو سمات الغلام الخِلقيّة، بل تكثّف وتضخّم ليتّخذ بعدا تواصليّا، فصفات الغلام تحرّك انفعالات المتقبّل وتجعله متفاعلا مع الجمال متعاطفا مع العاشق منخرطا معه في أحاسيسه

[1] يرى برنار ماير أنّ وظيفة السّرد الحجاجيّة تكمن في قدرته على التّوجيه، وأنّ القصّ الحجاجيّ يقوم على اختيار الأحداث التي تنزع إلى البرهنة على الأطروحة.

Bernard Mayer,*Maitiser l'argumentation*, Armond Colin, Paris, 1996, p. 25.

مهيّأ لقبول كلّ فعل أو موقف منه والتّسليم بصوابه. أمّا صفات الرّجل العاشق فتلقي في وهم المتقبّل استظراف كلّ ما يصدر عنه وتنزيله في إطار الملحة والطّرافة، وعدم أخذه مأخذ الجدّ. فيؤثّر الوصف[1] بذلك في المتقبّل ويهيئه بصورة مسبقة لاتّخاذ موقف مخصوص قبل أن يشرع الرّجل العاشق في الفعل. وقد تأكّد هذا البعد التّواصليّ وتدعّم بالنّتيجة العمليّة المتمثّلة في موقف القاضي الذي استملح أفعال العاشق ولم يأخذها مأخذ الجدّ.

إذن لم تعد وظيفة الأفعال التّقدّم بالسّرديّة نحو نهاية مّا وفق مسار معيّن فحسب وإنّما أصبحت الأفعال في حدّ ذاتها حججا تتحكّم في العلاقات التّواصليّة بين الرّجل الأديب الظّريف والغلام. كما لم يعد الوصف مجرّد تصوير لتقريب صورة الشّخصيّات من المتقبّل فحسب بل هيّأ المتقبّل وعدّل ذبذبات تقبّله وحمله على اتّخاذ مواقف مخصوصة، فاشتغل بذلك السّرد والوصف تخييليّا وحجاجيّا ونهضا بوظيفة تخييليّة ووظيفة تداوليّة في آن واحد.

وإذا نزّلنا الخبر من جهة كونه تخييلا في إطار الحوار بين الأخباريّ والمتلقّي تبيّن لنا أنّه تمثيل حكائيّ للفكرتين اللّتين سعى الأخباريّ إلى إقناع المتقبّل بهما ومفادهما أنّ العشق يذهب بأصحابه إلى المهالك، وبلاغة الاعتذار سبيل إلى الخلاص. ومن هنا يمكننا القول إنّ التّخييل قد تحوّل إلى حجاج أو ما اصطلحناعليه بحجاجيّة التّخييل. فكيف اشتغلت البنيات الحجاجيّة في هذا الخبر تخييليّا؟

كنّا رأينا أنّ الحجاج تجلّى في الحوار بين الرّجل الأديب الظّريف والقاضي، وسعي الرّجل إلى التّأثير في القاضي أولا وإقناعه ثانيا لينجو من العقوبة، فعمد في صياغة حجاجه إلى الشّعر وهو أرقى خطاب تخييليّ. وانطلق من حجّة القياس من أجل التّأثير في وجدان القاضي وحمله على التّعاطف معه، وتخريجها على النّحو التّالي:

المقدّمة الكبرى: تمادي الغلام في الهجر وتزايد عشق الرّجل واستحكام هواه.

المقدّمة الصّغرى: العجز عن تحمّل الهوى وعدم وجود المعالج الدّافئ.

النّتيجة: الوقوف بباب المعشوق.

---

[1] يعتبر ميشال آدام الوصف حجّة تقود إلى استنتاج بسبب ملازمة التّوجيه الحجاجيّ لكلّ وصف، ويتجلّى ذلك خصوصا في المعجم المستخدم في تعيين سمات الموصوف حيث تنكشف ذاتيّة الواصف وتبرز مواقفه. يُنظر:
Jean-Michel Adam,*Les textes types et prototypes*, Editions Nathan/HER, Paris, 4e édition, 2001, p. 91.

إنّ هذه الحجّة حجة قياس منطقيّ[1] وهي من أقوى بنيات الخطاب الحجاجيّ في إيقاع التّصديق في النّفس والحؤول دون انقداح الشّكوك في صدر المتقبّل وأشدّها تأثيرا فيه بسبب انتماء مقدّماتها إلى المسلّمات واتّسام نتيجتها بالإلزاميّة.

ولكنّها صيغت بطريقة شعريّة تخييليّة مفارقة للواقع، فليس لدينا ما يثبت أنّ الرّجل الأديب الظّريف صادق في دعواه، لذلك يظلّ كلامه مجرّد تصوير مبالغ فيه مجاف للواقع والحقيقة.

ثمّ أردف الرّجل الأديب الظّريف هذه الحجّة بحجّة أخرى يمكن اعتبارها حجّة قانونيّة تؤكّد خلوّ ذهنه من عمليّة الإحراق وعدم نيّته فعل ذلك، فأقام الحجّة على انتفاء ركن القصديّة في الجريمة.

ويستعين الرّجل الأديب الظّريف بالتّخييل في صياغة هذه الحجّة، وفضلا عن الصّياغة الشّعريّة فإنّه وظّف المجاز أرقى أساليب التّخييل وتحديدا التّعبير الاستعاريّ[2] «نار قلبي» حيث شبّه شدّة ولعه وعشقه بالنّار وحذف المشبّه ورمز إليه بشيء من لوازمه هو «القلب». كما أسند فعل الإحراق على سبيل المجاز العقليّ إلى نار القلب وليس إلى النّار الطّبيعيّة الفاعل الحقيقيّ. ومن شأن هذه الصّورة[3] أن تثير مشاعر القاضي وتحمله على التّأثّر والتّعاطف مع الرّجل الأديب الظّريف. وهكذاحقّق الشّعر والمجاز الإمتاع وحقّق الحجاج الإقناع.

---

[1] المنطق علم يبحث عن القواعد العامّة للتّفكير الصّحيح سمّاه أرسطو التّحليل (أنالوطيقا) ثمّ أطلق عليه الإسكندر الأفروديسي لفظ منطق (logica) وسمّاه الغزالي معيار العلم وعلم الميزان، وأطلق عليه مناطقة بورروريال فنّ التّفكير، وموضوعه التّعريف والاستدلال ومناهج البحث. وعرّفه محمّد رضا المظفّر قائلا: «علم المنطق يعلّمك القواعد العامّة للتّفكير الصّحيح حتّى ينتقل ذهنك إلى الأفكار الصّحيحة في جميع العلوم»(محمّد رضا المظفّر، المنطق، دار المعارف للمطبوعات، الطّبعة الثّالثة، 2006، ص 12). والمنطق نوعان: المنطق الصوريّ: وهو الذي يبحث في الأحكام والبراهين من حيث صورتها بصرف النّظر عن مادّتها. ويُطلق عادة على منطق أرسطو أو على المنطق القياسيّ بوجه عامّ. ويُعتبر المنطق الرّمزيّ ضربا من المنطق الصّوريّ لأنّه يبحث في القواعد العامّة والرّموز الدّالّة عليها، ويسمّى أيضا المنطق الرّياضيّ لكونه يعتمد على طائفة من الرّموز والإرشادات لأداء المعاني والأحكام بدلا من الألفاظ والعبارات اتّقاء لغموضها والتباسها ويخضع لقوانين معيّنة. والمنطق المادّيّ ويُعنى بالبحث في مادّة البرهنة كالفرض والتّجربة، وأوضح صوره منطق الاستقراء ومناهج البحث.

[2] ليست الاستعارة ــ حسب حسن المودن ــ مجرّد زينة أو محسّن بديعيّ بل هي مكوّن بنيويّ للمعنى، وهي لا تسمح بأن يشارك المتلقّي متكلّمه في الفكرة أو في الدّعوى التي يدّعيها فقط بل تدفعه إلى أن يشاركه إحساسه وانفعاله.
حسن المودن، حجاجيّة المجاز والاستعارة، ضمن كتاب الحجاج ، ج 3، ص 166.

[3] يرى بيرلمان أنّ الصّورة الشّعريّة إذا لم توظّف في الإقناع تظلّ مجرّد صورة أسلوبيّة أو زخرفة لفظيّة.
وفي هذا التّوجّه ذاته تعدّ سامية الدّريدي الصّورة حجاجيّة إذا كانت ذات آثار انفعاليّة أي قابلة لأن تحرّك في المتقبّل مشاعر معيّنة وبالتّالي تحمله على تبنّي قناعة مّا وإظهار استعداد للسّير في الطّريق التي رسمها الشّاعر. يُنظر: سامية الدّريدي، الحجاج في هاشميّات الكميت، حوليّات الجامعة التّونسيّة، العدد 40، 1996، ص 266.

وتجلّى الحجاج في المعجم الذي اتّكأ عليه من خلال حركة الكلمات الحجاجيّة[1]، فالفعل «تمادى» تقدّم على غيره من الأفعال لقدرته على إخراج الغلام المعشوق في صورة الظّالم المتعنّت، كما تقدّم المشتقّ «السّهاد» على سائر المشتقات الأخرى لدقّته في تصوير الحالة التي صار إليها العاشق وتأثيره في المتقبّل لحمله على التّعاطف.

وكان لهذه الاستراتيجية الحجاجيّة القائمة على تواتر أساليب التّخييل فعاليّة قصوى تجلّت في البعد التّواصليّ مع القاضي وتحفيزه على الفعل بإصدار الحكم الذي يرضي الرّجل الأديب الظّريف. وقد تفاعل القاضي مع دعوى الرّجل الأديب الظّريف وتأثّر بمعاناته النّفسيّة ثم اقتنع ببراءته لعدم توفّر ركن القصديّة. وتجلّى هذا التّأثّر والاقتناع في موقفه إذ استظرف أفعال الرّجل الأديب الظّريف وأسلوبه في الاعتذار، وعفا عنه وتكفّل بإصلاح ما أفسده.

إذن صيغت البنيات الحجاجيّة بأساليب تخييليّة فتداخل الحجاج والتّخييل من أجل تحقيق مقاصد الرّجل الأديب الظّريف في سعيه إلى الخلاص من عقوبة القاضي. ويتبيّن لنا بذلك أنّ الحجاج والتّخييل ليسا بلاغتين منفصلتين تقاربان الخبر الأدبيّ بطريقتين متوازيّتين وإنّما هما مسلكان مندمجان متكاملان في مقاربة الخبر الأدبيّ عن طريق التّداخل والتّخارج بينهما. وبهذا يمكننا القول إنّ قانون الخدمة أو التّبعيّة الذي جاء به شاتمان يظلّ قاصرا عن بيان مواطن الفصل والوصل بين الحجاج والتّخييل في الخبر الأدبيّ، وتفسير مظاهر حجاجيّة البنيات التّخييليّة وتخييل البنيات الحجاجيّة، والتّأسيس لبلاغة عامّة يتكامل فيها مسلكاها التّخييل والحجاج في قراءة النّصّ السّرديّ عموما والخبر الأدبيّ خصوصا، دون هيمنة مسلك على آخر أو استخدامه تابعا له.

يتبيّن لنا بما تقدّم أن الحجاج ماثل في صميم النّصّ التّخييليّ، والبنيات الحجاجيّة الأساسيّة تشتغل تخييليّا بالقدر الذي تشتغل به البنيات التّخييليّة الأساسيّة حجاجيّا، ولم تقتصر منطقة التّقاطع بين التّخييل والحجاج على الصّورة والحجّة فحسب من خلال حجاجيّة الصّورة وتصويريّة الحجّة بل شملت في مستوى الخبر مكوّنا أساسيّا من مكوّنات السّرد وهو الأفعال،إذ تلازمت الوظيفتان الإخباريّة والحجاجيّة، وشملت

[1] المقصود بحركة الكلمة الحجاجيّة مزاحمتها غيرها من الكلمات اللاّتي هنّ من جدولها المعجمي (مرادفاتها مثلا) أو هنّ من غير جدولها المعجميّ ... فينشأ بينهنّ تنافس وتدبّ في صفوفهنّ حركة من أجل أن تظفر إحداهنّ بمكان لها في الملفوظ عوضا عن سائرهنّ تتحقّق فيه وتستبدّ به وتقصيهنّ عنه. وإنّما يساعدها على الظّفر بمكان لها في الملفوظ أنّ المقام يستدعيها أكثر مّما يستدعي غيرها وأنّ هدف إقناع المتكلّم مخاطبه يقتضيها أكثر ممّا يقتضي غيرها. يُنظر: عبد الله صوله، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبيّة، ج 1، ص 187.

في مستوى الخطاب الوصف وسجّلات القول،فقد تلازمت كذلك الوظيفتان الجماليّة والتّداوليّة. فاندمج بذلك التّخييل والحجاج في بلاغة واحدة نتوسّل بها في مقاربة الخبر الأدبيّ لنفشه والكشف عن أسراره الجماليّة التّخييليّة ومقاصده الحجاجيّة التّداوليّة.

وبعد أن وصلنا إلى هذه النّتائج يثار أمامنا سؤال نرى أنّه على درجة كبرى من الأهميّة، فالحجاج خطاب مصنوع من اللّغة ولذلك يتلوّن بألوان الأساليب التّعبيريّة المهيمنة عليه، وقد تكون هذه الأساليب بلاغيّة أو لغويّة أو تداوليّة أو خطابيّة. ولمّا كان الخبر الأدبيّ خطابا إبداعيّا ستتوفّر فيه مختلف الأساليب التّعبيريّة، وهذا ما يدعونا إلى تتبّع هذه الأساليب لتصنيف الخطاب الحجاجيّ حسب الأسلوب المهيمن عليه.

ولمّا كانت البلاغة هي جوهر اللّغة العربيّة وعمادها الذي تنهض عليه لا ريب ستكون الأساليب البلاغيّة أظهر في الخطاب الحجاجيّ وأبين. فأين تتجلّى هذه الأساليب البلاغيّة؟ وكيف تشتغل حجاجيّا؟ ثمّ كيف تنزاح عن وظائفها الجماليّة التّخييليّة إلى وظائف حجاجيّة تداوليّة؟

ستكون الإجابة عن هذه الأسئلة وما اتّصل بها مدار اهتمامنا في الفصل الموالي.

الفصل الثّالث

الخبر الأدبيّ حجاجا بلاغيّا

وصلنا في الفصل السّابق إلى أنّ الحجاج يشتغل في الخبر الأدبيّ من خلال تداخل بنياته ومكوّناته مع بنيات الخطاب التّخييليّ ومكوّناته، وأنّ هذا الحجاج يتلوّن بتلوّن الأساليب التّعبيريّة المهيمنة عليه. وذكرنا أنّ أشدّ الأساليب هيمنة في الخبر الأدبيّ الأساليب البلاغيّة المنتجة للحجاج البلاغيّ. ففيم تتجلّى الأساليب المنتجة لهذا الضّرب من الحجاج؟ وكيف تشتغل في النّصّ التّخييليّ وتحديدا الخبر الأدبيّ؟

I ـ أطر الحجاج البلاغيّ

يتأسّس الحجاج البلاغيّ عند أرسطو على ثلاثة أركان أساسيّة هي الخطيب أو الإيتوس (Ethos) والمتلقّي أو الباتوس (Pathos) والخطاب أو اللّوغوس (Logos)[1].

يتحقّق الحجاج في النّوع الأوّل بواسطة حجّيّة الخطيب أو حجّة الإيتوس وتتمثّل في القيم الأخلاقيّة والفضائل التي يتحلّى بها الخطيب وهي السّداد والفضيلة والبرّ حتّى يتمكّن من زرع الثّقة في نفوس السامعين ويتسنّى له إقناعهم. والإيتوس هو ممّا يُعرض على السّامع ولا يُقال، إنّه صورة الذّات السّابقة للخطاب التي يحملها السّامع عن الخطيب.

أمّا في النّوع الثّاني فإنّ الحجاج يتحقّق بواسطة حجّيّة المتلقّي أو حجّة الباتوس وهي الأثر الانفعاليّ المنتج في السّامع، وتتجلّى في شكل انفعالات. وتكتسي هذه الحجّة أهميّة قصوى إذ تمثّل الغاية من كلّ خطاب والمقصد من كلّ حجاج. لذلك وجب على الخطيب أن يكون واعيًا بالبنى النّفسيّة للمتقبّل وبسنده المعرفيّ ومرجعيّته الثّقافيّة وأن يستثمر كلّ ذلك في صياغة خطابه.

والخطيب المقنع المؤثّر هو الذي يحوّل سمات المتلقّي إلى سمات منجبة لخطابه. فتسهل عليه عمليّة التّحكّم في الانفعالات التي عليه أن يثيرها تبعا للموضوع المطروح ولخصائص المقام، كما يسهل عليه استدراج المتلقّي إلى الاتّجاه الذي يريده، ومعرفة

[1] أرسطو،الخطابة، التّرجمة العربيّة القديمة، تحقيق عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، 1979، ص 37.

الآليات التي يتوسّل بها في التّأثير أو الإقناع. وعلى الخطيب أن يشتغل على نزعة[1] أو نزعتين سواء من جهة إثارتها أو إخمادها.

ويتحقّق الحجاج في النّوع الثّالث بواسطة حجّيّة الخطاب أو اللّوغوس والمقصود بها القول نفسه، ويشمل الحجج والأدلّة الموظّفة من قبل الخطيب، والاستراتيجيّات الخطابيّة التي آثر اتّباعها.

أسّس أرسطو الخطاب الحجاجيّ البلاغيّ على الإقناع والتّأثير وصنّفه ثلاثة أنواع خطاب مشاجريّ[2] تعضده حجّة اللّوغوس وخطاب مشوريّ[3] تسنده حجّة الإيتوس وخطاب تثبيتيّ[4] تدعمه حجّة الباتوس.

واستند شايم بيرلمان (Chaim Perelman) واللّسانيّة البلجيكيّة لوسي أولبريشت – تيتيكاه (Olbrechts - Tyteca Lucie) إلى تصوّر أرسطو والخطابة اليونانيّة في إرساء دعائم البلاغة الجديدة. وغايتهما من ذلك تجديد النّظريّة الحجاجيّة الأرسطيّة والحدّ من مدّ البلاغة الحديثة التي حصرت اهتمامها في محسّنات القول من أصوات ومعجم وتراكيب وأفكار، واعتبراها «مجرّد دراسة لوسائل التّعبير المنمّقة والممتعة»[5]. والخاصّيّة المميّزة لها هو أنّ بيرلمان قد سعى مع تيتيكاإلى جعل البلاغة في مسلكها الحجاجيّ عبارة عن نظريّة عالمة (savante) شاملة تتأسّس على ثنائيّة الاقتناع والفعل.

والحجاج عند بيرلمان وتيتيكاه نوعان أوّلهما الحجاج الإقناعيّ (L’argumentation persuasive) ويقوم أساسا على القصر والإلـزام، وثانيهما الحجاج الاقتناعيّ (L’argumentation convaincante) ويقوم على منح المتلقّي حريّة القبول أو الرّفض، ويمثّل الاقتناع الغاية من الحجاج. على أن الحجاج الاقتناعيّ لن تكتمل شروط نجاحه إلّا بعد أن يتحوّل إلى سلوك ويتجلّى في مواقف المتلقّي وأفعاله وانفعالاته. فيكون الحجاج بذلك في تصوّر الباحثين قائما على ثنائيّة الاقتناع والفعل.

[1] حصر أرسطو هذه النّوازع في الغضب والسّكينة، فالحبّ والكراهية، فالتّخوّف والثّقة، فالخجل والاستهتار، فالإحسان، فالشّفقة والسّخط، فالحسد ووالاغتباط والازدراء.

[2] خطاب مشاجريّ قضائيّ (judiciaire Discours) غايته الوصول إلى الحقيقة بتمييز العدل من الظّلم ويقوم على استعمال القياس المنطقيّ والزّمن الماضي وتناسبه حجّة اللّوغوس.

[3] خطاب مشوريّ (délibératifDiscours) يناقش الشّؤون العامّة ويرسم الاستراتيجيّات الكبرى للمجتمع الأثينيّ ويقوم علي توظيف الأمثلة والزّمن الحاضر وتناسبه حجّة الإيتوس. ففي مثل هذا المقام يكون لحضور الخطيب الذّهنيّ والنّفسيّ والمظهريّ الأثر البالغ في تحديد درجة الإقناع وكلّما كان شخصيّة كاريزميّة كان أكثر إقناعا.

[4] خطاب احتفاليّ تثبيتيّ (épidictiqueDiscours) يجري إلى نشر الفضائل والقيم الأخلاقيّة المثلى كالحقّ والخير والجمال، ويقوم على المبالغة والتّضخيم وتوظيف جميع الأزمنة وتناسبه حجّة الباتوس.

[5] Chaim Perelman et Lucie Olbrechts Tyteca ,*Traité de l‘argumentation :Lanouvelle rhétorique* ,op .cit .p.59.

ويتجلّى الحجاج البلاغيّ[1] عند العرب القدامى من خلال المقولات والتّعريفات والأساليب التي عالجوها في مباحثهم البلاغيّة. ويكمن في كلّ واسم أو شارة حجاجيّة (Marqueur argumentatif) على حدّ عبارة ميشال ماير في تفكيرهم البلاغيّ.

وقد أرخى الحجاج سدوله على التّفكير البلاغيّ عند العرب القدامى وحضر من خلال مفهوم المقام أو مقتضى الحال الذي وجب على المحاجج أن يراعيه ليفلح في مسعاه الحجاجيّ. وظهر كذلك في التّصوير المجازيّ لا سيّما الاستعارة وفي التّشبيه، إلى جانب بنية الحجّة البلاغيّة التي تقوم على القياس والتّمثيل والشّاهد والأسلوب.

ويتأسّس الحجاج البلاغيّ في مختلف هذه التصوّرات على مجموعة من التّقنيات والأساليب تتقلّص فيها الوظائف الجماليّة الفنّيّة وتتضخّم في المقابل الوظائف الحجاجيّة. ولئن انطلق البلاغيّون الجدد في مقاربتهم للحجاج من التّفكير البلاغيّ القديم وتحديدا تصوّر أرسطو فإنّهم أدخلوا عليه من الجدّة والطّرافة ما أبان عن طموحهم في جعله مجالا عالما. وسنسعى إلى بيان كيفيّة اشتغال الأساليب البلاغيّة حجاجيّا في نصّ تخييليّ من أدب الأخبار في الأندلس.

II – الخبر الأدبيّ الأندلسيّ حجاجا بلاغيّا

أورد البونسي الخبر التّالي: «وحكى بعض الوزراء بإشبيلية، قال: خرج المعتمد في بعض الأيام، يريد لورقة ليتطلّع علىأحوالها، ويتفقد جميع أعمالها. فاشتدّ وجده بمن كان يهوى، وتحقّق أنّه على البعد ليس يقوى. وألمّ به شغفه وهيامه، وغلب على قلبه غرامه فوصل لورقة ليلا، واستدعى القائد أبا عيسى بن اليَسَع فيساعة لم يخف فيها زائر من مراقب، ولم يبد في الأفق غير نجم ثاقب، فَرِيعَ القائد أبو عيسى لذلك، وجَزِعَ جَزَعاً شديدا هنالك، حتى ودّع من تَخَلَّف؛ وَأَوصى بِمَا خَلَّف. وسار إلى المعتمد فوصل وماللأمن إلى قلبه وُصول، وهو يتخيّل أن الجوّ صَارِمٌ وَنُصُول. فلمّا مَثُلَ بين يديه، وسَلَّم عليه، قَرَّبَه المعتمد وآنسه، وسكَّن رعبه وتوَجُّسَه، وأخذا في الحديث ساعة. وليس

[1] قسمت نور الهدى باديس البلاغة العربيّة إلى بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب بناء على التّحوّل التّدريجيّ الذي عرفه المشهد الثّقافيّ في البلاد العربيّة الإسلاميّة من «مجتمع الشّفاهيّة إلى مجتمع الكتابيّة أي من نظام الشّعر وتقاليده إلى نظام النّثر وما تقتضيه نشأته من شروط مدنيّة واجتماعيّة اقتصاديّة... ومن لحظة المنطوق إلى لحظة المكتوب». ورأت أنّ مفهوم البلاغة عند الجاحظ تأثّر بالثّقافة الشّفاهيّة، وتأثّر المفهوم ذاته عند عبد القاهر الجرجاني بالثّقافة المكتوبة،ولعلّ هذا ما يبرّر عدول الجرجاني بمفهوم البلاغة إلى بنية النّصّ الدّاخليّة.
ينظر: نور الهدى باديس، بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، دراسة في تحوّل الخطاب البلاغيّ من القرن الثّالث إلى القرن الخامس هـ، مركز النّشر الجامعيّ، 2005، ص ص 201 ــ 284.

للمعتمد في كتمان حاله استطاعة. فقال للقائد: خرجت من إشبيلية فحدث في النّفس غرام طوته ضلوعي، وكفكفت به غَرْب دموعي بفتاة هي الشّمس، أو كالشّمس إخالها: لا يجول قُلْبُها ولا خلخالها. وفيها أقول عند وداعها، يوم تفطّركبدي وانصداعها: [الطّويل]

ولـمّـا التقينا لـلـوداع غـديـةً   وَقَدْ خَفَقَتْ في ساحة القصر راياتُ

بكينا مـعـاً حتى كـأنّ عيوننا   بِجَرْي الدّموع الحُمرمنها جِراحاتُ

وقد زارتني هذه اللّيلة في مضجعي، وأبرأتني من توجّعي وأمكنتني من عناقها، وبردت كبدي من إحراقها لمّا سقتني سلسال رُضابها ومتّعتني من دلالها وخضابها. فقلت: [الطّويل]

أبَـاحَ لَطيفي طَيْفُها الخَدَّ والنَّهْدَا   فـعـضّ بها تفاحةً وجـنـى وردا

ولو قدرت زارت على حال يَقْظةٍ   ولكنْ حِجَابُ البَيْنِ ما بيْنَنَا مدَّا

أَمَا وَجَـدَتْ عَنَّا الشُّجُون مُعَرَّجا   وَلاَ وَجَدَتْ منّا خَطوبُ النَّوَى بُدَّا

سقى اللهُ صَـوْبَ القطر أُمَّ عُبَيْدة   كَمَا قد سَقَتْ قَلْبِي على حَرِّهِ بَرَدَا

هي الظَّبْيُ جيداً والغَزَالَةُ مَنظَراً   وَرَوْضُ الرُّبَا عَرْفاً وغُصْنُ النَّقا قَدَّا

فأكثر القائد استعادتها وكرّر استجادتها، فأمر له المعتمد بخمس مائة مثقال، وولاه لورقة من حينه[1].

يتضمّن هذا الخبر سياقين تخاطبيّين، يجمع أوّلهما بين بعض الوزراء بإشبيليّة والرّاوي الأوّليّ، ويجمع ثانيهما بين المعتمد وقائده، وهو السّياق الذي سيكون عليه مدار اهتمامنا.

يختلف المقام[2] في هذا السّياق التّخاطبيّ الثّاني من شخصيّة إلى أخرى، فهو

[1] البونسي، كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، ص ص 417 ــ 418.

[2] يقول الجاحظ: «ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار الحالات فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما، ولكلّ حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات.

الجاحظ، البيان والتّبيين، ص 103.

بيّن من كلام الجاحظ أنّ المقام ينصرف إلى العناصر غير اللّسانيّة الحافة بعمليّة التّلفّظ وتشمل أساسا منزلة السّامع من العلم والمجتمع، والسّبب الموجب للكلام حتّى يتخيّر المتكلّم ألفاظه ويسوق المعاني المناسبة لذلك المقام.

وقد تواترت المصطلحات الدّالة على مفهوم المقام في الدّراسات المعاصرة من قبيل السّياق وسياق الموقف والمساق وسياق المقام (contexte). وهي تختلف عن مصطلح السّياق النّصّيّ أو السّياق المقاليّ (co-texte) الذي تكتسب بمقتضاه العلامة اللّسانيّة حمولة دلاليّة من خلال علاقاتها بسائر العلامات الأخرى السّابقة واللّاحقة التي تكوّن الجوار اللّغويّ...

=

بالنّسبة إلى القائد أبي عيسى بن اليسع مقام رقابة وعقاب بسبب استدعاء الملك له في ساعة متأخّرة من اللّيل استدعاء فجئيّا، لذلك ارتاع وأيقن بالهلاك. أمّا بالنّسبة إلى المعتمد فهو مقام وجد وشكوى بسبب بعده عمّن كلف بها من الجواري، وقد أدرك أنّ مخاطبه لن يتفاعل مع هذا المقام بسبب العلاقة العموديّة بينهما وطبيعتها العسكريّة لذلك قرَّبَه وآنسه، وأفرخ روعه و سكّن توَجُّسَه وباسطه الحديث لتصبح العلاقة أفقيّة ويتهيّأ القائد للانخراط في خطاب المعتمد.

عندئذ بادر المعتمد إلى التّصريح بالدّعوى فشكا شوقه وتباريحه وخاطب القائد من حيث هو إنسان ذو عواطف وليس عسكريّا مأمورا، وقصد من ذلك إلى أن ينخرط معه القائد في الدّعوى ويبادله أحاسيس الشّوق والهيام.

لم يستعمل المعتمد سلطته ونفوذه كي يصل إلى هذا المقصد الحجاجيّ لأنّ الأمر في هذه الحالة لن يؤدّي إلى أكثر من تظاهر القائد بالتّفاعل رهبة أو رغبة وإنّما توسّل بآليات بلاغيّة صوّر بها ما يكابده من شوق وهيام للتّاثير في وجدان القائد وحمله على الانفعال والتّفاعل تفاعلا حقيقيّا.

وظّف المعتمد أوّلا في خطابه المنثور السّجع، وقد اشتغل السّجع حجاجيّا من خلال إنشاء إيقاع داخليّ وموسيقى هادئة تزيل عن القائد مشاعر الخوف والارتباك وتزرع فيه الطمأنينة والشّعور بالأريحيّة، فينبسط وتطيب نفسه ويتهيّأ للإصغاء إلى خطاب المعتمد وتقبّله[1].

ثمّ توسّل في خطابه بالتّشبيه[2] مشبّها جاريته بالشّمس بجامع الإشراق ووضاءة الوجه.

= ... ولئن درج الباحثون على تصنيف المقام أو سياق المقام مقامات مختلفة فإنّهم يتّفقون على أنّه يضمّ جميع العناصر الكائنة زمن التّبادل القوليّ والمؤثّرة في إنتاج الخطاب والمتحكّمة في تفكيكه وتأويله، ولذلك قال ابن جنّي: «قال لي بعض مشايخنا: أنا لا أحسن أن أكلّم إنسانا في الظّلام».
ابن جنّي، الخصائص، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، ص 212.
وتجري عمليّة اختيار المفردات والتّراكيب والأساليب ومراعاة خصائص المقام ومختلف حالات المشاركين إلى إحكام التّأثير في المتقبّل أوّلا وإقناعه أو حمله على الاقتناع ثانيا، وجعله منخرطا مع خطاب الباثّ. وتتنزّل هذه العمليّة في صميم الممارسة الحجاجيّة.

[1] يُعتبر السجع من أبرز المحسّنات البديعيّة سواء كانت لفظيّةأو معنويّة. صار صناعة يُتوصّل بها إلى الطّبقات العليا في الأدب والمناصب الرّفيعة في السّياسة. ولئن تمحّض لتزيين الخطاب وتنميقه فإنّه لا يخلو من كلّ وظيفة حجاجيّة إذ يجري إلى إحداث وقع في الأسماع تمهيدا لاستمالة النّفوس وإقناع العقول.

[2] اعتبر البلاغيّون العرب التشبيه من أشدّ الآليّات تأثيرا وإقناعا لكونه يوصل المعنى إلى العقل عن طريق الحواسّ فيسهل تمثّله ويعجّل مفعوله التّأثيريّ أو الإقناعيّ. فالتشبيه من حيث هو تمثيل انتقال من التّعبير اللّغويّ المجرّد إلى التّعبير اللّغويّ الحسّيّ أي الانتقال بالمعنى من صورته المجرّدة المدركة بالعقل إلى صورته المادّيّة المدركة بالحواسّ.وقد ركّز البلاغيّون العرب عند مقاربتهم للتّشبيه على الجانب الحسّيّ في الصّورة التّشبيهيّة باعتباره وسيلة لتأكيد المعنى والمبالغة فيه.
ولئن انصرف البلاغيّون العرب إلى الوظيفة الجماليّة في التّشبيه وبحثوا في معايير إنتاجه وقواعد بنائه فإنّهم قد عرضوا=

والغاية من إخراج الجارية هذا المخرج المبالغة في تصوير سمات المعشوقة والتّمكين لها في صدر القائد ليقبل الدّعوى ويقتنع بأنّها أهل لهذا الشّوق وجديرة بهذا الشّغف.

ثمّ عمد المعتمد إلى أسلوب التّكرير[1] وتحديدا تكرير المعنى أو المضمون في قوله أوّلا «وأبرأتني من توجعي» وقوله ثانيا «وبردت كبدي من إحراقها»، فالبرء من التوجّع وبرودة الكبد من الاحتراق يجريان إلى معنى واحد هو طمأنينة القلب وسكينة النّفس وخفوت حرارة الشّوق. ويجري تكرير المعنى إلى إقناع القائد بما لزيارة طيف المعشوقة من عميق الأثر في وجدان المعتمد.

ودعّم المعتمد هذه الأساليب البلاغيّة بالشّعر في موطنين مكثّفا من التّصوير[2] من خلال تواتر التّشابيه، كما في قوله:

= إلى ما فيهمن حمولة حجاجيّة تكسبه أبعادا تواصليّة وتبيّن دوره في بناء الخطاب الإقناعيّ والتّأثيريّ. وقد تخيّر الجرجاني المواقع المناسبة للمثل في الخطاب لتكتمل عمليّة التّصديق وتُعطّل جميع أدوات الشّكّ ومختلف بواعث التّردّد لدى السّامع: «واعلم أنّ التّمثيل إذا جاءَ في أعقاب المعاني... كساها أُبّهةً، وكَسَبها مَنْقَبةً، ورفع من أقدارها، وشَبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النُّفوس لها، ودعا القُلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابةً وكلَفاً، وقَسَر الطِّباع على أن تُعطيها محبّة وشَغَفاً، فإن كان مدحاً كان أبْهَى وأفخم وأنبلَ في النّفوسَ وأعظم وأهزَّ للعِطْف وأسْرع للإلف وأجلب للفَرح وأغلب على المُمْتَدَح وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغُرِّ المواهب المنائح، وأسْيَر على الألسن وأذكرَ وأولى بأن تَعْلَقه القلوب وأجدر، وإن كان ذمّاً كان مسُّهُ أوجعَ ومِيسَمُه ألذع ووقعُه أشدّ، وَحدُّه أحَدّ، وإن كان حِجاجاً كان بُرهانه أنور وسلطانه أقهر وبَيَانه أبْهر». ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص ص 79 ــ 80.

[1] عرّفه ابن الأثير بقوله: وأمّا التّكرير فإنّه: دلالة علي المعنى مردّدا، كقولك لمن تستدعيه: أسرع أسرع، فإن المعني مردّد واللّفظ واحد. وهو قسمان، أحدهما يوجد في اللّفظ والمعنى والآخر يوجد في المعنى دون اللّفظ، وينقسم كلّ قسم بدوره إلى مفيد وغير مفيد. و«المفيد من التّكرير يأتي في الكلام تأكيدا له، وتشييدا من أمره، وإنما يفعل ذلك للدّلالة على العناية بالشّيء الذي كرّرت فيه كلامك، إمّا مبالغة في مدحه أو في ذمّه، أو غير ذلك،ولا يأتي إلّافي أحد طرفي الشّيء المقصود بالذّكر، والوسط عار منه، لأنّ أحد الطّرفين هو المقصود بالمبالغة إمّابمدح أو ذمّ أو غيرهما، والوسط ليس من شرط المبالغة، وغير المفيد لا يأتي في الكلام إلّا عيّاوخطلا من غير حاجة إليه. ولئن نهض التّكرير عند السّيوطي بوظيفة إبلاغيّة فإنّه عند ابن الأثير ينزع منزعا حجاجيّا إذ يجري إلى المبالغة التي تثير المتقبّل وتحفّزه على الانخراط في الخطاب تأثّرا أو اقتناعا بما أثبت وقرّر،

ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، صص 570-580.

وكان ابن رشيق قد ألمح قبل ذلك إلى ما للتّكرير من وظائف حجاجيّة حين اشترط علي الشّاعر ألّا يكرّر اسم حبيبته لّا على جهة التّشوّق والاستعذاب إذا كان في تغزّل أو نسيب، وألّا يكرّر اسم الممدوح إلّا على سبيل التّنويه به والإشارة إليه بذكر، لما في ذلك من تنويه به وإشارة بذكره وتفخيم له في القلوب والأسماع. وألّا يكرّر الاسم إلّا على جهة الوعيد والتّهديد إن كان عتابا موجعا أو على وجه التّوجّع إن كان رثاء وتأبينا. كما يقع التّكرار في الهجاء على سبيل الشّهرة وشدّة التّوضيع بالمهجو... ويقع أيضا على سبيل الازدراء والتّهكّم والتّنقيص.

والجهة التي يكرّر عليها الاسم في بعض المقامات من شأنها أن تحرّك ما سكن من نوازع السّامع وتحثّه على الانفعال والتّفاعل. كما أنّ التّكرير في مقام المدح يجري إلى تعظيم الممدوح والرّفع من منزلته عند السّامع مثلما يجري التّكرير في مقام الهجاء إلى استنقاص المهجو والحطّ من منزلته. والمراد من كلّ ذلك إقناع المتقبّل بعظمة الممدوح أو انحطاط المهجو وانتظار ما قد يترتّب علي ذلك من ردود أفعال وتغيير ألوان سلوك،

ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، ص ص 469 ــ 472.

[2] يرى برنار ماير أنّ الصّورة تتحوّل إلى تقنية حجاجيّة متى أثبتت نجاعتها في المسار الإقناعيّ.

BernardMeyer, *Maitiser l’argumentation*, op.cit. p. 25.

وترى سامية الدّريدي أنّ الصّورة لا تكون ذات طاقة حجاجيّة إلّا إذا استجابت لشروط أساسيّة هي خدمة مسار البرهنة وتثبيت الحجج بصورة صريحة وضمنيّة أي ملاءمتها لسياق الحجاج.

يُنظر: سامية الدّريدي، الحجاج في هاشميّات الكميت، صص 268-269.

بكينا معاً حتى كأنّ عيوننا بِجَرْيِ الدّموع الحُمرمنها جِراحاتُ

فقد شبّه العيون بالجراحات بعد أن نضبت العيون من الدموع لشدّة بكائها وأصبحت تسيل الدم بدل الدموع، ومن شأن هذه الصورة أن تفرغ القائد من صرامة القيادة وانضباط المسؤوليّة وأن تملأه حبّا وعشقا فتصيب منه مقتلا، وتشدّ عليه نفْسه ونفَسه، فتتحرّك في وجدانه نازعة التعاطف.

ثمّ عمد الشّاعر إلى توظيف المجاز[1] باعتباره عدولا من التّصريح إلى التّلميح كما في قوله «فعضّ بها تفاحةً وجنى وردا»، فقد شبّه النّهد بالتفاحة بجامع الاكتناز والاستدارة، وشبّه الخدّ بالورد بجامع الحمرة والنقاء، ثمّ حذف المشبّه به.وتتجلّى حجاجيّة التّصوير الاستعاريّ في المبالغة،فقد بالغ الشاعر في وصف مظاهر الفتنة في حبيبته، والمبالغة تجري إلى إحداث أثر في المتلقّي وإن بمقدار.

وأمّا في قوله «ولكنْ حِجَاب البَيْنِ ما بيْنَنَا مدَّا»، فقد شبّه البعد في المكان بحجاب البين الممدود بجامع الاستتار وعسر اللقاء المباشر، وحذف المشبّه.وقد جرى التصوير الاستعاريّ إلى مخاطبة عقل القائد وإقناعه بما يكابده المعتمد من وجد وهيام. كما خاطبت انفعالاته لتحريك مشاعره وتوجيهها نحو مشاركة المدّعي فكرته وأحاسيسه والانخراط معه عقليّا ووجدانيّا.

ولذلك يمكن الحديث على استعارة[2] حجاجيّة وهي تلك الجارية إلى إحداث تغيير في مواقف المتلقّي أو نوازعه.

---

[1] تتمثّل حجاجيّة المجاز في ما ينهض به من وظائف استدلاليّة. والمجاز لا سيّما متى كان جملة مكوّن بنيويّ في المعنى، فالتّشبيه والتّمثيل والاستعارة، أصولٌ كبيرة، كأنَّ جُلَّ محاسن الكلام إن لم نقل: كُلَّها متفرّعة عنها، وراجعة إليها، وكأنّها أقطابٌ تدور عليها المعاني في مُتصرَّفَاتها، وأقطارٌ تُحيط بها من جهاتها.
يُنظر: الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 18.
ولا يزيد المعنى على كونه إثبات الـدعوى أو نفيا لها، وفي كلتا الحالتين فإنّ التّعبير المجازيّ يجري إلى إثبات دعوى أو إبطالها، ويوظّف المحاجّ المجاز بطريقة مخصوصة وفي سياق تخاطبيّ لإثبات المعنى أو نفيه. وتنبثق الوظيفته الحجاجيّة من خلال دور المجاز وكيفيّة اشتغاله في إثبات المعنى أو نفيه أثناء مخاطبة عقل المتقبّل من أجل إقناعه أو حمله على الاقتناع.
ولا يتوجّه المحاجج بالمجاز إلى عقل المتقبّل فقط وإنّما يتوجّه كذلك إلى وجدانه ونوازعه نظرا لما في المجاز من طاقة تخييليّة توجّه «الحسن والقبيح» الوجهة التي يريدها المحاجّ، فيستحسن المتقبّل ويستعذب ما حسّنه المحاجّ واستعذبه ويستقبح ما قبّحه، فتميل النّفوس أو تنفر وتطمئنّ القلوب أو تنفطر. وتكمن هنا قوّة المجاز وتأثيره الفعّال وسلطته على النّفوس وقدرته على إنفاذ المعنى إلى القلب والتّمكين له، ويتحوّل المجاز من صنعة لفظيّة وحلية زخرفيّة إلى تقنية من أبرز تقنيات الخطاب الإقناعيّ. لذلك قال ابن الأثير: وأعجب ما في العبارة المجازية أنّها تنقل السامع عن خلقه الطبيعيّ في بعض الأحوال، حتى إنّهاليسمح بها البخيل، ويشجع بها الجبان، ويحكم بها الطائش المتسرّع، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة أو إقدام على أمر مهول، وهذا هو فحوى السحر الحلال، المستغني عن إلقاء العصا والحبال. يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، ص 62.
[2] اختلف البلاغيّون العرب في مواقفهم من الاستعارة بين مقدّم للجانب الإقناعيّ العقليّ ومنتصر للجانب التّأثيريّ=

وساق الشاعر في غضون ذلك أسلوب الشّرط مقدّما «لو» على غيرها من حروف الشّرط وأسمائه، لكونها تدلّ على امتناع وقوع الفعليْن، «قدرت» و«زارت»، أي انتفاء مضمون الجملة أو كذب فعليْ الشرط والجزاء. فيقتنع أبو عيسى بأمور ثلاثة، أوّلها انخراط الحبيبة في حالة العشق مع الشاعر، وتلهّفها على اللّقاء ولكنّ العجز منعها ذلك، وثانيهما القبول بصورة الملك العاشق إلى جانب صورة الملك الصارم بعد أن تأجّجت في صدره نيران الهوى وتضاعفت آلام البين والشوق. وثالثها تعظيم الشاعر لكونه محلّ عشق بالنسبة إلى أمّ عبيدة، وليس من الذين تعرض عنهم النساء.

ويدعّم الشاعر صورته عاشقا ومعشوقا بأسلوب الاستفهام وقد عدل به من الاستفهام التقريريّ إلى الاستفهام البلاغيّ متذمّرا من الهموم والأحزان التي أناخت عليهما بكلكلها متألّما من جلل البعد الذي يسرع إليهما كالقضاء المستعجل. ولعلّ هذا الاستفهام أن يُجهز على ما تبقّى في صدر القائد أبي عيسى من تحوّط واحتراز في التفاعل مع المعتمد، فينخرط معه في شكوى البعد وألم الفراق.

وبعد أن أيقن المعتمد أنّه قد مكّن لدعواه في عقل القائد أبي عيسى ووجدانه تداركته هيبة الملك، وخشي الظّهور بمظهر المنهزم أمام القائد أبي عيسى، فختم قصيدته بالتشابيه التالية في قوله:

هي الظَّبْيُ جيداً والغَزَالَةُ مَنظَراً وَرَوْضُ الرُّبَا عَرْفاً وغُصْنُ النَّقا قَدَّا

فقد شبّه المحبوبة بالظّبي ووجه الشبه طول العنق وحسنه، وشبّهها بالغزالة في جمالها، ثمّ شبّهها بروض الربا ووجه الشبه طيب الرائحة، وشبّهها أخيرا بغصن النّقاء في رشاقتها.

تظهر حجاجيّة هذه التشابيه في حمل القائد على الاقتناع بأنّ هذه المحبوبة جمعت من المحاسن والسمات ما به تختلف عن بقيّة النساء ويؤهّلها لتكون موضوع حبّ بالنسبة إلى الملك.

= الوجدانيّ وجامع بينهما، فقد ربط عبد القاهر الجرجاني الاستعارة بمفهوم الادّعاء، وهو مفهوم يخاطب الأذهان والأفهام: فأمَّا الاستعارة فإن سبيلَها سبيلُ الكلام المحذوف، في أنّك إذا رجعت إلى أصله، وجدتَ قائله وهو يبتّ أمرا عقليّا صحيحا، ويدّعي دعوَى لها سِنْخٌ في العقل.

ويثبت الجرجاني ما للاستعارة المفيدة من تأثير نفسيّ في المتقبّل بقوله: اعلم أنّ الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأوّل، وهي أَمَدُّ ميداناً، وأشدُّ افتنانا، وأكثرجرياناً، وأعجب حسناً وإحساناً، وأوسعُ سعَةً وأبعد غَوْراً، وأذهبُ نَجْداً في الصِّناعة وغَوْراً من أنتُجمعَ شُعَبها وشُعُوبها، وتُحصَر فنونهاوضروبها، نعم، وأسحَرُ سِحْراً، وأملأ بكلّ ما يملأ صَدْراً،ويُمتع عقلاً، ويُؤْنِس نفساً، ويوفّر أُنْسا. يُنظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، ص 200.

وكان لهذه الآليات والأساليب البلاغيّة أثر بيّن، إذ انخرط القائد في خطاب المعتمد وآمن بدعواه وصدّق بها، وتجلّى ذلك في التماس تكرار الخطاب الشّعريّ والإكثار من استجادته على سبيل التّفاعل والتّأثر وليس على سبيل المداراة والمحاباة، فلو كان تفاعل القائد مجاملة لما خفي عن المعتمد ولما كافأه تلك المكافأة السّنيّة.

يتّبيّن لنا بما تقدّم أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس قد ورد زاخرا بما في البلاغة من تقنيات وأساليب، وقد وُظّفت توظيفا حجاجيّا يتجلّى في تشغيلها تشغيلا مختلفا من أجل التّأثير في المتقبّل أو إقناعه أو حمله على الاقتناع، سواء أكان هذا المتقبّل منتميّا إلى المقام الخارجّيّ أي يوجد خارج النّصّ، أم كان منتميّا إلى السّياق التّخاطبيّ الدّاخليّ أي داخل الخبر .

وقد نهضت بوظيفة تواصليّة عمليّة أدّت إلى تحفيز المتقبّل على الفعل وتغيير سلوكه، ويُعتبر ذلك الشّأو البعيد والمدى الواسع لكلّ خطاب حجاجيّ. ويمكن القول إنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس قد هي من عليه الحجاج البلاغيّ وساد من خلال تواتر آلياته وأساليبه.

ولكن ألا يتوفّر الخبر الأدبيّ في الأندلس على قدر من الثّراء والنّضج يجعله مشتملا على ما به يكون حجاجا تداوليّا؟ ستكون الإجابة عن هذا السّؤال وما اتّصل به طلبتنا في الفصل الموالي.

الفصل الرّابع

الخبر الأدبيّ حجاجا تداوليّا

خرجنا من الفصل السّابق بنتائج أساسيّة أبرزها أنّ الآليّات والأساليب البلاغيّة قد طغت في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ ولم تعد مطلبا بديعيّا ينتج جماليّة النّصّ التّخييليّ فحسب وإنّما وُظّفت توظيفا حجاجيّا هادفا إلى إحداث التّأثير في المتقبّل وتغيير قناعاته وتعديل سلوكه بكيفيّة تستجيب لمقاصد المحاجج.

ولكنّ الخبر الأدبيّ قبل أن توشّيه الآليات والأساليب البلاغية أو أن يستدعيها لتحقيق غايات جماليّة أو تواصليّة عمليّة إنّما هو فعل كلام خاضع لشروط القول والتّلقّي ممّا يجعله مندرجا ضمن الحجاج التّداوليّ.

فما هي أبرز المقولات التي تؤسّس هذا الضّرب من الحجاج؟ وما مدى حضورها في الخبر الأدبيّ في الأندلس؟

I ـ أسس التداوليّة

تواترت تعريفات مصطلح التّداوليّة وتباينت من منظّر إلى آخر ومن دارس إلى آخر تبعا لتباين المنطلقات واختلاف المقاصد، فلم نعد نتحدّث عن تداوليّة وإنّما تداوليّات الأمر الذي أثار استهجان فيليب بلانشيه كما في قوله: «بل إنّنا نتساءل عن وجود تداوليّة بصيغة المفرد، إذ نفضّل اعتبارها تداوليات. وصيغة الجمع هذه ذات دلالة تحقيريّة كما لا يخفى»[1].

وتكاد هذه التّعريفات تُجمع على ضرورة الوصل بين العلامة اللّغويّة والسّياق الذي أُنتجت فيه، فهي دراسة العلاقات الموجودة بين اللّغة ومستعمليها. والتداوليّة عندفلاسفة أوكسفورد إنّما هي «دراسة الأعمال اللّغويّة. ومهما تفرّعت هذه التعريفات فإنّها لا تخلو من نسب إلى تعريف شارل موريس[2] باعتباره أقدمها.

[1] فيليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار الطّبعة الأولى، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، سوريا، 2007، ص 18.

[2] أوردت فرنسواز أرمينكو تعريف شارل موريس التالي: «التداوليّة جزء من السّيميائيّة التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات».
يُنظر: فرنسواز أرمينكو، التّداوليّة، ترجمة سعيد علّوش، ص 8.

ولعلّ أشمل تعريف ذاك الذي اقترحه مسعود صحراوي بقوله: «مذهب لسانيّ يدرس علاقة النّشاط اللّغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيّات استخدام العلامات اللّغويّة بنجاح، والسّياقات والطّبقات المقاميّة المختلفة التي ينجز ضمنها «الخطاب»، والبحث عن العوامل التي تجعل من «الخطاب» رسالة تواصليّة «واضحة» و«ناجحة». والبحث في أسباب الفشل في التّواصل باللّغات الطّبيعيّة»[1].

فجوهر التّداوليّة هو دراسة استعمال اللّغة بدلا عن دراسة اللّغة، وذلك بالنّظر في العناصر التي تحفّ بكلّ عمليّة تداول لغويّ وهي: المتلفّظ والوضعيّة التّواصليّة والإطاران الزّمانيّ والمكانيّ ومتقبّل عمليّة التّلفّظ، فهي من هذه النّاحية لسانيات الحوار. ولذلك اعتبرت فرانسواز أرمينكو التّداوليّة «استطالة لسانية أخرى للسانيات التّلفّظ»[2]، ولم تكتف بتفجير إطار اللّسانيات التّقليديّة وإبعاد الكلام من مجالها فحسب بل صدّرت مفاهيمها إلى مختلف الحقول المعرفيّة الأخرى، ولم تعدّ مجرّد سلّة مهملات اللّسانيات كما وصفها نعوم تشومسكي.

وتدرس التّداوليّة الخطاب الخاضع لشروط القول والتّلقّي، وتسعى إلى الإجابة عن عدد من الأسئلة من قبيل: من يتكلّم؟ وإلى من يتكلّم؟ ماذا نقول بالضّبط حين ـ نتكلّم؟ كيف نتكلّم بشيء ونريد قول شيء آخر؟

وإذا كان موضوع اللّسانيات الجملة من حيث هي بنية تركيبيّة دالّة بذاتها فإنّ موضوع التّداوليّة هو القول، ذلك أنّ المتخاطبين أثناء التّواصل يتبادلون أقوالا، يتكوّن كلّ قول من جملة مع ما يتمّمها من معطيات تستخرج من المقام الذي ألقيت فيه.

وتوسّلت التّداوليّة[3] في ذلك بجهاز اصطلاحيّ وشبكة مفهوميّة بلغت حسب حافظ اسماعيلي علوي ثمانية وخمسين ومائة مصطلح، وقد تحوّل العديد منها إلى نظريّات في حدّ ذاتها. ولعلّ أشهر هذه المفاهيم «الأفعال الكلاميّة»[4] حتى أنّ التّداوليّة تنسب إليه أحيانا.

---

[1] مسعود صحراوي، التّداوليّة عند العلماء العرب،التّداولية عند العلماء العرب دراسة تداولية لظاهرة «الأفعال الكلامية» في التراث اللساني العربيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان ، طبعة 2005، ص 5.

[2] فرنسواز أرمينكو، التّداوليّة، ترجمة سعيد علّوش، ص 9.

[3] يرى جورج فينو أنّ التّداوليّة اليوم تشمل ثلاثة أنواع من التّمشّي تظلّ دائما مناسبة، وهي: دراسة أعمال اللّغة ودراسة ميكانيزمات المحادثة ودراسة المقتضيات.

Georges Vignaux, *Lediscours acteur du monde, Enonciation argumentation et cognition*, Ophrys, 1988, pp. 69-70.

[4] بنى أوستين نظريّة أفعال الكلام على ما يعرف عنده بالأفعال الإنجازيّة (Les actes performatives) كالوعد والوعيد والقسم والأمر.. فالفعل الإنجازيّ في قولك: اقرأ كتاب الشّكوك، لا يُحكم عليه بمعيار الصّدق والكذب إنّما يُحكم عليه بمعيار التّوفيق أو الإخفاق. فكلّ فعل يحمل قوّة إنجازيّة (une force illocutoire) تبيّن نوعه وكيفيّة تلقّيه وفهمه من قبل المتلقّي، فإذا أنجز كان فعلا صائبا (acte heureux) وإن لم يُنجز كان فعلا خائبا (acte malheureux). =

وعلى الرّغم من أنّ التداوليّة تعتبر كلّ خطاب أدبيّ خطابا غير جادّ لأنّ المتلقّي مدعوّ إلى إدراك دلالات غير طبيعيّة بسبب ارتباطها بالتخييل فإنّنا سنختبر مدى مقولاتها بإجرائها على خبر من أدب الأخبار في الأندلس.

II - الخبر الأدبيّ الأندلسيّ حجاجا تداوليّا

حدَّثَ رجلٌ فقال: بيناَ أنَا ذاتَ ليلةٍ في دَارِي إذا باتٍ يُدقُّبَابي، خرجت فإذا أنا بجارِيَةٍ،وما إن فتحتُ البابَ قليلاً حتى اقتحمتْ ودخلتْ، ولم أكن عرفتُ امرأةً قطُّ ولا قارَبْتُها، فقالت: أريد أن أكون عندك الليلَة. فدخلتْ وأغلقتِ البابَ، وقدَّمتُ إليها طعاماً وشراباً فأكلتْ وشرِبت.فبينما نحن نتحدَّثُ إذ قالتْ: يا فلانُ، شُدَّ ظَهْرِي. فقلتُ: ما الخبرُ؟ قالتْ: أريدُ أن أَلِدَ، الله الله، اشْدُدْ فشدَدْتُ ظهرَها فَوَلَدَتْ صَبيًّا، فقلتُ لها، ويحَكِ، مَن هذا؟ قالتْ لي: ابْنُكَ. فقلتُ: لاتفعلي، فوالله ما عَرَفْتُ امرأةً قطُّ. قالتْ: هُوَ مَا تَرَى. فبَقِيتُ أكلِّمُها ساعةً وأنا أخافُ أن يسمعَ الجيرانُ كلامَها وهِيَ تأبَى وتقولُ: هذا ابنُكَ.

فبينما نحنُ كذلك إذ قالتْ: اشدُدْ ظَهْرِي، فوضَعَتْ آخرَ ثم قامتْ تريدُ الخروجَ وهذا نِصفُ الليل،وقالت: ما عليكَ خذْ أولادَك وأحْسِنْ إليهم. فلم أزلْ بها حتى أصبَحَتْ، فَعَزَمَتْ على الخروج فقلتُلها: خذِي أولادَكِ معكِ، فقالت: أولادُكَ هُمْ، والله لا أفعلُ، فلم أزلْ أطلبُ إليها وَأُمَنِّيها حتى جلستْ وقالتْ: خُذْ لنا من العَسَلِ وَالسَّمْنِ. فخِفْتُ إنْ أنا خرجتُ خرجَتْ هِيَ، فبعثتُ مَن يأخذُ لها منه،فأقامتْ وأنا معها لا أزولُ وهي تريدُ الفِرارَ. فلمّا مضتْ سبعةُ أيّام قالتْ لي: يا فلانُ، قد طالَ مُقَامِي عندك، ولا أَقْدِرُ على الرّجوع إِلَى أهلِي كَذَا. وأظهرتْ لي أنّها تريدُ المُقَامَ مع أولادِها.

= وفي إطار التّمييز بين الخبريّ والإنشائيّ عالج أوستين ما يقوم به الإنسان ليقول شيئا مّا فاقترح تمييزا بين ثلاثة أفعال:
* فعل القول (Acte locutoire): هو فعل إنتاج جملة ذات معنى ومرجع يمثّلان دلالتها، وتكون الجملة تامّة ومفيدة صوتيّا وتركيبيّا ودلاليّا وذات حمولة إخباريّة كقولك: حللت أهلا ونزلت سهلا...
* العمل المضمّن في القول (Acte illocutoire): هو الذي نحقّقه في قول شيء مّا، ويتمثّل في الفعل الإنجازيّ والغرض المقصود بالقول «كالإخبار والطّلب والتّحذير والالتزام»[3] وكذلك النّفي في قولك: لم أغادر مقعدي هذا.
* فعل التّأثير بالقول (Acte perlocutoire): هو ما نحقّقه بواسطة قول شيء مّا، ويتجلّى في آثاره لدى المخاطب إن إقناعا أو اقتناعا أو تأثيرا. و هذه المستويات متلازمة في كلّ فعل كلاميّ وإن كان حضورها يتّخذ درجات متفاوتة.
ثمّ واصل الفيلسوف الأمريكيّ جون سيرل (John Rogers Searle) تطوير برنامج نظريّة الأعمال اللّغويّة عند أوستين، وأدخل عليها مجموعة من التّعديلات. يُنظر:

2) John Langshaw Austin,*Quand dire c'est faire*, Ed, Seuil, 1970, p.114.

ونزّلت فرانسواز أرمينكو أفعال الكلام ضمن تداوليّة الدّرجة الثّالثة، وعرّفتها بقولها: إنّ نظريّة أفعال اللّغة تعدّ دراسة نسقيّة للعلاقة بين العلامات ومؤوّليها ويتعلّق الأمر بمعرفة ما يقوم به مستعمل و التّأويل، وأي فعل ينجزون باستعمالهم لبعض العلامات، وبمعنى آخر لا توجد تداوليّة مباشرة أكثر من هاته الدّراسة. ومع هذا تشاء سخرية التّاريخ ألّا يستعمل أوستن وسيرل تسمية التّداوليّة لصالحهما.
يُنظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، ص 60.

فرَكَنتُ إلى قولِها، وسكنتُ إلى كلامِها. فلمّا كان في بعضِ النّهارِ قالتْ لي: خُذْ رِطْلاً من لحمِ سمينٍ، فخرجتُ لِآخُذَ لها اللّحمَ، فأخَذْتُه ورجعتُ فلم أجِدْها، ووجدتُ الصّبيَّيْنِ في المهدِ قد نظَّفَتْهُما وكَحَّلَتْهُما ولفَّتْهما في خِرَقٍ نَقِيَّةٍ. قال: فشققتُ جيْبِي ولطمتُ خَدِّي. وكان لي في تابوتٍ خمسمائةُ دينارٍ وكانتْ قد عَلِمَتْ بها فقلتُ: أخَذَتْهَا والله، وذلك من أعظمِ المَصَائِبِ.فدخلتُ إلى التّابوتِ وفتحتُه فإذا المالُ فيه، فحمِدْتُ الله تعالى وشكرتُه.

ثمّ إنّي رجعتُ أَعْمَلُ الحِيلَة في الخلاصِ منهما، فقلتُ في نفسي: إنْ أَلْقَيْتُهُمَا في مسجدٍ من المساجدِ فيَكْنَفُهُمَا المسلمون. ثم جَعَلْتُ أتصَفَّحُ المساجدَ الكثيرةَ الأهلِ فوَقَعَ اختياري على مسجدٍ كنتُ أعرفُ أهلَه. فلمّا أصبحتُ حمَلْتُ أحدَهما ومضيْتُ به سَحَراً لِأُلْقِيَه في ذلك المسجدِ.

فما هو إلّا أن قَرُبْتُ منه حتى صاحَ بي صائحٌ منكوَّةٍ: جئتَ أيضا يا عَدُوَّ الله. ثمّ صاحَ: يا فلانُ، يا فلانُ، فأقبلَ النّاسُ من كلِّ ناحيةٍ، وقال لهم: هذاالفَاسِقُ قَدْ أقبَلَ. فخرجَ النّاسُ من بيوتهم وقالوا: في كلِّ ليلةٍ تَرْمِى وَاحِداً، يا فلانُ أخْرِجِ الطّفلَ الذي عندك فهذا والدُه. فلطَمَنِي هذا وَوَكَزَنِي هذا، وقالوا بِأَجمَعِهِمْ: احملُوه إلى السّلطانِ ليُؤَدِّبَه. خذْ ولدَكَ فعليك لعنةُ الله.

فأخذتُه خوفاً أن يذهبوا بي إلى السّلطانِ ويشهُدوا عليَّ. ونجوتُ وما أكادُ أنجُو إلا بعدَجُهْدٍ ومَشَقةٍ. فمضيتُ بواحدٍ وانصرفتُ باثنينِ. فصارَ عندي ثلاثةٌ[1].

ورد هذا الخبر في بنيته العامّة عملا قوليّا كبيرا (macro-acte de langage)[2] مفاده سعي الرّجل إلى الخلاص من المأزق. وانفتح الخبر بعمل قوليّ هو عمل التّقرير ويتمثّل في السّند «حدّث رجل فقال»، حيث يُسند الحديث إلى الرّجل، ويحقّق هذا الإسناد عملا إنجازيّا هو بداية السّرد.

ولئن تضمّن السّند المكوّنات الأساسيّة الواجب توفّرها في صناعة الإسناد وهي عبارة أداء محيلة إلى مرتبة تحمّل وسلسلة رواة وفعل إسناديّ فإنّه ورد مختزلا وغائما، حيث اقتصر على راو وحيد ورد نكرة غفلا لا نعرف عنه شيئا مظهرا ومخبرا، وتفتح هذه الخاصيّة باب التّخييل وسيعا في هذا الخبر.

---

[1] الخطيب الأمويّ، روضة الأزهار وبهجة النّفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الآداب، ص ــ ص 135 ــ 136.

[2] Dominique Maingueneau,*Pragmatique pour le discours littéraire* ,Nathan ,Paris ,1990 ,pp.12 – 11.

فالأسانيد الغائمة من قبيل «قيل» و«يحكى أنّ» و«روى بعضهم» بوّابات التّخييل ومنافذه إلى الخبر الأدبيّ. ويحدّد السّند ملامح المقام الخارجيّ، وهو مقام تخاطبيّ يشمل الرّجل من جهة والرّاوي الأوّليّ[1] الذي نقل لنا خبر الرّجل من جهة أخرى.

يبدأ بانتهاء السّند مقام آخر خفيّ طرفاه الرّاوي الأوّليّ والرّجل راويا. وما إن يتكلّم الرّجل حتى يظهر مقام آخر تكتمل عمليّة تشكيل معالمه كلّما تقدّمنا في الخبر حيث يبني الرّاوي سياقه المرجعيّ. يضمّن الرّجل الرّاوي في قوله فعل الإحالة ويقدّم بمقتضاه العناصر الأولى المكوّنة لهذا المقام، وهي الرّجل النّكرة ويمثّل راويا وشخصيّة فهو راو مندرج في الحكاية، والإطار المكانيّ وهو دار الرّاوي والزّمان وهو اللّيل ويستفاد من الواسم (marqueur) «باتٍ». والمضمر (Implicite)[2] في ملفوظ الرّاوي أنّه كان وحيدا في داره. ولكنّ التّركيب «بينا... إذا» يفيد وقوع فعل مزامن لفعل وجود الرّجل الرّاوي في داره ليلا، وهو فعل طرق الباب، ويفيد كذلك أنّ العمل المنجز بالنسبة إلى الرّجل الرّاوي هو عمل السّرد.

إنّ فعل الطّرق ليلا ينشّط في ذهن القارئ مجموعة من السّيناريوهات التّناصّيّة أو المشتركة[3] استنادا إلى مخزونه المعرفيّ. هل سيستجيب الرّاوي أم يمتنع، وفي حال الاستجابة من عساه يكون هذا الطّارق ليلا؟ ويستجيب الرّجل الرّاوي لفعل الطّرق، وإذا الطّارق جارية. وتظهر بذلك شخصيّة جديدة في هذا العالم المتخيّل الذي يبنيه الرّاوي الشّخصيّة.

لم تمهل الجاريّة الرّجل الرّاوي ليستوعب المفاجأة ويستفيق من ذهوله بل اقتحمت البيت بمقدار ما يخفيها عن العيون التي قد تكون راصدة لها، ثمّ بادرته بالكلام وضمّنت

[1] يمثّل الرّاويّ الأوّليّ الأخباريّ صاحب الكتاب وهو الذي رهّن الخبر وأنجز صياغته، وقد تحمّل الخبر عن الرّجل الرّاوي سماعا، أو ما يُعرف في النّقد الحديث بالأسلوب المشفّه.

[2] المضمر مفهوم من مفاهيم تحليل الخطاب يساعد المتكلّم على قول ما لا يريد قوله، وهو نوعان: المقتضى (Présupposé) والمهمت (entendu-Sous). والمهمت آلية ماكرة ومخادعة تمكّن المتكلّم من المناورة والاختفاء وراء ظلال المعاني. وهو أصناف أبرزها التّلميح (Allusion) والتّعريض(Insinuation). يُنظر تفصيل ذلك: معجم السّرديات، ص-ص 395-396.
أمّا موشلير فقد جعل المضمر نوعين: مضمر دلاليّ يندرج تحته مفهوم المقتضى، ومضمر تداوليّ يندرج تحته مفهوم المهمت.
يُنظر ذلك مفصّلا:
Jacques Moeschler,*Argumentation et conversation: Eléments pour une analyse pragmatique du discours*, Hatier-Paris, Aout, 1985, pp. 36-37.

[3] العبارة لمحمّد نجيب العمامي، مقاربة النّصّ السّرديّ التّخييليّ من وجهة تداوليّة: المقامة البغداذيّة للهمذاني أنموذجا. بحوث في السّرد العربيّ، ص 107.

تدخّلها المختصر عملا لغويّا هو الطّلب[1]، طلب المبيت في المنزل، ولم تمهل الرّاوي ريثما يؤدّي قولها إلى عمل تأثيريّ أو إقناعيّ وإنّما أردفت عملها القوليّ[2] بعمل فعلي هو الدّخول وإغلاق الباب، وخرقت بذلك مبدأ التّعاون[3] في مستوى مقولة الكمّ[4].

وأنجز الرّاوي عملا تقريريّا أوّلا مفاده حسب ما ورد في أديم الخطاب جهله بالنّساء،

[1] يُعتبر الطّلب وكذلك الالتماس من الأعمال اللّغويّة الأثيرة عند التّداوليّين.

[2] شهدت مصطلحات أفعال الكلام ترجمات مختلفة فقد آثر محمّد الخبو ترجمة مصطلح Acte locutoire بـ«عمل القول». يُنظر: محمّد الخبو: الخطاب القصصيّ في الرّواية العربيّة، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، الطّبعة الأولى، 2014، ص 40.

وآثر هشام الرّيفي ترجمة مصطلح Acte illocutoire بـ«عمل بالقول». يُنظر: هشام الرّيفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود، كلّيّة الآداب منّوبة، 1998، ص 143.

[3] يرى فرنان هالين أنّ القاعدة التّداوليّة التي تبني ممارسة التّحليل الأدبيّ تكسب مبدأ التّعاون أهميّة خاصّة لأنّ هذا المبدأ حسب غرايس يتحكّم في تبادل أقصى للأخبار. يُنظر: فرنان هالي، التّداوليّة والتّحليل الأدبيّ، ترجمة أحمد الجوّة، الحياة الثّقافيّة، السّنة 24، العدد 110، ديسمبر 1999، ص 43.

[4] لم تراع الجارية مقولة الكمّ، إذ قالت أقلّ من اللّزوم ولم تبيّن دواعي طلبها. والكمّ مقولة من مقولات مبدأ التعاون إلى جانب الكيف والعلاقة والأسلوب.وكان الفيلسوف الأمريكيّ بول غرايس (Paul Grice) قد صاغ «منطق المحادثة» واستند إلى مبدأين أساسيّين: مبدأ التّعاون (coopération de Principe)، ومبدأ الاستلزام الحواريّ (Implicature conversationnel). يُنظر:

Paul Grice,*Logique et conversation* in Communication, N° 30, Seuil, 1979.

ونظر أوزوالد ديكرو في قوانين الخطاب. يُنظر:

Oswald Ducrot,*le dire et le dit*, op. cit.pp. 95-114.

وجمع دومينيك منغنو النّتائج التي وصل إليها الباحثان، ونجملها في ما يلي:

1/ **مبدأ التّعاون**: يقضي هذا المبدأ بأن تكون مساهمتك في المحادثة لحظة حصولها وفق ما يقتضيه هدف المحاورة اللّغويّة التي انخرطت فيها. فالمتكلّم وكذلك المتلقّي ملزمان بالتّعاون من أجل بلوغ الهدف المنشود وإنجاح حوارهما.

2/ **مبدأ الإفادة** (Principe de pertinence): ويُعرف كذلك بمقولة الكمّ ويقضي بأن يضمّن المتكلّم خطابه الحدّ المطلوب من المعلومات دونما اقتصاد قد يؤدّي إلى الغموض في مقاصده أو إطناب قد يؤدّي إلى الوقوع في مزالق الإكثار من التّفاصيل و إرهاق المتلقّي، فالاقتصاد في الكلام أو الإكثار منه قد يخلّان بالتّفاعل القوليّ ويؤدّيان إلى فشله أو إثارة ضحك السّامع أو سخريته أو سخطه.وعلى المتكلّم أن يحرص على جعل فائدته للمتقبّل على قدر حاجته إليها. وتكمن أهميّة هذا المبدأ في مدى الإضافة النّاتجة عن المعلومات التي يتضمّنهاالخطاب ويستفيد منها المتلقّي في عمليّة التّفكيك والتّأويل. ولا ترتبط الفائدة بقيمة المعلومات المقدّمة بقدر ارتباطها بمدى مناسبة الكلام للسّياق.

3/ **مبدأ الصّدق** (Principe de sincérité): ينبغي على المتكلّم أن يقول ما يعتبره من قبيل الحقائق والثّوابت ويكون مؤمنا بصحّته، وله أن يستدلّ عليه بحجج. ويجب عليه أن «يلتزم بأقواله

... فيصرّح بما يفكّر فيه ولا يعلن عمّا لا يعتقد في صحّته ولا يأمر إلّا بما يريد إنجازه ولا يطلب إلّا ما يرغب في معرفة الإجابة عنه»[1]. وعلى الرّغم من أهميّة هذا المبدأ فإنّه يظلّ نسبيّا بسبب عدم وجود مقاييس واضحة لتمييز الصّدق من الكذب في الخطاب.

4/ **قانون الإخبار** (Loi d'informativité): يفرض هذا القانون على المتكلّم أن يقدّم كلاما مفيدا ومناسبا للسّياق ولا يتكلّم شذرا مذرا. ويتحقّق هذا القانون أساسا في الخطاب القائم على السّؤال والجواب، وهو كثيرا ما يلتبس بمبدأ الإفادة.

5/ **قانون الاستقصاء** (Loi d'exhaustivité): يقتضي هذا القانون أن يمدّ المتكلّم السّامع بأقصى ما يمكن من إفادة حول موضوع كلامه.ومتى لم يقدّم المتكلّم المعلومة المناسبة أو تستّر عليها فإنّه يكون قد اخترق هذا القانون.

6/ **قانون الصّيغة** (Loi de modalité): ينصّ هذا القانون على أن يحترز المتكلّم في كلامه من الالتباس والإبهام والإجمال والتّعقيد والالتواء، وعليه أن يرتّب كلامه ويورده موجزا ومنظّما وواضحا.

تمكّن هذه المبادئ والقوانين متى روعيت المتكلّم من إيصال مقاصده إلى المتلقّي حتّى يفهم القول على الوجه الذي لا يخالف القصد. ومتى خرقها فإنّه سيعدل في خطابه من المعنى الظّاهر إلى المعنى المضمر الذي استوجبه المقام. ويؤوّل المتلقّي هذا المعنى عن طريق الاستعانة بمبدأ الاستلزام الحواريّ. يُنظر:

Dominique Maingaineau,*Pragmatique pour le discours littéraire*, op. cit. pp. 101-111.

ولكن ما لم يصرّح به هو أنّه عفيف وغرّ ، ومن هنا نفهم لم تركته هذه المفاجأة ذاهل ا لا يحير جوابا كأنّما الطّير على رأسه أو ألقم حجرا. وأنجز بعد أن تجاوز ذهول المفاجأة عملا تقريريّا آخر هو تقديم القرى. وما لم يقله الرّاوي هنا كذلك هو أنّه كريم وأنّه يحسن معاملة زائريه.

فالرّاوي الشّخصيّة وهو ينجز عملا قوليّا أثناء نقل تجربته إلى الرّاوي الأوّليّ لم ينس أنّه في مقام حجاجيّ، فرسم صورة لنفسه لدى هذا الرّاوي الأوّليّ ومن ورائه القارئ قوامها العفّة والكرم والنّجدة دون أن يصرّح بذلك، وهذا من صميم الحجاج الخطابيّ كما ترى أموسي (Ruth Amossy).

وللقارئ أن يتساءل هنا: لم عزمت زائرة اللّيل على قضاء ليلتها في بيت رجل وحيد غريب عنها؟ هل تطلب أنسا هفت إليه نفسها أم تبغي نفقا في الأرض أو سلّما في السّماء احتماء من شرّ مستطار يلاحقها أم تريد الإيقاع بالرّاوي أم تبغي وراء ذلك سبيلا آخر؟ لا شكّ أنّ لزائرة اللّيل غاية ومقصدا، ولا شكّ كذلك أنّها ستعتمد استراتيجيّة مّا لتحقيق ذلك.

انتظرت زائرة اللّيل ريثما توهّمت أنّ الرّجل قد أفرخ روعه واطمأنّ قلبه وصادف ذلك أن فاجأها الطّلق فأنجزت فعلا قوليّا ضمّنته عملا لغويّا قوامه الأمر[1] المباشر «شدّ ظهري»، وقد ورد هذا التّدخّل خاليا من جميع المؤشّرات اللّغويّة التي تكشف مراعاة زائرة اللّيل لخصوصيّة المقام. وقد شكّل ذلك مفاجأة ثانية للرّاوي الذي ضمن فعله القوليّ عمل الاستفهام مستخبرا عن دواعي شدّ الظّهر دون أن يبدي امتناعا.

وإذا كشف ملفوظ زائرة اللّيل في مستوى المحتوى القضوي أنّها في حاجة إلى شدّ ظهرها فإنّه أبان في المقتضى عن نزعة زائرة اللّيل إلى التّسلّط وإرغام الرّاوي على الاستجابة لأوامرها دون تردّد وإخضاعه لمشيئتها، وتكون بذلك قد ألمحت إلى نواياها المبيّتة.

ولكنّها تتراجع في التّدخّل الموالي بعدما لم تأنس من الرّاوي تفاعلا ولم يبد تحفّزا للفعل وتنجز عمليْن[2] متتاليين هما الرّغبة والالتماس. ويحقّق هذا القول عمله التّأثيريّ

[1] يرى بشير الوسلاتي أنّ الاهتمام بصيغ القول كالاستفهام والأمر «غايته التّجسيم العمليّ للنّظريّة القائلة بأنّ التّداوليّة تستند إلى ما يوفّره جهاز اللّغة فينتفع به المتكلّم تحقيقا لمقاصده».
يُنظر: بشير الوسلاتي، المقامة البغداذيّة من وجهة نظر تداوليّة، في القصّ العربيّ قديمه وحديثه، ص 112.

[2] ويرى سيرل أنّ فعل القول قد يتضمّن عملا مباشرا كالاستفهام في قولك: «هل رأيت الضّوء الأحمر؟»، وقد يتضمّن إلى جانب ذلك عملا غير مباشر في بعض السّياقات التّخاطبيّة، وهو التّحذير في المثال السّابق. وقدّم الأمثلة التّالية، وقد=

حيث يستجيب الرّاوي للالتماس. وينجز الرّاوي فعل السّرد فنعلم معه نتيجة شدّ الظّهر ألا وهي ولادة صبيّ. وتنكشف لنا والرّاوي دواعي إصرار زائرة اللّيل على المبيت في داره.

يفتتح الرّاوي التّبادل القوليّ التّالي منجزا في تدخّله الأوّل عملين لغويّين هما الاستفهام والاستنكار، ومقتضاهما الاستغراب والذّهول والرّفض المطلق لهذا الواقع الذي فرض عليه، وتؤّكد وظيفة الاستفهام الحجاجيّة هذا المقتضى، فقد ذهب ألان بروندوني (Alain Berrendonner) إلى أنّ الاستفهام ليس إلّا عرقولا أو مشكلة تطلب حلّا، ويكمن حلّها في الإجابة عنها إجابة يُفهم منها ضمنيّا أنّ ذلك العرقول أو تلك المشكلة موجودة»[1].

فما عسى تكون الإجابة على سؤال «ما هذا؟» وهو يرى وليدا خارجا للتّوّ من جوف أمّه، إنّها الحيرة والصّدمة جرّاء خيبة أفق توقّعه ممّا عساه يكون من جارية جاءته ليلا تلتمس المبيت عنده.

وتمرّ زائرة اللّيل إلى مرحلة جديدة من استراتيجيّتها في التّسلّط على الرّاوي مراعية مبدأ التّعاون في الحوار ومقتضياته التّداوليّة فأجابت على السّؤال وأنجزت عملا تقريريّا «هو ابنك»[2].

والمسكوت عنه أو المهمت في خطاب زائرة اللّيل هو الإلزام. ويحمل الإلزام بدوره محتوى قضويّا هو إسناد الأبوّة إلى الرّاوي، ومقتضى دلاليّا مفاده إشراك الرّاوي في الجريرة التي ارتكبتها زائرة اللّيل وعليه أن يشاركها في درئها ويبحث لها عن مخرج.

= آثرنا استبدالنا زيد بجون (Jean):

1 يدخّن زيد[4] كثيرا.

2 هل يدخّن زيد كثيرا؟

3 زيد دَخّنْ كثيرا.

4 إلهي ما أكثر ما دخّن زيد.

تعبّر هذه الأقوال عن قضيّة واحدة هي كثرة تدخين زيد، ولكن كلّ قول حقّق عملا متضمّنا في القول مختلفا عن الأعمال الأخرى، وهي: الإثبات والاستفهام والأمر والتّعجّب. ويرى سيرل أنّ المهمّ في كلّ قول ليس صدق القضيّة التي يعبّر عنها أو كذبها وإنّما المهمّ هو العمل المتضمّن في القول الذي يحقّقه.

ومن هنا يتجاوز الخطاب مجرّد كونه خطابا لتبادل الأخبار والأقوال ليصبح فعاليّة حجاجيّة تهدف بواسطة الأقوال والأفعال الإنجازيّة إلى إدخال تغيير في المتلقّي سواء في مستوى أفكاره وقناعاته أو في مستوى مشاعره وعواطفه، ثمّ تغيير سلوكه. يُنظر:

John Rogers Searle,*Les actes de langage, Essai de philosophie du langage*, Hermann, Paris, 1996, p. 60.

[1] Alain Berrendonner, *Eléments de pragmatique linguistique*, Les editions de minuit, Paris, 1981, p. 125.

[2] خالفت زائرة اللّيل هنا مقولة الصّدق، وتقوم على قاعدتين، الأولى أن لا تؤكّد ما تعتقد في كذبه، والثّانية أن لا تؤكّد ما تعوزك الحجج في شأنه.

ويكشف الإلزام كذلك جانبا من صورة زائرة اللّيل التي حاولت إخفاءه ولكنّ الخطاب جلّاه، إنّه الجرأة والجور والتّسلّط، فقد دخلت الدّار دون موافقة الرّاوي ثمّ أصدرت إليه الأمر وكأنّ بينهما سالف مودّة وأنس، ثم هي الآن تجبره على تبنّي المولود وتحشره في ورطة لا ناقة له فيها ولا جمل.

ولكنّ الرّاوي لم يكن مهيّأ لتقبّل هذا الواقع الذي تسعى زائرة اللّيل إلى فرضه عليه، فبهت لما رأى وسمع من زائرة اللّيل، فكأنّه رأى الموت الأحمر والطّاعون الجارف والحتم المقضي وقاصمة الظّهر، وأيقن بالشّرّ وعلم أنّه قد ابتلي بالتّنين، وبالكاد ردّ الفعل بعمل قوليّ أنجز فيه ثلاثة أفعال لغويّة متتالية هي النّهي والقسم والنّفي.

تضمّن فعل النّهي المنجز محتوى قضويّا مفاده طلب الكفّ عن إسناد الأبوّة إليه، وتضمّن في الوقت ذاته مقتضى دلاليّا ماثلا في بنية الملفوظ وهو الالتماس والتوسّل لزائرة اللّيل كي تكفّ عن اتّهامه بالإنجاب على خلاف الصّيغ الشّرعيّة وإيقاعه في ورطة.

ويكتسب القسم حجاجيّته من كون المقسم به هو السّلطة العليا في الثّقافة الإسلاميّة التي تمثّل الجامع المشترك بين الطّرفين، وهي سلطة ملزمة توجب الاقتناع بصدق المُقسم.

ويتأكّد هذا التّوسّل بمقتضى عمل النّفي الدّلاليّ وهو أنّه عفيف وبراء ممّا رمته به من أبوّة في غير أطرها الشّرعيّة. و«لعلّ في تصريحه بخصاله الشّخصيّة مغامرة، فمثل هذا التّصريح حجّة قد تنقلب على مستخدمها»[1] لأنّ مضمونها يكشف خواء تجربته الاجتماعيّة.

وانقلبت الأدوار فأصبح الرّاوي العفيف الكريم صاحب البيت في موقع ضعف واستجداء وأصبحت زائرة اللّيل المتسلّطة في موقع قوّة. وقد استشعرت زائرة اللّيل هذا الضّعف فأكّدت من جديد فعل الإلزام «هو ما ترى»[2] موظّفة ما في الجملة الاسميّة من طاقة حجاجيّة[3] تتجلّى في إقرار حكم وإثبات حقيقة من أجل إقناع الرّجل بأبوّته،

[1] محمّد نجيب العماميّ، الذّات محاجّة في ألف ليلة وليلة «حكاية الحمّال والبنات» أنموذجا، الحجاج والاستدلال الحجاجيّ: دراسة في البلاغة الجديدة، ص 209.

[2] خرقت زائرة اللّيل هنا مبدأ من مبادئ المحادثة، وهو مبدأ التّعاون، إذ صادرت حقّ محاورها في الدّفاع عن نفسه.

[3] يرى بنفنيست أنّ الجملة الاسميّة تهدف إلى الإقناع من خلال تعبيرها عن حقيقة عامّة، وهي لا تنقل معطى حدثيّا وإنّما هي تقرّر حكما لا زمنيّا دائما، يفعل في النّفوس فعل حجّة السّلطة.
يُنظر:

Emile Benveniste, *Problèmes de linguistique générale 1*, Editions Gallimard, pp. 162-163.

خارقة من جديد مقولة النّوع في مبدأ التّعاون التي تنصّ على عدم تأكيد ما تعتقد في كذبه وما تعوزك الحجج في شأنه. موظّفة أسلوب تحصيل الحاصل[1] في بعده الحجاجيّ، فالجارية تشدّ ذهن الرّجل إلى ما هو موجود بالفعل والحقيقة الواقعة دون أن تصرّح بها.

ويعدل الرّاوي إلى عمل السّرد ومفاده مواصلة ثني زائرة اللّيل عن المضيّ قدما في دعواها أملا في تحقيق عمل التّأثير فتتراجع وتعدل عن توريطه. ويظهر في عمل السّرد مقام أخلاقيّ يكشف لنا ركون الرّاوي إلى التّوسّل والالتماس بدل المواجهة والتّصعيد، إنّه مقام أخلاقيّ يخشى الرّاوي بمقتضاه افتضاح أمره أمام جيرانه إن هو أزبد وأرعد لإرغام زائرة اللّيل على مغادرة داره، فهو حريص على حماية وجهه الإيجابيّ أمام جيرانه وعدم المساس بوجهه السّلبيّ. ولكن زائرته لم تراع هذا المقام بل استثمرته وسيلة ضغط فازدادت عتوّا وضمّنت عملها القوليّ عملا لغويّا هو الإثبات والتّأكيد «هذا ابنك» مستعملة الإسناد التّامّ مستوفية شروط قانون الإفادة.

ويصل الأمر إلى درجة قصوى من التّعقيد بعد أن تشبّث الرّاوي ببراءته وتشبّثت زائرة اللّيل بإرغامه على تحمّل تبعات الأبوّة، ولعلّ كلّ شخصيّة بعدما لمست من الأخرى ثباتها على موقفها أن تتساءل: ما أنا فاعلة الآن؟ ولا يحتاج أمر زائرة اللّيل إلى تخمين لأنّها تتحرّك وفق استراتيجيّة محكمة منذ أن اقتحمت الدّار، وهي استراتيجيّة ترمي إلى درء الفضيحة حماية لوجهها الإيجابيّ، والتّخلّص من المولود بما لا يخالف الشّرع. أمّا الرّاوي فما زال متردّدا لأنّه لم يستعد للبلاء قبل وقوعه لذلك لم يعرف الدّخول فيه والخروج منه، ولعلّ صورته التي رسمها لنا في الخطاب أن تؤكّد ذلك، فعفّته وكرمه ومراعاته حقّ الضّيف والجار تبيّن أنّه غرّ مسالم وليست له يد في المكائد والاحتيال.

ويعود الرّاوي من جديد إلى عمل السّرد، ومقرّره استمرار ثبات كلّ شخصيّة على موقفها، بينما تعود زائرة اللّيل إلى عمل القول منجزة عمل الأمر، وأصبح الأمر مألوفا بالنّسبة إلى الرّاوي لذلك لم يفاجأ أو يستفسر وإنّما استرسل في عمل السّرد منجزا عمل التّقرير، ومفاده أنّ زائرة اللّيل أنجبت صبيّا ثانيا وعزمت على مغادرة البيت وترك ابنيها في عهدة الرّاوي، وتكون بذلك قد أحكمت نسج خيوط مؤامرتها ونفّذت استراتيجيّتها القاضية بالتّخلّص من وليدها دون المساس بوجهها السّلبيّ أو انتهاك حياضه.

---

[1] هذا الأسلوب ضرب من التّنويعات الحجاجيّة والصّور الخطابيّة وتعدّد التّعريفات.

وتضمّن تقريره «وهذا نصف اللّيل» معنى مستلزما حواريّا[1] هو خوف الرّاوي على نفسه من وجوه عدّة، أبرزها احتمال تفطّن العسس والعيون لها فيقع في ما لا ينادى فيه وليده، وكذلك قلّة حيلته وعجزه عن التّعامل مع هذا الواقع الجديد في مثل هذا الوقت. ولئن نهضت الواو بدور الرّابط التّركيبيّ الذي يعزّز انسجام الخطاب واتّساقه فإنّ دورها في الرّبط الحجاجيّ لمّما يؤكّد معنى خوف الرّاوي واضطرابه.

وتزداد الهوّة اتّساعا بين الشّخصيّتين، ففي حين استبدّ الخوف بالرّاوي على نفسه جرّاء الوقوع في هذه الورطة، كشفت زائرة اللّيل في خطابها بصورة ضمنيّة خوفها على ولدها عندما أنجزت عمل الأمر مكرّرا «خذ أولادك وأحسن إليهم»، فهي تخشى ما قد يلحقهما من أذى إذا لم يأخذهما ويحسن إليهما.

وينهض الرّاوي بعمل السّرد مقرّرا استرساله في إقناع زائرة اللّيل بأن تأخذ ولديها، وقد أدّت أعمال التّأثير بالقول التي وصلت إلينا بعد تسريدها إلى نجاح الرّاوي جزئيّا، إذ لم تغادر الجارية المنزل وظلّت هناك إلى الصّباح، حيث عاودت العزم على مغادرة البيت دون الولدين.

وقد أسعف هذا النّجاح الجزئيّ الرّاوي ومنحه حمولة من الثّقة بالذّات واسترجاع الأنفاس واستعادة التّوازن ليدخل المواجهة وصراع الإرادات بنفس جديد، فأنجز عمل الأمر للمرّة الأولى مذ جاءته زائرة اللّيل «خذي أولادك معك». ويكشف المقتضى في هذا الملفوظ رغبة الرّاوي في استعادة موقعه[2] في محور علاقته بالجارية وهو موقع «الأعلى» وتنزيلها في الموقع «الأدنى» ليتسنّى له بسط سلطته والتّمكين لنفوذه وكسب الصّراع والخلاص من الورطة، وقد يكون هذا التّغيّر في الخطاب وليد مناورة تكتيكيّة يجريها الرّاوي لاختبار شخصيّة الجارية بعد أن أظهرت لينا وتعاونا[3].

[1] يتنزّل مفهوم الاستلزام الحواريّ أو الخطابيّ ضمن آليات إنتاج الخطاب، وقد استعمله غرايس في تأويل دلالة العبارات في اللّغات الطّبيعيّة، والتّمييز بين ما يُقال أو المعنى الصريح في القول وما يُستلزم خطابيّا أو المعنى غير المصرّح به. فالعبارة أو الجملة لها معنى أصليّ حرفيّ لصيق بدلالتها المعجميّة والقواعد اللّغويّة التي أجريت فيها، ولها كذلك معنى متغيّر بتغيّر سياق استعمالها بمختلف عناصره المقاميّة (المتكلّم، المتلقّي، الزّمان، المكان، المقام...)، ومكّن هذا المفهوم من فهم الاختلاف المألوف بين دلالة الجملة والمعنى الذي يبلّغه القول. والعناصر التي تولّد الاستلزام الخطابيّ قد تكون مرتبطة بعبارة لغويّة وقد تكون ناتجة عن العلاقة بين القول وسياق من السّياقات.
وفي سياق إجرائه لهذا المفهوم اقترح غرايس لتأويل دلالة جملة مّا النّظر في معنى الجملة المتلفّظ بها من قبل متكلّم في علاقته بسامع. ثمّ المقام الذي أُنجزت فيه الجملة، ثم مبدأ التّعاون الذي يقضى بتعاون السّامع كي يتمكّن من تأويل ما يريد المتكلّم قوله، ويدرك من الدّلالة ما يفوق معنى الجملة الحرفيّ.

[2] في تصوّر بارتيلو عندما تنخرط شخصيّتان في حوار فإنّ العلاقة التي تربطهما تتميّز بتموقعهما النّسبيّ على ثلاثة محاور: المحور الأفقيّ والمحور العموديّ والمحور العاطفيّ.
Francis Berthelot, *Parole et dialogue dans le roman*, Ed Nathan, 2001, p. 78.

[3] تقول أركييوني: «في سياق عمليّة التّبادل يمكن لطرفي الحوار أن يوجدا في مكان مختلف في هذا الحوار العموديّ غير =

ولكنّ الجارية أدركت بدورها أن تنازلها وبقاءها إلى الصّباح استجابة لرغبة الرّاوي قد يكلّفها ثمنا باهضا فتخسر موقعها ويذهب ريحها وتفقد ما كسبته من تسلّطها وتجبّرها والمتمثّل في خنوع الرّاوي وملاطفته ومداراته لها، وعندئذ تفشل استراتيجيّتها وتبوء بالخسران المبين. لذلك عملت على استعادة زمام المبادرة وإرجاع الرّاوي إلى حجمه الطّبيعيّ فأنجزت ثلاثة أعمال لغويّة متتابعة في عمل قوليّ واحد، وهي: التّأكيد والقسم والنّفي. فسدّت على الرّاوي جميع مسالك الأمل في إلزامها بحمل أولادها.

ومن أفعال التّأثير بالقول في خطاب الجارية استكانة الرّاوي وانكسار شوكته وعودته إلى الموقع الأدنى في محور علاقته بها. ويتأكّد ذلك بعمل السّرد الموالي، فالرّاوي استمرّ في محاولته منع الجارية من مغادرة الدّار دون ولديها، وكشف مقتضى الملفوظ التّالي على الرّغم من تسريده «وأمنّيها» تراجع الرّاوي درجة أخرى في موقعه من الجارية، وتحوّل من مرحلة العمل على الحؤول دون خروجها من غير أولادها وإقناعها بذلك إلى مرحلة تقديم مقابل مّا إذا استجابت لطلبه. وقد أدّى هذا التّحوّل المفاجئ في خطاب الرّاوي إلى أعمال تأثيريّة تجلّت في استجابة الجارية لرغبة الرّاوي في عدم المغادرة دون ولديها بل وجلوسها هناك.

لم يكن جلوس الجارية حركة بريئة لبّت فيها طلب الرّاويّ وإنّما هو تحوّل جزئيّ في استراتيجيّتها منذ دخولها الدّار، ولذلك عادت إلى عمل الأمر من جديد في عملها القوليّ ولكن بمحتوى قضوي مغاير تماما لما عهده الرّاوي في ما تقدّم من مراحل التّخاطب بينهما، إنّه طلب التّزوّد بالعسل والسّمن، ومفاده أنّ الجارية عدلت عن عزمها التّخلّص من ولديها وقرّرت ملازمتهما والبقاء في دار الرّاوي. ولكنّ مقتضى هذا الملفوظ يفيد أنّ الجارية التجأت في هذه المرحلة من استراتيجيّتها إلى الاحتيال بعد أن فشلت جميع محاولات إقناع الرّاوي بمغادرة الدّار دون أبناء، فهي تريد تكليف الرّاوي باشتراء بعض الحاجيات ممّا يجبره على مغادرة الدّار، فتتاح لها فرصة الفرار.

ولكنّ الرّاوي في عمله السّرديّ يقرّر تفطّنه لهذه الحيلة وما ترتّب عنها من ردود أفعاله، فقد استجاب لطلبها بتكليف من ينوبه في اشتراء المستلزمات، ثمّ لازمها وفرض

= المرئيّ الذي يحدّد علاقتهما الشّخصيّة، فتقول إذن إنّ أحدهما احتلّ موقعا أعلى، موقع المهيمن. بيد أنّ الآخر وُضع في موقع أدنى، موقع المهيمن عليه».

Catherine Kerbart-Orecchioni, *Les interactions verbales*, Tome 1, Armand Colin, Paris, 1990, p. 71.

عليها رقابة شديدة. ويؤكّد الرّاوي في عمله التّقريريّ ما كانت الجارية قد أضمرته لمّا تظاهرت بالمكوث في الدّار، إذ «هي تريد الفرار».

كانت فطنة الرّاوي نجاحا جزئيّا بالنّسبة إليه في الإبقاء على الجارية مع ولديها، ولكنّها في الوقت ذاته كانت فشلا جزئيّا بالنّسبة إلى الجارية التي عجزت سواء عن طريق الإقناع أو عن طريق الاحتيال في الفرار من دار الرّاوي واستكمال خطّتها الاستراتيجيّة في التّخلّص من حملها بأدنى ما يمكن من الخسائر الاجتماعيّة والقانونيّة والدّينيّة.

وينفتح في هذا المستوى من الأحداث مفصل احتمالات[1] أمام القارئ لا سيّما أنّ المرحلة الأولى من المواجهة بين الرّاوي والجاريّة أكسبت كلّ شخصيّة معرفة بالأخرى وأكسبت القارئ دراية بمقاصد كلّ شخصيّة وطرقها المتّبعة في ذلك.

استمرّت الهدنة بين الشّخصيّتين سبعة أيّام ثمّ استأنفت الجارية المواجهة بعمل قوليّ أنجزت فيه سلسلة من الأعمال اللّغويّة هي النّداء والتّقرير والنّفي. وقد أدّى محتواها القضوي[2] معنى واحدا هو عدول الجارية عن قرارها مغادرة الدّار دون الولدين،

والرّكون إلى الرّاوي والبقاء معه. فمن مقتضيات النّداء التّداوليّة الإحالة إلى طبيعة العلاقة مع المنادى، ويترتّب عنها عمل التّأثير بالقول من خلال زرع الطّمأنينة في المنادى

[1] ترجمة اقترحها محمّد نجيب العمامي لـمصطلح ايكو Nœud de probabilités. بحوث في السّرد العربيّ، ص 107.

[2] لمحتوى كلّ ملفوظ مستويان، مستوى ظاهر هو موضوع التّلفّظ ويسمّى المعطى، أو المقول، أو المحتوى القضويّ أو الوصفيّ (contenu propositionnel ou descriptif)، ومستوى خفي يسمّى المضمر (L'implicite). يُنظر:

Oswald Ducrot, *dire et ne pas dire*, op. cit. p. 67.

والمضمر مفهوم يسمح للمتكلّم بأن يقول دون أن يقول، وهو نوعان: المقتضى (Présupposé) والمهمت (Sous-entendu). والمقتضى بدوره نوعان: مقتضى دلاليّ يستفاد من الملفوظ وماثل فيه ولا يتأثّر بنفي المعطى أو السّؤال عنه. ومقتضى تداوليّ يرتبط بالتّلفّظ، ويشمل المعطيات والافتراضات المسبقة التي يشترك في معرفتها طرفا الحوار وتمثّل خلفيّة تواصليّة لإنجاح فعل التّواصل بينهما. ومثال ذلك: هل شُفي ابنك؟ المعطى في هذا الملفوظ هو الاستخبار عن شفاء الابن، ويفيد المقتضى الدّلاليّ أنّ ابن المخاطَب مريض، وأمّا المقتضى التّداوليّ فيتمثّل في افتراض مسبق مفاده أن المخاطَب متزوّج وله ابن، وأنّ هذا الابن مريض، وتجمع بين المتحاوريْن علاقة تسمح للمخاطِب بأن يلقي هذا السّؤال. يُنظر:

Oswald Ducrot, *le dire et le dit*, op.cit. pp. 20-21.

وأمّا المهمت فيشمل كلّ المعلومات التي يمكن أن يتضمّنها ملفوظ مّا وتؤوّل في ظلّ خصائص السّياق التّلفّظي، فقولك للقاضي: «رحم الله عمر ابن الخطّاب»، فأنت تهمت استدراجه إلى العدل في أحكامه دون أن تصرّح له بذلك. وأمّا قولك لصديقك «أقلع زيد عن التّدخين فأنت تهمت دعوته إلى النّسج على منواله.وقد ينقلب المعنى المهمت إلى نقيضه إذا ما تغيّر السّياق. ففي قولك لصديقك: إنّها السّاعة الثّامنة ليلا: قد تهمت عجّل وقد تهمت تمهّل.يُنظر:
محمّد الخبو، الخطاب القصصيّ في الرّواية العربيّة، ص 43.
ويمكنك إنكار المعنى المهمت إذا لاحظت أنّه سيوتّر علاقتك بالطّرف المقابل. فإذا قلت لشخص ثقيل: إنّها العاشرة ليلا، وأنت تهمت طرده، فيقول: أنت تطردني. يمكنك أن تقول: لم أقصد سوى إخبارك بالتّوقيت. للتوسّع يُنظر: مجموعة مؤلّفين، معجم السّرديّات، ص ص 395 – 396.

وخلق نوع من الألفة معه، وإيهامه بأنّ المنادِي يكنّ له المودّة. وتدعّم ذلك بالمحتوى القضوي في التّقرير والنّفي، إذ الجارية غابت عن أهلها فترة زمانيّة قد تعرّضها للمساءلة أو العقاب متى عادت. ولتجنّب هذا الاحتمال تخلّت عن قرار المغادرة وآثرت البقاء قرب ولديها في دار الرّاوي طلبا للسّلامة.

ويؤكّد الرّاوي في عمله السّرديّ ما عزمت عليه الجاريّة من رغبة في ملازمة ولديها، كما يؤكّد عمل تأثير قولها في نفسه إذ «ركن إلى قولها». ولكنّ موقف الجارية ما هو إلّا تغيير ظرفيّ في خطّتها الاستراتيجيّة أملاه عليها فشلها في إقناع الرّاوي بالسّماح لها بمغادرة الدّار، حيث تمرّ من الطّلب المباشر إلى الخديعة والاحتيال. ويتدعّم هذا المسكوت عنه في خطاب الجارية سواء الخطاب المباشر أو الخطاب الذي تولّى الرّاوي تسريده بما ورد في تقريره «وأظهرت لي». وللقارئ هنا أن ينتظر من الرّاوي أن يتحوّط ويحترز من مكر الجارية بعدما تفطّن إلى أنّ عزمها البقاء مع ابنيها محض تظاهر مجاف للحقيقة وحيلة لتتمكّن من الفرار.

أيقنت الجارية بمقدار مفعول خطابها في الرّاوي فانتظرت حتّى يستولي عليه التّأثير ويصبح أطوع وانقياده أسلس، ثمّ أنجزت عمل الأمر، وهو عمل له ظاهر دلاليّ وباطن تداوليّ، فظاهره طلب اشتراء لحم سمين أمّا باطنه فطلب الخروج من البيت إلى السّوق وقضاء المزيد من الوقت في تخيّر اللّحم السّمين والبحث عنه وتجنّب اشتراء سائر أنواع اللّحم الأخرى، والمسكوت عنه في كلام الجارية هو أنّها قد أمّنت لنفسها جميع أسباب نجاح خطّتها، فإن استجاب الرّاوي فإنّه سيغادر البيت وتتاح لها فرصة الفرار، ثمّ إنّ بحثه عن اللّحم السّمين سيستغرق وقتا هي في حاجة ماسّة إليه لأنّها ستستثمره في إصلاح شأنها وشأن ولديها ثمّ مغادرة البيت وبلوغ مأمنها المجهول بالنّسبة إلى الرّاوي.

وصدق حدس الجارية وانطلت الحيلة على الرّاوي الواقع تحت مفعول التّأثير الذي مارسته عليه سابقا لمّا أوهمته بعزمها المكوث مع ولديها. وقد ساق ذلك في أعمال تقريريّة أفاد محتواها القضوي الاستجابة لطلب الجارية وفكّ الرّقابة عليها بخروجه إلى السّوق التماسا لطلبتها، والتّفطّن أثناء عودته إلى فرارها بعد أن أصلحت شأن ولديها.

وتنطلي الحيلة على الـرّاوي وتخيب انتظارات القارئ التي بُنيت على تقرير

«وأظهرت لي»، وليس ذلك بسبب حمقه أو بلاهته وإنّما أورد تقريره بتظاهرها أثناء رواية الخبر وبعد انقضاء وقائعه وتفطّنه إلى أنّه غفل غير خبير بمكائد النّساء[1].

وبعودة الرّاوي إلى البيت يختفي المقام التّخاطبيّ الرّجل / الجارية ويظهر المقام المتخفّي مقام الرّاوي الأوّليّ / الرّجل راويا.

لمّا تفطّن الرّاوي لفرار الجارية انتابته هستيريا من الانفعال وردود الفعل «شققت جيبي ولطمت خدّي»، ومقتضى هذا التّقرير الحسرة والتّوجّع والألم والتّفجّع لما ينتظره أوّلا من تبعات الورطة، ولغفلته وبلاهته ثانيا. وقد استفاد من هذه التّجربة استفادة عاجلة، فأظهر وعيا بوجوه البلاء الأخرى وأصبح أكثر تحوّطا واحترازا ممّا قد يحاك له من مكائد. ويستفاد ذلك من تضمينه في عمل السّرد أعمالا تقريريّة تكشف خشيته من سرقة ماله، وتأكّدت هذه الخشية بعمليْ التّقرير والقسم المنجزان في عمل القول: «أخذتها والله». وازداد يقينه واستحكمت خشيته بسبب علم الجارية بموضع المال.

وقد أحال ظاهر هذه الأعمال إلى فرق الرّجل الرّاوي وفزعه وخوفه من الوقوع في بليّة أشدّ وطأة من البليّة السّابقة، وتجلّى ذلك في صيغة التّفضيل المطلق الجارية إلى تنزيل سرقة ماله منزلة أعظم المصائب، وأفاد مقتضى التّقرير الأخير «فحمِدْتُ الله تعالى وشكرتُه» استطارة قلبه فرحا وكأنّما بويع بالخلافة أو كلّمته الملائكة.

وتنكشف لنا في هذا المستوى من الخبر مجموعة من الحقائق تعتبر من المقتضيات التّداوليّة، فقد آلت استراتيجيّة الجارية إلى النّجاح إذ تخلّصت من ولديها دون تبعات، وحافظت على وجهها الايجابيّ، والأهمّ بالنّسبة إليها في هذا النّجاح أنّها تركت الولدين في رعاية رجل مسالم مأمون الجانب سيخضع طوعا أو كرها لهذا الواقع الجديد الذي فُرض عليه، وتتأكّد هذه الأهميّة بإصلاحها شأن ولديْها قبل فرارها وعدم سرقتها للمال الذي كان بوسعها الاستيلاء عليه، بل إنّ إبقاءها على المال تحوّل إلى هبة وتسكين للرّجل الرّاوي حتّى لا ينفعل ويدفعه إحساسه بالخصاصة إلى ارتكاب حماقة في حقّ الولدين، فكأنّ رسالتها إلى الرّجل تقول: هذا مالك كما تركته، فاستعن به في الإنفاق على الولدين. وأمّا بالنّسبة إلى الرّجل الرّاوي فقد آلت جميع أعماله إلى الفشل ووجد نفسه في ورطة أحكمت نسجها يدا الجارية.

---

[1] يتطابق هذا السلوك مع قاعدة حسن الأدب والتخلّق التي تدارك بها جيوفري ليتش مبدأ التعاون عند غرايس. ينظر تفصيل ذلك:

جيوفري ليتش، مبادئ التداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013، صص 139–171.

ولنا هنا أن نتبيّن أسباب النّجاح والفشل بالنّسبة إلى الشّخصيّتين من وجهة نظر تداوليّة، ويمكن حصرها في سببين، يتّصل أوّلهما بصورة كلّ شخصيّة، فقد رسمت لنا كلّ واحدة صورتها في الخطاب من خلال أعمالها القوليّة أساسا وكذلك الفعليّة، فإذا الجارية جريئة متسلّطة ماكرة رضعت لبان الخديعة والكيد والاحتيال في السّالف من قائم حياتها، وإذا الرّجل الرّاوي غرّ غفل غبيّ، يراعي المقولات الأخلاقيّة كالتّعفّف وحرمة الضّيف والجار والذّود عن حياضه حتّى لا يُراق ماء وجهه. وممّا لا شكّ فيه أن مواجهة بين طرفين بهذه المواصفات ستكون الغلبة فيها للماكر المحتال.

وأمّا السّبب الثّاني فينسل من رحم السّبب الأوّل، ذلك أنّ الجارية قد أسعفها مكرها وكيدها في رسم خطّة استراتيجيّة بيّنة تقضي بالولادة في بيت رجل غريب عنها ثمّ الفرار، وأمّا الرّجل الرّاوي فقد أوقعته غفلته في المأزق، ولم تسعفه طيبته بخطّة واضحة في مواجهة الجاريّة الماكرة وإنّما كانت مواقفه وردود أفعاله ممّا أملاه عليه طبعه المسالم في كلّ لحظة وحين.

وينفتح أمامنا من جديد مفصل احتمالات قوامه الإجابة عن السّؤال التّالي: كيف سيتعامل الرّجل الرّاوي مع هذا الواقع الجديد؟ هل سيرفع أمره إلى القاضي أم سيبحث عن الجارية أم سيتخلّص من الولدين أم سيخضع للأمر الواقع؟ كلّ احتمال يظلّ قابلا للتّحقّق، ولكنّه لن يكون خبرا جديدا لأنّنا في هذه الحالة سنُخرج النّصّ من دائرة الخبر باعتباره نوعا من أنواع السّرد الأصلية قوامه وحدة سرديّة إلى دائرة الحكاية باعتبارها كذلك نوعا سرديّا أصليّا لكنّه يتركّب من أكثر من خبر فضلا عن وجوه الاختلاف الأخرى. وهذا الاحتمال إنّما هو مفصل من مفاصل الحدث المركزيّ في الخبر والمتمثّل في سعي الرّجل الرّاوي إلى الخلاص من الورطة التي أوقعته فيها زائرة اللّيل منذ بداية الخبر.

ويستمرّ المقام المتخفّي مقام الرّاوي الأوّلي والرّجل راويا، فأنجز الرّجل عملا مباشرا هو التّقرير ومفاد محتواه القضوي إعمال الحيلة من أجل الخلاص من الطّفلين، وعملا غير مباشر هو التّسلّح بالسّلاح نفسه الذي أوقعه في الورطة وهو الاحتيال، فمن المقتضيات التّداوليّة أن يستثمر المرء تجاربه الاجتماعية في صقل مهاراته وإثراء خبراته ومعارفه وإن كان في فنون الاحتيال، وذلك درءا للبلاء لا استنزالا له.

ويظهر مقام جديد طرفاه الرّجل الرّاوي / ذاته، في إطار حوار باطنيّ ينجز فيه الرّجل

الرّاوي عمل افتراض يرمي إلى إلقاء الطّفلين في أحد المساجد ليكن فهما المصلّون، ويكشف المقتضى الدّلاليّ المضمر في هذا الحوار الباطنيّ حرص الرّجل الرّاوي على سلامة الطّفلين ونجاتهما من مخاطر الإهمال والجوع، ومن المقتضيات التّداوليّة ذات الطّابع الدّينيّ أنّ المساجد هي خير الأماكن على خلاف الأسواق شرّ الأماكن، ولن يُصاب الإنسان بشرّ في خير الأماكن، هذا فضلا عمّا ترسّب في الذّاكرة الجمعيّة من أنّ المصلّين هم أكثر النّاس تراحما وتعاونا وإقبالا على فعل الخير والعمل الصّالح.

وقد آل عمل الافتراض إلى النّجاح لأنّ الرّجل الرّاوي انتقل من التّفكير إلى التّنفيذ، واستغرق التّنفيذ مجموعة من الأعمال التّقريريّة قوامها البحث عن مسجد واختيار أحدها وحمل الطّفلين إليه سحرا. ويُفهم من المقتضى الدّلاليّ المضمر أو المعنى المهمت في قوله «فوقع اختياري على مسجد كنت أعرف أهله» مدى فطنة الرّجل الرّاوي وتحوّطه خوفا على نفسه وإبقاء على حياة الطّفليْن، فلئن تفطّنوا إليه لن يعاقبوه أو يرفعوا أمره إلى القاضي وستكون معرفته السّابقة بهم شافعا له عندهم. وتبين هذه المعرفة السّابقة كذلك عن سماتهم الخُلقيّة، فلا شكّ أنّهم على مقدار من الطّيبة التي يتحوّز عليها، وإلّا لما خالطهم وتعرّف إليهم. وهذه الطّيبة صمّام أمان يحمي الطّفليْن من كلّ أذى.

ويظهر مقام تفاعليّ آخر بمجرّد وصول الرّجل الرّاوي إلى المسجد المختار تنفيذا لافتراضه وإتماما لحيلته، إنّه مقام الرّجل الرّاوي والصّائحين به.

أنجز الصّائح الحارس عملين لغويّين في قولين فصل بينهما السّرد، أوّلهما النّداء ووظيفته تنبيه بقيّة العسس ودعوتهم إلى إحكام المنافذ على القادم للقبض عليه. وثانيهما التّقرير وقد بناه الصّائح على الوصف والإخبار، وظف في الوصف اسم الفاعل «الفاسق» ليثبت المعنى المجرّد «الفسوق» للفاعل وهو الرّجل، وهذه الصّفة تؤلّب المسلمين على صاحبها وتلزمهم بإقامة الحدّ عليه تبعا لوجه المعصية التي أتى بها. فهي تخرج صاحبها مخرج العاصي وتبني موقفا سلبيّا منه وتحمل النّاس على الغلظة والشدّة معه.

أُسند إلى الصّائحين ومن استجاب لصياحهم أعمال قوليّة أنجزوا فيها نوعين من الأعمال، أوّلهما أعمال مباشرة وهي التّقرير والنّداء والأمر والدّعاء وتلتقي في معنى القبض على الرّجل بتهمة إلقاء طفل في المسجد كلّ ليلة، وتخييره بين حمل الطّفل الذي ألقي اللّيلة الماضية في المسجد أو رفع أمره إلى السّلطان، ولكنّها تختلف في قيمتها الحجاجيّة.

وهي أعمال ناجحة لأنّها متبوعة بالتّنفيذ، فعمل النّداء ترتّب عنه إقبال النّاس من كلّ ناحية، وعمل الإخبار «هذا الفاسق قد أقبل» أدّى إلى خروج النّاس من بيوتهم.

وقد تولّى السّرد مسرحة هذا المقام التّفاعليّ فنقل الأفعال التي أنجزها الصّائحون ومن استجاب لصياحهم وحضر إلى مكان وجود الرّجل الرّاوي، فقد أحيط به من كلّ حدب وصوب وأخذته النّعال والأرجل والأكفّ ووجد نفسه في ما لا يُنادى فيه وليده.

وأمّا النّوع الثّاني من الأعمال فهو أعمال غير مباشرة مفادها أنّ أحد الرّجال قد أرهق أجوار المسجد بفسقه بعد أن دأب على إلقاء طفل باستمرار في المسجد، وأنّهم قد نصبوا له كمينا ووقع في قبضة العسس. ومن المصادفات اللّطيفة التباس الأمر على العسس حيث صادف مجيء الرّجل الرّاوي ليلة نصب الكمين للرّجل الآخر، فسبق في وهمهم أنّهم بإلقائهم القبض على الرّجل الرّاوي قد قبضوا على ذلك الرّجل الذي اعتاد إلقاء الأطفال في المسجد. ويتدعّم ذلك بعمل قوليّ لإحدى الشّخصيات أنجز فيه عمل النّداء والأمر والتّقرير دفعة واحدة: «يا فلان أخرج الطّفل الذي عندك فهذا والده».

ويجد الرّجل الرّاوي نفسه من جديد في ورطة أشدّ وطأة من الورطة السّابقة، وله هنا أن يختار أحد الأمرين اللّذين فُرضا عليه، فإمّا أن يُحمل إلى السّلطان ويُؤدّب على ما اقترفت يداه بعد أن ثبتت تهمته بالبيّنة وشهادة الشّهود، وإمّا أن يحمل معه الطّفل الذي أُلقي البارحة في المسجد، وهذه ثالثة الأثافي.

ويعود الرّجل الرّاوي إلى عمل السّرد منجزا سلسلة من الأعمال التّقريريّة تتّفق في محتواها القضوي على قبوله الاختيار الثّاني لكونه أخفّ مؤونة من الاختيار الأوّل الذي سيؤدّي حتما إلى عقوبته وإلزامه بالأبوّة. ويُفهم من المعنى المهمت في ملفوظ الرّجل الرّاوي «فمضيت بواحد وانصرفت باثنين، فصار عندي ثلاثة» مدى إحساسه بالخيبة والمرارة وسوء منقلبه، فقد اتّسعت مصيبته واشتدّ بلاؤه وعظم خطبه، وانغلقت أمامه سبل الخلاص في الوقت الذي انغلق فيه الخبر.

ولا شكّ أنّ الشّخصيّتين قد تحوّلتا إلى قيمتين رمزيّتين عند البونسي الذي ساق هذا الخبر، إنّها قيمة المكر والخديعة والشّر من جهة وقيمة البراءة والعفويّة والخير من جهة أخرى حيث يكتسح الشّرّ الخير وتُنحر الفضيلة في معابد الرّذيلة في مجتمع كثرت دسائسه وفتنه وازدادت المكائد السّياسيّة والمؤامرات بين الأقاليم والسّلطة المركزيّة في مرّاكش حاضرة الحكم... فضلا عن مكر الفرنجة الطّامعين في استرداد الأندلس.

ويتّضح لنا ممّا تقدّم أنّ الخبر الأدبيّ من وجهة نظر تداوليّة قد اقترب من المجتمع وقضاياه ولعلّ ذلك ما حدا ببيار بونس (Pierre Bance) إلى القول بأنّ التّداوليّة قد سمحت بإعادة إدراج الأدب إنتاجا وتقبّلا في دائرة المجتمع[1].

وكان الخبر الأدبيّ قد شهد مع البونسي وسائر الأخباريّين في الأندلس تحوّلات جذريّة خبرا وخطابا منحته ثراء لغويّا وتنوّعا أسلوبيّا، فأصبح منفتحا أكثر من ذي قبل على الحجاج اللّسانيّ، ففيم تتمثّل المقولات النّاهضة بهذا النّوع من الحجاج؟ وما هي تجلّياتها في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ؟ وكيف تشتغل حجاجيّا في نصّ أدبيّ تخييليّ؟

ستكون الإجابة على هذه الأسئلة وما هو منها بحبل متين من أوكد مقاصدنا في الفصل الموالي من هذا العمل.

[1] Pierre Bance, *Pragmarique et littérature*, in Logique Argumentation Conversation, Actes du Colloque de Pragmatique, Fribourg, 19981, Editions Peter Lang SA, Berne, 1983, p.165.

الفصل الخامس

الخبر الأدبيّ حجاجا لسانيّا

وصلنا في الفصل السّابق إلى أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس فعل قوليّ كبير يشتمل على البنيات الأساسيّة في الحجاج التّداوليّ من خلال الأعمال اللّغويّة المتضمّنة في القول والأفعال الإنجازيّة. ولكن الخبر الأدبيّ قبل أن يكون فعلا قوليّا كبيرا إنّما هو مصنوع من مادّة لغويّة، وفي اللّغة أساليب مختلفة وبنيات متعدّدة صوتيّة ومعجميّة وتركيبيّة ودلاليّة لها أن تنهض بالمقاصد الحجاجيّة وتخاطب وجدان المتقبّل وعقله وتحفّزه على الفعل، ممّا يجعله خطابا آخذا بطرف من الحجاج اللّغويّ، وإليك بيان ذلك.

I ـ منطلقات الحجاج اللسانيّ

عمل أوزوالد ديكرو (Oswald Ducrot) على وضع أسس نظريّة الحجاج اللّغوي أو اللّسانيّ منذ سنة 1973، ثمّ استوت هذه النّظريّة بإصدار كتابه «الحجاج في اللّغة» (*L'argumentation dans la langue*) سنة 1983 بالاشتراك مع جون كلود أونسكمبر (Jean-ClaudeAnscombre). وانطلق الباحثان من تعريف الحجاج بأنّه توجيه المتقبّل بواسطة الملفوظات نحو نوع معيّن من النّتائج[1].

وأكّد الباحثان فكرة التّلازم بين الحجاج والبنيات اللّغويّة، أي إنّ العوامل الحجاجيّة موجودة في بنية اللّغة ذاتها، فأصبحت القيمة الحجاجيّة متقدّمة على القيمة الإبلاغيّة في دلالة الجملة الواحدة وأصبح المعنى الحجاجيّ هو المتحكّم في كيفيّة اشتغال الأقوال داخل الخطاب، فإذا نظرنا إلى اللّغة «بمعزل عن مستعمليها بدت لنا في جوهرها بمثابة مجال منازعات ومواجهات بين الذّوات»[2]. فموضوع الحجاج في اللّغة «هو بيان ما يتضمّنه القول من قوّة حجاجيّة تمثّل مكوّنا أساسيّا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلّم في اللّحظة التي يتكلّم فيها يوجّه قوله وجهة حجاجيّة مّا»[3].

---

[1] Jean-Claude Anscombre et O. Ducrot,*L'argumentation dans la langue*, op. cit. p. 30.

[2] Oswald Ducrot, *le dire et le dit*, op.cit. p.31 .

[3] شكري المبخوت، نظريّة الحجاج في اللّغة، ضمن كتاب أهم نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود،منشورات كلّيّة الآداب بمنوبة، 1998، ص 352.

ويرى الباحثان أنّ الحجاج «إنجاز لعملين هما عمل التّصريح بالحجّة من ناحية وعمل الاستنتاج من ناحية أخرى سواء كانت النّتيجة صريحة أو مضمرة»[1].

فالمتكلّم يتلفّظ بقول أوّل أو مجموعة أقوال ويرمز إليه بـ ق1 ويتلوه بقول ثان أو مجموعة أقوال يرمز إليه بـ ق2، ويتنزّل الـ ق1 منزلة الحجّة والـ ق2 بمثابة النّتيجة، ويسمّى الحرص على جعل السّامع يقبل بالقول الثّاني على أنّه نتيجة للقول الأوّل عمل محاجّة. ويمكن للنّتيجة أن تكون صريحة أو مهمتة[2]. ومثال ذلك: أنت أندلسيّ مهمّش لتبرهن على عظمتك[3].

يتكوّن هذا الملفوظ من ق1 وهو «أنت أندلسيّ مهمّش» وق2 وهو «لتبرهن على عظمتك». ومثّل الـ ق1 حجّة ودليلا على أنّ المخاطَب في حاجة إلى تجاوز تهميشه لذلك مثّل الـ ق2 نتيجة له، وهي نتيجة مصرّح بها.

ويُشترط في النّتيجة متى وردت ضمنيّة أن تكون قريبة المأخذ تسهل على المتلقّي معرفتها، كما في الحوار التّالي:

ق1: زر قرطبة.

ق2: شكرا لقد زرتها.

فـالحجّة في هذا الحوار هي الـ ق1 وأمّا النّتيجة فقد وردت مضمّنة في الـ ق2 الذي يُعتبر دليلا موصلا إليها وهي: «لا» أو «لن أزورها».

يتحوّل الخطاب بهذا التّصوّر إلى سلسلة من المتتاليات أو الأقوال تشتغل حجاجيّا حيث تكون واحدة حجّة والأخرى نتيجة لها يرتبطان ببعضهما بواسطة علاقة حجاجيّة. ويشترط الباحثان أن يكون الحجاج في هذه المتتاليات متأتّيا من بنية الأقوال اللّغويّة وليس متأتّيا من محتواها الإخباريّ، فـ«من أجل أن يكون ق1 حجّة تفضي إلى ق2 لا يكفي أن يكون في ق1 من الحجج في مستوى المضمون ما يفضي إلى التّسليم بـ ق2. فينبغي أن تشتمل البنية اللّغويّة في ق1 على بعض الشّروط التي من شأنها أن تسند ق1 لكي يمثّل في خطاب مّا حجّة تفضي إلى ق2»[4].

---

[1] Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, *L'argumentation dans la langue*, op. cit. p. 8.

[2] *Ibid*, p. 11.

[3] استعمل أنسكمبر وديكرو المثال التّالي: ق 1: أنت مرهق. ق2: عليك أن تخلد إلى الرّاحة. وقد آثرنا استبداله بمثال يستجيب لموضوع البحث.

[4] Jean-Claude Anscombre et Oswald Ducrot, *L'argumentation dans la langue*, op. cit. p. 81.

فالحجاج وفق هذا التّصوّر ليس عنصرا خارجا عن اللّغة أو وليد عوامل غير لسانيّة وإنّما هو كما النّسغ يجري في بنى اللّغة القاعديّة، ذلك أنّ «القيمة الإخباريّة لكلّ ملفوظ لا تكمن في حمولته الإخباريّة إذ يمكن أن تشتمل الجملة على مورفيمات وتعابير وصيغ تصلح إلى جانب محتواها الإخباريّ لإعطاء توجيه حجاجيّ للقول، وتوجيه المتلقّي في هذا الاتّجاه أو ذاك»[1].

وتتميّز الحجّة اللّغويّة عند ديكرو بمجموعة من الخصائص والسّمات، فهي ليست مجرّد قول من الأقوال وإنّما قد تتّسع وتتمطّط لترد في شكل مقطع أو نصّ أو حتّى مشهد غير لسانيّ، وهي «عبارة عن عنصر دلاليّ يقدّمه المتكلّم لصالح عنصر دلاليّ آخر»[2].

وإلى جانب ورود الحجّة ظاهرة في قول من الأقوال يمكن للمتكلّم أن يحذفها مثلما له أن يحذف نتيجتها، فتكون مضمرة وتستفاد من السّياق كما في قولك: سأزور غرناطة.

فهذا القول نتيجة صريحة لحجّة مضمرة تقدّر سياقيّا بالقول التّالي: أنا مشتاق إلى غرناطة. ومن هنا يصبح السّياق الفيصل في التّمييز بين الحجج والنّتائج أو تصنيف الأقوال إلى حجج ونتائج أو غير ذلك ويعطيها بعدها الحجاجيّ.

وقد تأسّس الحجاج اللّغويّ عند ديكرو وأونسكمبر على مجموعة من المفاهيم والنّظريّات الفرعيّة والتّقنيات الإجرائيّة. سنسعى إلى اختبارها من خلال تطبيقها على خبر أدبيّ مصنّع في الأندلس.

II ـ الخبر الأدبيّ الأندلسيّ حجاجا لسانيّا

أورد ابن حزم الخبر التّالي: «حكايةلم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابرة، أنّ رجلا أندلسيّاً باع جارية، كان يجد بها وجدا شديدا،لفاقة أصابته، إلى رجل من أهل ذلك البلد (بلد البرابرة)، ولم يظنّ بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التّتبّع.

فلمّا حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسيّ تخرج. فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكّمه في ماله أجمع وفي نفسه، فأبى عليه، فتحمّل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد. فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدّى إلى الملك فتعرّض له وصاح، فسمعه

[1] Oswald Ducrot,*Les échelles argumentatives*, Editions de Minuit, Paris, 1989, p. 15.

[2] أبو بكر العزّاوي، الحجاج في اللّغة، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته، الجزء الأوّل، الحجاج: حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010. ص 58.

فأمر بإدخاله، والملك قاعد في عليّة له مشرفة عالية فوصل إليه. فلمّا مثل بين يديه أخبره بقصّته واسترحمه وتضرّع إليه، فرقّ له الملك فأمر بإحضار الرّجل المبتاع فحضر.

فقال له: هذا رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك. فأبى المبتاع وقال: أنا أشدّ حبّا لها منه وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غدا وأنا في أسوأ من حالته. فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم، فأبى ولجّ واعتذر بمحبّته لها، فلمّا طال المجلس ولم يروا منه البتّة جنوحا إلى الإسعاف قال للأندلسيّ: يا هذا مالك بيدي أكثر مما ترى، وقد جهدت لك بأبلغ سعي، وهو تراه يعتذر بأنّه فيها أحبّ منك وأنّه يخشى على نفسه شرّا ممّا أنت فيه، فاصبر لما قضى الله عليك. فقالله الأندلسيّ: فمالي بيدك حيلة؟ قال له: وهل ها هنا غير الرّغبة والبذل، ماأستطيع لك أكثر.

فلما يئس الأندلسيّ منها جمع يديه ورجليه وانصبّ من أعلى العليّة إلى الأرض. فارتاع الملك وصرخ،فابتدر الغلمان من أسفل، فقضى أنّه لم يتأذّ في ذلك الوقوع كبير أذى، فصعد به إلى الملك، فقال: ماذا أردت بهذا؟ فقال: أيّها الملك، لا سبيل لي إلى الحياة بعدها ثمّ همّ أن يرمي نفسه ثانية، فمنع. فقال الملك: الله أكبر، قد ظهر وجه الحكم في هذه المسألة، ثمّ التفت إلى المشتري فقال: يا هذا، إنّك ذكرت أنّك أودّ لها منه وتخاف أن تصير في مثل حاله، فقال: نعم. قال: فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أنّ الله عزّ وجلّ وقاه، فأنت قم فصحّح حبّك وترام من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك، فإن متّ فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية، إذ هي في يدك ويمضي صاحبك عنك، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها إليه، فتمنّع ثمّ قال، أترامى. فلمّا قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقري، فقال له الملك: هو والله ما قلت، فهمّ ثمّ نكل،فلمّا لم يقدم قال له الملك: لا تتلاعب بنا، يا غلمان، خذوا بيديه وأرموا به إلى الأرض فلمّا رأى العزيمة قال: أيّها الملك، قد طابت نفسي بالجارية. فقال له: جزاك الله خيراً. فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها، وانصرفا[1].

يمثّل هذا الخبر من وجهة نظر بنيويّة وتخييليّة وحدة سرديّة قوامها حدث مركزيّ واحد هو سعي الرّجل الأندلسيّ إلى استرجاع جاريته، وينمو هذا الحدث المركزيّ ويتطوّر وفق مجموعة من الأفعال تمثّل اللّحظات الحاسمة والمفصليّة في بنائه. ويمثّل هذا الخبر من وجهة نظر حجاجيّة وتداوليّة عملا قوليّا كبيرا.

---

[1] ابن حزم، طوق الحمامة، ص ص 165 ــ 166.

ويتنزّل هذا العمل القوليّ الكبير في سياق تخاطبيّ يحدّد القسم الوارد في صدر الخبر باعتباره سندا عناصره المقاميّة «حكاية لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابرة». يسعفنا السّند بعنصرين من عناصر هذا المقام وهما طرفا التّخاطب: الرّاويّ الأوّليّ الذي كشف عن نفسه في قوله «لم أزل أسمعها» وهو في الحقيقة ابن حزم نفسه، وسينقل لنا كلام الطّرف الثّاني في الحوار وهو راوي الحكاية. والملاحظ أنّ هذا السّياق التّخاطبيّ ورد غائما مبتورا منقوصا من عدّة عناصر مقاميّة من شأنها أن تمدّ القارئ بمفاتيح تمكّنه من تأويل ملفوظ كلّ شخصيّة.

والوجه في تبريرنا لهذا البتر والنّقص يتّصل بالمقتضى الدّلاليّ في واسم «لم أزل أسمعها»، إذ يحيل إلى أنّ الرّاوي الأوّليّ قد سمع هذه الحكاية عدّة مرّات وفي سياقات تفاعليّة مختلفة، فالتبس عليه الأمر أثناء ترهينها في هذا الكتاب ولم يجرؤ على تقديم سياق على آخر، فتوسّل بسياق يغلب عليه التّعميم والإطلاق ويقتصر على المرتكزات المقاميّة الأساسيّة التي تتواتر في كلّ سياق تخاطبيّ. ويصبح هذا السّياق الغائم المبتور مناسبا لجميع السّياقات التي تحمّل فيها ابن حزم الحكاية من راويها.

يمتدّ ملفوظ راوي الحكاية الموجّه إلى الرّاوي الأوّلي / ابن حزم من بداية كلامه «إنّ رجلا» إلى نهايته «فحضر». وهو معنيّ أساسا في روايته بشدّ سمع الرّاوي الأوّليّ / ابن حزم وذلك لسببين تداوليّين على الأقلّ، يتّصل أوّلهما بالبرهنة على قدرته على الرّواية وأنّه أهل ليكون جليس رجل في قامة ابن حزم علما وأدبا، وحتّى لا يُنسب إلى الثّقل والعياء والحمق. فعلى راوي الحكاية أن يجبر ابن حزم على الإنصات، و يثير انبهاره بقدرته على الحكي، ويجعله في حالة افتقاد لما سيأتي على حدّ عبارة بلنجر.

ويتّصل ثانيهما بالعمل على استمالة ابن حزم أو إقناعه بما يرمي إليه من وراء رواية الحكاية، فقد يكون متعاطفا مع إحدى شخصيّاتها وقد يكون واجدا على أخرى، ومن المقتضيات التّداوليّة أن يحرص المتكلّم[1] أو المنشئ على حدّ عبارة محمّد العمري[2] على دفع السّامع إلى مشاركته انفعالاته أو قناعاته.

---

[1] المتكلّم عند ديكرو هو تخييل خطابيّ يُنسب إليه الملفوظ، وهو يختلف عن الذّات المتكلّمة التي هي الكائن التّاريخيّ. وأمّا المتلفّظ فهو العون الذي يعبّر التّلفّظ عن وجهة نظره. وهذا التّمييز واجهه نقد شديد لأنّه يفصل من جديد بين اللّسانيات والتّلفّظ. يُنظر تفصيل ذلك: Oswald Ducrot, *Le dire et le dit*,op.cit. pp. 171-299.

[2] اقترح محمّد العمري في إطار إرساء منظومة مصطلحيّة تعبّر عن المشترك بين التّخييل والتّداول وتدلّ على الخصوصيّة النّوعيّة لكلّ منهما ومدى التّداخل والتّخارج بينهما، مجموعة من المصطلحات أبرزها المنشئ باعتباره منتج الخطاب، وكذلك الصّورة والحجّة والاستهواء والمستمع. يُنظر: محمّد العمري، الحجاج مبحث بلاغيّ: فما البلاغة، صص 25–26.

وليس أمام راوي الحكاية لينجح في مسعاه غير الخطاب، فعليه أن يراعي عوامل انسجام خطابه واتّساقه، وأن يتحرّى أساليب الرّبط بين ملفوظاته بطريقة تضمن له التّأثير في سامعه أو إقناعه وتوجيهه إلى الوجهة التي رسمها له.

عمد راوي الحكاية أوّلا إلى تنضيد أقواله وجعلها آخذة بعضها برقاب بعض في سلسلة من المتتاليات ارتبطت ارتباطا منطقيّا وفق مقولتيْ عمل المحاجّة وعمل النّتيجة، وتوسّل ثانيا بأساليب الحجاج اللّغوي لإحكام الرّبط بين الملفوظات وتوجيهها الوجهة التي يتقصّدها، ونتبيّن ذلك من خلال التّرسيمة التّالية:

الحجّة (القول ١)	النّتيجة (القول ٢)
إنّ رجلا أندلسيّا باع جارية، كان يجد بها وجدا شديدا،لفاقة أصابته، إلى رجل من أهل ذلك البلد	ولم يظنّ بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التّتبّع.
فلمّا حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسيّ تخرج.	فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكّمه في ماله أجمع وفي نفسه،
فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه	فأبى عليه،
فتحمّل عليه بأهل البلد	فلم يسعف منهم أحد.
فلم يسعف منهم أحد.	فكاد عقله أن يذهب
ورأى أن يتصدّى إلى الملك	فتعرّض له وصاح،
فتعرّض له وصاح،	فسمعه
فسمعه	فأمر بإدخاله، والملك قاعد في عليّة له مشرفة عالية
فأمر بإدخاله، والملك قاعد في عليّة له مشرفة عالية	فوصل إليه.
فلمّا مثل بين يديه أخبره بقصّته واسترحمه وتضرع إليه	فرقّ له الملك
فرّق له الملك	فأمر بإحضار الرّجل المبتاع
فأمر بإحضار الرّجل المبتاع	فحضر

يمثّل القول الأوّل في ملفوظ راوي الحكاية الحجّة الأولى، وهي موجّهة أساسا إلى الرّاوي الأوّليّ / ابن زيدون ليهيّئه لتقبّل النتيجة المترتّبة عنها، ويفيد محتواها القضوي بيع رجل أندلسيّ لجاريته. لكنّ هذا المعطى القضوي يُبقي التّأويل وسيعا في ذهن السّامع، وتنفتح أمامه مسالك عدّة: لم باع الرّجل جاريته؟ ومن اشتراها؟ وأين بيعت؟ ومتى؟ وما مقدار ثمنها؟ وما منزلتها من البائع؟

وقد كان راوي الحكاية مدركا لهذا المقتضى التّداوليّ فجنّد حزمة من الرّوابط اللّغويّة[1] لسدّ ما أمكن من المسالك التّأويليّة في ذهن السامع.

جاء راوي الحكاية أوّلا بالنّاسخ الحرفيّ «إنّ» باعتباره عاملا حجاجيّا[2] وحوّر دلالة

---

[1] يستعمل المتكلّم عدّة روابط لغويّة للرّبط بين الملفوظات والأقوال، وهي تنهض بوظيفتين نحويّة وحجاجيّة، فإذا نظرنا إليها من جهة وظيفتها النّحويةفهي «صّرافم»، ومتى نظرنا إليها من جهة وظيفتها الحجاجيّة فهي «روابط حجاجيّة» (connecteurs argumentatifs).

وتختصّ هذه الرّوابط اللّغويّة بالرّبط بين الجمل، فتهيمن عليها نحويّا وظيفة الاستئناف، وتشمل حروف الاستئناف والظّروف وعديد الصّيغ التّعبيريّة.

ولكنّ هذه الرّوابط اللّغويّة سرعان ما تخلع عنها رداء الاستئناف والرّبط وتلبس لبوس الحجاج فتنزع عن الملفوظ وظيفته الإخباريّة الإبلاغيّة وتكسبه وظائف حجاجيّة لتخدم نتائج معيّنة دون أخرى. وتوجّه الملفوظ إلى نتيجة واحدة ضيّقة محدّدة يسعى المتكلّم إلى إيصالها إلى المتقبّل، فيلغي جميع الاحتمالات القائمة في ذهنه، ويسدّ عليه ما يسمّى في العمليّة الحجاجيّة بـ«المسالك التّأويليّة». ولنستدلّ على ذلك بالمثال التّالي لنتبيّن كيفيّة المرور بالملفوظات والأقوال من الوظيفة الإبلاغيّة إلى الوظيفة الحجاجيّة عن طريق هذه الرّوابط اللّغويّة:عاد زيد في اللّيل فأخلد إلى النّوم: أخبرنا المتكلّم في الجملة الأولى «عاد زيد في اللّيل» بعودة زيد ليلا. ولكنّ المتقبّل ينتظر نتيجة هذه العودة فتنفتح أمامه عدّة مسالك تأويليّة من قبيل: تناول عشاءه / سامر أسرته / طالع رواية / أعاد ترتيب غرفته... ولكي يقطع المتكلّم سبيل المسالك التّأويليّة على المتقبّل استأنف كلامه واستعمل أداة الرّبط الفاء ليربط نحويّا بين جملتين ويوجّه حجاجيّا الملفوظ نحو نتيجة واحدة محدّدة هي: خلود زيد إلى النّوم. ويعود الفضل في الوصول بالملفوظ إلى هذه النّتيجة إلى أداة الرّبط «فـ». ومن هنا اكتسب الملفوظ نزعته الحجاجيّة. فالروابط اللغويّة موطن من مواطن القيمة الحجاجيّة في الملفوظات.

[2] العوامل الحجاجيّة (opérateurs argumentatifs) هي تلك الأدوات التي تدخل على النّواة الإسناديّة،ونذكر منها:أدوات النّفي (لم/ لن/ ما/ لمّا..) وأدوات التّأكيد (إنّ/ لـ...) وأدوات القصر («إنّما» وضمير الفصل «هو» و«أل الموصولة»، من قبيل قولك: إنّما زيد ذكي / زيد هو الذّكيّ / زيد الذّكي). وكذلك تركيب الحصر القائم على صرفمين: ما / ليس / إن .... إلّا، من قبيل قولك: ما أنت إلّا مبدع.

تقيّد العوامل الحجاجيّة الإمكانات الحجاجيّة لأيّ قول وتدقّق الوجهة الحجاجيّة إن لم نقل تحصرها في إمكانيّة واحدة و«توجّه الملفوظ وجهة تجعل المتقبّل في اتّجاه معيّن»(2)، فتتقيّد بذلك المسالك التّأويليّة. فالعوامل الحجاجيّة لا تقلّص إمكانات الحجاج في الجملة وإنّما تقلّص المسالك التّأويليّة التي تصل الحجّة بالنّتيجة. ويرى ديكرو أنّ العوامل الحجاجيّة هي بمثابة الآثار الصّريحة الدّالّة على الخصائص الحجاجيّة المسجّلة في بنية اللّسان، وقد حصر وظيفتها في تحديد وجهة الجملة الحجاجيّة.وتشتغل هذه العوامل حجاجيّا بطريقة مغايرة عن الرّوابط الحجاجيّة لأنّها لا تمنح المتقبّل فرصة التّأويل وإنّما تعطيه النّتيجة مندمجة في الملفوظ وماثلة في بنية اللّغة القاعديّة فهي تضاعف قوّة الجملة الحجاجيّة مقارنة بمحتواها الخبريّ، ومثال ذلك: ذهبت إلى غرناطة لدراسة الآثار.

لو وقف المتكلّم عند القول التّالي: ذهبت إلى غرناطة. لانفتحت مسالك تأويليّة شتّى في ذهن المتقبّل من قبيل: للعلاج / للعمل / لزيارة قريب / لعيادة مريض / لحضور وليمة / للمشاركة في مؤتمر / لاستخراج وثائق إداريّة / للتّقاضي... ولكنّ المتكلّم حرص على سدّ جميع المسالك التّأويليّة على المتقبّل، فاستعمل الأداة «لـ» كي يصل بها بين الجزء الرّئيسيّ من الملفوظ والجزء المتمّم له، ويوجّه الملفوظ نحو نتيجة واحدة محدّدة هي: «الذّهاب لدراسة الآثار».وتصنّف العوامل الحجاجيّة عدّة أصناف. يُنظر:

Oswald Ducrot,*Les échelles argumentatives*, op. cit. p. 15.

عمله اللّغويّ من تأكيد نسبة الخبر إلى المبتدأ على سبيل الوصف الإخباريّ[1] إلى تأكيد نسبة الصّفة «أندلسيّ»إلى الموصوف «رجل» على سبيل الوصف الحجاجيّ[2]، فقصر ملفوظه على نتيجة واحدة محدّدة هي أنّ الرّجل المتحدّث عنه أندلسيّ وليس من بلد آخر.

ويستفاد من المقتضى الدّلاليّ لتأكيد نسبة الصّفة إلى الموصوف حرص راوي الحكاية على تحفيز السّامع / ابن حزم على الإنصات والتّهيّؤ للتّفاعل مع محنة الرّجل الأندلسيّ لعلمه أنّ سامعه ينتسب إلى بلد ذات الرّجل، ومن المقتضيات التّداوليّة أنّ السّامع يتعاطف مع ابن بلده كلّما مسّه ضرّ.

وهكذا شغّل راوي الحكاية النّاسخ الحرفيّ «إنّ» وجعله عاملا حجاجيّا يقلّص من غموض اللّغة وتعدّد النّتائج ويغلق أمام السّامع / ابن حزم جميع الاستلزامات أو الاسترسالات الممكنة، ثمّ يوجّهه قصرا نحو نتيجة واحدة مضبوطة.

ثم يدرج مكوّنا لغويّا لا تعدو أن تكون وظيفته الوصف الإخباريّ «كان يجد بها وجدا شديدا» ولكنّه عدل به إلى الوصف الحجاجيّ وأقصى بواسطته استرسالا حول منزلة الجارية من الرّجل فإذا هي محظيته، ويستفاد من المقتضى الدّلاليّ المضمر في الملفوظ استحالة صبر الرّجل الأندلسيّ على فراقها.

وأخرج راوي الحكاية لام التّعليل في «لفاقة أصابته» من مجرّد ربط النّواة الإسناديّة بالمفعول لأجله المبين لسبب وقوع الفعل إلى الرّبط الحجاجيّ بين الجزء الرّئيسيّ من الملفوظ والجزء المتمّم له، فهو ربط تبرير تلفّظيّ[3]، يقدّم الحجّة الدّاعمة للدّعوى، فوجّهت[4] الملفوظ نحو نتيجة واحدة محدّدة هي أنّ الفاقة سبب بيع الجارية، والمعنى

[1] لكي نصف عبارة أو عنصرا أو صيغة يجب حسب ديكرو أن نبيّن مظاهر الإكراهات الحجاجيّة المفروضة على الملفوظ. يُنظر:

p. 149. Oswald Ducrot, *le dire et le dit*, op. cit.

[2] إنّ القول بأنّ للملفوظ الواصف وظيفة إثبات يعني أنّه وصف لحالة واقعة لا تخلو من بعد تقويميّ تقديريّ، وهنا وجب التّمييز بين المظهر التّقويميّ في الملفوظات الواصفة والمظهر التّصويريّ للوصول إلى وجه الحجاج فيها. يُنظر:

Jacques Moeschler, *Argumentation et conversation: éléments pour une analyse pragmatique du discours*, op. cit. pp. 49-50.

[3] Jacques Moeschler, *Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle*, Armond Colin, Paris, 1996, p. 215.

[4] من أبرز مفاهيم الحجاج اللسانيّ مفهوم التّوجيه (L'orientation)، ويتمثّل في الوجهة التي يمنحها الملفوظ للملفوظ الذي يليه، وهو المرحلة الفاصلة بين الحجّة والنّتيجة. ويكون التّوجيه على مستويين اثنين: أوّلهما مستوى السّامع وذلك بالتأثير فيه، أو مواساته أو إقناعه أو جعله يأتي عملا مّا أو إزعاجه أو إحراجه وغيرذلك، وثانيهما مستوى الخطاب ذلك أنّ الـ ق1 الذي هو بمنزلة الحجّة يؤدّي ضرورة إلى الـ ق2 باعتباره نتيجة لها. فالحاجة من أجل الحصول على النّتيجة (ن) بواسطة(أ) إنمّا هي في نظرنا ضرب من تقديم (أ)على أنها ينبغي أن تؤدّي بالمتلقّي إلى استنتاج(ن) وجعل (أ) تعلّة لاعتقاد(ن). يُنظر:

Oswald Ducrot, *Les échelles argumentatives*, op.cit. p. 44.

المهمت في هذا الرّبط تنوّع وجوه محنة الرّجل الأندلسيّ، فهو لم يقو على تحمّل الفقر والخصاصة ماضيا وأصبح الآن ولها لا يقوى على تحمّل فراق محظيته، وكأنّ قدره أن ينتقل من محنة إلى أخرى محنة المال ثمّ محنة الغرام ،وتصبح حياته أشأم من يوم نحس مستمرّ.

وأمّا حرف الجرّ «إلى» فقد جيء به لبيان الجهة الجديدة التي انتمت إليها الجارية بعد مفارقتها مالكها الأندلسيّ إذ هي قد أصبحت ملك يمين رجل بربريّ من البلد الذي كانت فيه مع صاحبها الأندلسيّ. والمقتضى الدّلالي المضمر في الملفوظ «إلى رجل من أهل ذلك البلد» إنّما هو ضيق حيلة الرّجل الأندلسيّ وعجزه عن تدبير شؤونه بسبب غربته، فلو كان في وطنه لما بلغت به الفاقة درجة التّفريط في محظيّته.

ويدعم راوي الحكاية هذا المعنى فيوظّف مؤشّرا لغويّا من المعيّنات التي ساعدت في تحديد مكان الأحداث «ذلك»، والمعنى المهمت أو المضمر[1] هو أنّ الرّجل غريب في بلاد أخرى ولم يجد سندا ولا نصيرا ممّا أحوجه إلى أهون الشّرّين إمّا الهلاك فقرا وإمّا التّلف فرقا. ومن شأن هذه الاستراتيجية في الحكي أن تثير السّامع / ابن حزم وتحرّك نوازعه العصبيّة لا سيّما أنّه كان يعاني مرارة تعصّب أهل الشّرق لأفقهم وتهميشهم لسائر الآفاق الأخرى بما فيها الأندلس. فراوي الحكاية وهو يتكلّم يوجّه قوله وجهة حجاجيّة معيّنة هي إثارة نوازع ابن حزم وتفاعله مع محنة الرّجل المتحدّث عنه، وهذا من صميم الحجاج اللّغويّ.

وتتواصل الأقوال على لسان راوي الحكاية مترابطة ترابطا منطقيّا يحقّق وجهتها الحجاجيّة، حيث يمثّل القول الأوّل حجّة تفضي إلى القول الثّاني باعتباره نتيجة، ونشير إلى خاصّيتين ميّزت تسلسل الأقوال كما بيّناها في التّرسيمة.

تتّصل الخاصّيّة الأولى بنهوض بعض الأقوال بوظيفة مزدوجة، فترد أوّلا نتيجة لحجّة سابقة لها. فالقول «فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكّمه في ماله أجمع وفي نفسه»، نتيجة حتميّة لحجّة سابقة هي «فلمّا حصلت عند المشتري كادت نفس الأندلسيّ تخرج». ذلك أنّ السّامع ينتظر ردّة فعل الأندلسيّ عندما يرى عيانا مفارقة الجارية وتحوّز البربري عليها وضمّها إلى ملكه.

---

[1] نعني بالمعنى المهمت دلاليّا أو المضمر هو إمكان مواصلة الكلام بالأداة «إذن». يُنظر:
.Oswald Ducrot, *le dire et le dit*, op. cit.p.46

ثمّ ينخرط في مرحلة ثانية القول ذاته «فأتى إلى الذي ابتاعها منه وحكمه في ماله أجمع وفي نفسه» في علاقة حجاجيّة مع القول الذي يليه «فأبى عليه» حيث يتحوّل إلى حجّة تؤدّي حتما إلى نتيجة، ذلك أنّ السّامع / ابن حزم ينتظر في أقوال راوي الحكاية موقف الرّجل البربريّ من اقتراح الرّجل الأندلسيّ الذي اقترح عليه أن يفعل به وبماله ما يشاء مقابل التّنازل عن الجارية.

وتدعّم هذا التّرابط بين الأقوال بأداة الرّبط «الفاء»، وتفيد من جهة بنية اللّغة القاعديّة الاستئناف والرّبط بين الجمل ربطا يفيد معنى الجمع مع ترتيب السّبب والنّتيجة، ولكنّها اشتغلت حجاجيّا فجعلت القول الأوّل حجّة تقتضي وجوبا نتيجة[1]، وهي تلك الماثلة في القول الثّاني.

ويتوارى في هذا المستوى من الخبر السّياق المتخفّي راوي الحكاية / ابن حزم الرّاوي الأوّلي ويبرز سياق تخاطبيّ آخر تتكوّن عناصره المقاميّة من الملك والرّجل الأندلسيّ والرّجل المبتاع والجارية ومن حضر من حاشية الملك وجنده وخدمه وغلمانه. ونشير هنا إلى أنّ السّياق المتخفّي لن يختفي نهائيّا وإنّما سيعود إلى السّطح بين الفينة والأخرى ليعطي راوي الحكاية لنفسه فرصة التّعليق على الأقوال أو نقل الأعمال أو وصف الأحوال ومن خلالها توجيه ملفوظاته الوجهة التي يريد إيصال السّامع / ابن حزم إليها.

[1] إنّ التّلازم في العمليّة الحجاجيّة بين قول الحجّة والنّتيجة يمثّل منطلق نظريّة السّلالم الحجاجيّة. فالحجّة لن تكتسب حجّيّتها إلّا متى أفضت إلى نتيجة قد تكون صريحة أو مضمرة، ومن أبرز المفاهيم التي تقوم عليها نظريّة السّلالم الحجاجيّة نذكر:

* القسم الحجاجيّ: عندما يخدم قولان متتاليان أو أكثر نتيجة واحدة فإنّهما ينتميان إلى قسم حجاجيّ واحد.

* القوّة الحجاجيّة: إنّ الحجج التي تنتمي إلى قسم حجاجيّ واحد تنتظمها علاقة ترتيب حسب القوّة أو الضّعف على أن تكون الحجّة الأضعف تستلزم النّتيجة نفسها المستخلصة من الحجّة الأقوى ولا يصحّ العكس. وضعف الحجّة أو قوّتها ليس له علاقة بمحتواها الخبريّ ونسبة صدقها من كذبها أو مدى مطابقتها للواقع الموضوعيّ وإنّما يرتدّ إلى درجة نجاعتها في خدمة النّتيجة ومدى تأثيرها في المتقبّل باعتبارها تندرج ضمن قسم حجاجيّ يقوم على التّدرّج والتّوجّه نحو النّتيجة.

* السّلّم الحجاجيّ: تنتمي الحجج إلى سلّم حجاجيّ عندما تنتظم في علاقة قوّة أو ضعف داخل قسم حجاجيّ معيّن، ويكون السلّم الحجاجيّ قسما حجاجيّا موجّها، ونستدلّ على ذلك بالمثال التّالي:

ق 1 = عفا المعتمد عن محظيّته / ق 2 = عفا المعتمد عن قائده / ق 3 = عفا المعتمد عن عدوّه

ن = المعتمد حليم.

تتضمّن هذه الأقوال حججا تنتمي إلى القسم الحجاجيّ نفسه، كما تنتمي كذلك إلى السّلّم الحجاجيّ نفسه، وتؤدّي إلى نتيجة واحدة هي الحلم. ولكنّ القول الأخير هو الذي سيرد في أعلى درجات السّلّم الحجاجيّ، فعفو المعتمد عن عدوّه هو الدّليل الأقوى على حلمه. ويمكن أن نمثّل لهذا السّلّم كما يلي:

ن= المعتمد حليم.

ق 3 = عفا المعتمد عن عدوّه / ق 2 = عفا المعتمد عن قائده / ق 1 = عفا المعتمد عن محظيّته

يُنظر:

Oswald Ducrot, *Les échelles argumentatives*, op. cit. pp.18-27.

والمقام في هذا السّياق مقام التماس ومداراة، فالملك ليس بوسعه أن يُلبّي حاجة الرّجل الأندلسيّ بإجبار الرّجل المبتاع على التّراجع، إذ من المقتضيات التّداوليّة المتّصلة بالمعاملات التّجاريّة أنّ عقد البيع يعقبه تنفيذ ولا سبيل إلى نقضه إلّا برضى الطّرفين، لذلك فهو ملزم بالرّكون إلى الالتماس في حجاجه لصالح الرّجل المستجير به. وأمّا الرّجل المبتاع فيعلم سلفا أنّه في موقع الأعلى في علاقته بخصمه الرّجل الأندلسيّ، وأنّه بوسعه في علاقته بالملك تكسير المقتضى التّداوليّ القاضي بمداراة السّلطان والمرأة والمريض.

مثّل تدخّل الملك: «هذا رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليك» قولا واحدا يتنزّل في سياق الحجاج اللّسانيّ منزلة الحجّة، ولكنّ النّتيجة وردت مضمرة وتقديرها: «أكرمه بإرجاع الجارية إليه».

وتضمّن قول الملك مجموعة ملفوظات ارتبطت بواسطة أداة الرّبط «الواو»، ولكنّ الملك أفرغ هذه الأداة من معانيها اللّغويّة وملأها بمعنى حجاجيّ[1]، وجعلها وسيلته في توجيه ملفوظاته نحو نتيجة واحدة محدّدة.

وقبل أن يُخرج الملك «الواو» مخرجا حجاجيّا هيّأ لها في ذهن الرّجل المبتاع أسباب التّمكين والتّوجيه، فلم يذكر اسم الرّجل وإنّما عدل إلى الصّفة[2].

فساق الصفة المشبّهة «غريب»، وهي مشتقّ يدلّ على صفة الفاعل، فوصفُ الرّجل الأندلسيّ بأنّه غريب توجّه الخطاب وجهة حجاجيّة تتمثّل في استثارة مروءة الرّجل المبتاع وشهامته والعدول به من مقتضى تداوليّ ذي طابع اجتماعيّ قوامه التّعامل القانونيّ مع أبناء البلد إلى مقتضى تداوليّ آخر ذي طابع أخلاقيّ قوامه التّرفّق في التّعامل مع الغرباء.

ثمّ أدرج الواو الأولى ليدعم صفة الرّجل الأندلسيّ بحالته المتّسمة بالانكسار والتّفجّع، ويضيّق تدريجيّا من مسالك التّأويل في ذهن الرّجل المبتاع. وجاء بالواو الثّانية ليربط بينه وبين الرّجل الأندلسيّ برباط الشّفاعة، ويسدّ بذلك جميع مسالك التّأويل في

[1] لمعني الحروف عند أحمد كروم دور سياقيّ في تحديد المضمر وتقريب معناه الثّابت في مختلف أوجه التّخاطب سواء في النّفي أو الاستفهام أو الشّرط أو العطف أو غيرها.
يُنظر: أحمد كروم، الاستدلال في معاني الحروف: دراسة في اللّغة والأصول، ص 210.

[2] من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج اختيار النّعوت والصّفات، فالصّفات تنهض بدور حجاجيّ يتمثّل في كون الصّفة إذ تختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع.يُنظر: عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال «مصنّف في الحجاج، الخطابة الجديدة» لبرلمان وتيتيكاه،ضمن أهم نظريات الحجاج، 316.

ذهن الرّجل المبتاع. فوجّه الملفوظ ومن ورائه الرّجل المبتاع إلى نتيجة واحدة محدّدة تقديرها: أكرمه بإرجاع الجارية إليه. وقد آثر الملك السّكوت عنها لمقتضى تداوليّ يجعل المبادرة بتنفيذ العامّة مطالب ولي الأمر دون أن يذكرها مباشرة أدعى إلى الفطنة والمروءة والشّهامة ومراعاة المقامات، وأحفظ لماء وجه الطّالب لا سيّما متى كان ملكا.

فالواو إلى جانب ربطها بين الملفوظات لغويّا وتحقيقها مبدأيْ الاتّساق والانسجام في الوحدة اللّغويّة اشتغلت حجاجيّا وربطت بين صفة الرّجل الأندلسيّ وحالته ومنزلة الملك منه، وجعلت هذه الملفوظات حجّة ووجّهتها نحو نتيجة واحة.

وتضمّن تدخلّ الرّجل المبتاع ملفوظين، ورد الأوّل حجّة: «أنا أشدّ حبّا لها منه» وورد الثّاني نتيجة: «وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا في أسوأ من حالته».

إنّ الرّجل المبتاع يعلم جيّدا أنّه في شرك وليس بوسعه أن يردّ طلب الملك ردّا مباشرا فجّا قد يؤلّبه عليه ويثير غضبه وسخطه، ويعرّض في الوقت نفسه حياضه إلى الانتهاك ووجهه السّلبيّ إلى المساس. لذلك عليه أن يترفّق ويجهد في إقناع الملك برغبته في الاحتفاظ بالجارية، ولا سبيل له إلى ذلك غير ما تتيحه له اللّغة باعتبارها مجال منازعات ومواجهات بين الذّوات، من صيغ وأساليب حجاجيّة. وقد وجد فيها طلبته وبغيته، فجاء بالتّأكيد[1] في الجملة الاسميّة ثمّ صيغة تفضيل المقارنة لاستنقاص عشق الرّجل الأندلسيّ للجارية وإظهار نفسه مظهر المتيّم بها. فيتوجّه الملفوظ نحو نتيجة واحدة مهمتة، هي: لن أصرفها إليه.

ولمّا كان الرّجل المبتاع محاورا ماكرا فإنّه عدل عن التّصريح بنتيجة ملفوظه الأوّل وآثر الالتفاف في صياغته متوسّلا بما في اللّغة من طاقات حجاجيّة، فلم يعلن رفضه المطلق واختفى وراء أداة الافتراض «إن» ليوهم الملك أنّه لا يمانع من حيث المبدأ في

[1] تتغيّر الجملة من النّاحية الدّلاليّة كلّما تغيّرت أداة التّوكيد، وهذا ما ورد في «جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلًا إني أجد في كلام العرب حشوا، يقولون عبد الله قائم ثم يقولون إنّ عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم والمعنى واحد، وذلك أن قال: بل المعاني مختلفة فقولهم عبد اللهقائم إخبار عن قيامه وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه».
يُنظر: السّكاكي، مفتاح العلوم، ص ص 162 – 163.
ويعتبر عبد الله صولة التّوكيد من قبيل العدول الكمّيّ بالزّيادة داخل الجملة ويكون «بإنّ وبإنّ مع اللّام وبالقسم والقصر والنّعت والبدل والمفعول المطلق والعطف.
فالجملة الاسميّة المجرّدة من أدوات التّوكيد تقع في الدّرجة الصّفر من الدّلالة في حين تقع جملة «إنّ عبد الله قائم» في الدّرجة الأولى من السّلّم، وتقع جملة «إنّ عبد الله لقائم» و«إنّما عبد الله قائم» في الدّرجة الثّانية منه، أمّا جملة من قبيل: «والله إنّ عبد الله لقائم» أو والله ما عبد الله إلّا قائم» فيمكن أن نضعها في الدّرجة الثّالثة من السّلّم.
يُنظر: عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 1، ص ص 289 –290.

إرجاع الجارية إلى الرّجل الأندلسيّ. ومن شأن هذا الإيهام أن يقنع الملك بأنّ الرّجل المبتاع آخذ بأسباب شفاعته ومراع لمقامه.

ويواصل الرّجل المبتاع التفافه فيأتي بالعمل الرّئيسيّ الممكن الوقوع في المستقبل «أستغيث بك» والمفترض جرّاء الحالة المفترضة «صرفتها إليه» مستندا إلى معنى الفعل الأصليّ «أستغيث»، موظّفا حركته الحجاجيّة من خلال تقديمه على أفعال أخرى من قبيل «أستعين»، لأنّه يصوّر المستغيث على أنّه بلغ الحدود القصوى ما بين الموت والحياة وهو أدعى إلى تقديم العون والمساعدة.

ويدعم ذلك بتخصيص معنى الحال في الواو الواردة في «وأنا أسوأ من حالته»، إذ جعلها رابطا حجاجيّا ومحّضها للدّلالة على الفزع والفرق والتّوجّع. في تضافر بذلك الافتراض والمعجم وواو الحال في تصوير[1] حالة الرّجل المبتاع بعد التّفريط في الجارية،من أجل تدقيق النّتيجة والتّمكين لها في ذهن الملك ومن معه. ويُفهم من المقتضى الدّلاليّ في ملفوظ الرّجل أنّه يستثير عطف الملك ويتضرّع إليه كي لا يفرّق بينه وبين الجارية.

ويزداد مكر الرّجل المبتاع انكشافا بتسريبه في صياغة الحال اسم التّفضيل وتحويل المقارنة بين حالته وحالة الرّجل الأندلسيّ حجّة[2] لصالحه من شأنها أن تخفّف من ضغوطات الملك عليه وتدفعه إلى العدول عن مسعى الشّفاعة، والرّكون إلى العدل في الحكم، فيدرأ غضب الملك ويفوز بالجارية.

وتُحسب لملفوظات الرّجل المبتاع فعاليّتها الحجاجيّة حيث أدّى عمل التّصريح بالحجّة أوّلا وعمل الاستنتاج ثانيا إلى عدول الملك عن طلبه والكفّ عن إقناع الرّجل المبتاع بإرجاع الجارية، بل وانتزاعه من محور الرّجل الأندلسيّ وانضمامه إلى محور الرّجل المبتاع.

وفي هذا السّياق التّفاعليّ يندرج تدخّل الملك الموجّه إلى الرّجل الأندلسيّ، وقد تكوّن من قولين. مثّل القول الأوّل حجّة: «يا هذا مالك بيدي أكثر ممّا ترى، وقد جهدت

---

[1] ترى سامية الدّريدي أنّ الصّورة لا تكون ذات طاقة حجاجيّة إلاّ إذا استجابت لشروط أساسيّة هي خدمة مسار البرهنة وتثبيت الحجج بصورة صريحة وضمنيّة أي ملاءمتها لسياق الحجاج. يُنظر: سامية الدّريدي، الحجاج في هاشميّات الكميت، صص 268-269.

[2] اصطلح عبد الهادي بن ظافر الشّهري على هذه التّقنية بالحجاج بالتّبادل، ورأى أنّ الخطيب يحاول بهذه الآلية أن يصف الحلّ نفسه لوضعين في سياقين متقابلين وذلك ببلورة علاقات متشابهة بين السّياقات.يُنظر: عبد الهادي بن ظافر الشّهري، آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته، الجزء الأوّل، الحجاج: حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010، ص 87.

لك بأبلغ سعي، وهو تراه يعتذر بأنّه فيها أحبّ منك وأنّه يخشى على نفسه شرّا ممّا أنت فيه».

تكوّن هذا القول الأوّل من مجموعة من الملفوظات مثّلت مسلسلة حجاجيّة ارتبطت دلاليّا اعتمادا على مفهوم «التّأليف الحجاجيّ»[1]. وظفّ الملك في الملفوظ الأوّل النّداء ولكنّه أدرج اسم الإشارة «هذا» بدل اسم الرّجل الأندلسيّ أو صفته المذكورة في التّدخلّ الأوّل «رجل غريب». وفي تغييب الاسم[2] إعلان صريح بالعجز عن الاستجابة لطلبه وتقديم المساعدة له.

ثمّ توسّل بأساليب وأدوات لغويّة وجّه بها ملفوظاته نحو النّتيجة التي يروم إيصالها إلى الرّجل الأندلسيّ، ولن يتسنّى له ذلك إلّا بتشغيل هذه الأساليب والأدوات حجاجيّا. لذلك وظّف أوّلا النّفي الجداليّ حيث نفى رأي الرّجل الأندلسيّ المضمر[3] في أقواله السّابقة وتقديره: بيدك أن تساعدني. ثمّ جاء ثانيا بالواو الأولى للبرهنة على صدق سعيه في إقناع الرّجل المبتاع بإرجاع الجارية. ثمّ أورد الواو الثّانية والواو الثّالثة ليصوّر موقف الرّجل المبتاع. والمعنى المضمر في قول الملك أنّه لن يكره الرّجل المبتاع على إرجاع الجاريّة، وأنّه اقتنع بدعوى الرّجل المبتاع ورقّ له.

وهكذا اجتمعت بفضل هذه الأساليب والأدوات الحجاجيّة أطراف المحتوى القضوي والمعنى المضمر في ملفوظات الملك وتوجّهت به مع الرّجل الأندلسيّ نحو نتيجة واحدة هي: فاصبر لما قضى الله به.

لم ترق هذه النّتيجة للرّجل الأندلسيّ، وقد تفطّن إلى أنّ الملك قد خبت حماسته

---

[1] ينتمي مفهوم «التّأليف الحجاجيّ» إلى نظريّة الملتحمات الدّلاليّة في الحجاج اللّسانيّ، ويُستعمل لوصف كلّ ملفوظ يتكوّن من مسلسلة حجاجيّة وصفا دلاليّا. فعندما نأخذ عبارة واحدة من مسلسلة حجاجيّة فإنّنا سنجدها تحيل وإن بصورة غير مباشرة على عبارات أخرى تقبل التّأليف معها في المسلسلة الحجاجيّة نفسها وتصبح العبارة الأولى اختزالا للعبارات الأخرى والعبارات الأخرى انتشارا للعبارة الأولى،فتتحوّل العبارة المختصرة بعد تأليفها مع العبارات الأخرى إلى مسلسلة حجاجيّة طويلة. ولنستدل على ذلك بالمثال التّالي:
زيد بخيل: تتضمّن هذه العبارة من النّاحية الدّلاليّة المسلسلة التّالية: يجمع المال ويمنع إنفاقه ويحرم نفسه وأهله مباهج الحياة. هذه المسلسلة التي تمثّل دلالة عبارة «زيد بخيل» وتحليلا لها هي مسلسلة حجاجيّة.

[2] يرى جون ميشال غوفار أنّ الاسم العلم شكل فارغ تبدأ دلالته في التّشكّل في اللّحظة التي تبدأ معرفتنا بصاحبه،فدلالته في حالة انبناء مستمرّ، وفي حالة غياب الاسم أو انعدام دلالته نبحث عن تصوّر مّا له.
يُنظر تفصيل ذلك:
Jean-Michel Gouvard, *La pragmatique outils pour l'analyse littéraire*, Armond Colin, Paris, 1998, pp. 68-70.

[3] بسط ديكرو القول في مصطلح المقتضى ومصطلح المهمت (entendu-Sous)في كتابه*dit le et Ledire* كما لم يبسطها في كتبه الأخرى. للتّوسّع يُنظر:
Oswald Ducrot. *Le dire et le dit*, op. cit. pp 13-46.
وخصّ مفهوم المقتضى وبدرجة أقلّ مفهوم المضمر (L'implicite) بكتابه (*dire et ne pas dire*). يُنظر تفصيل ذلك:
Oswald Ducrot,*dire et ne pas dire*, op. cit.

وأنّه لن يرجع له جاريته من الرّجل المبتاع طوعا أو كرها، لذلك اقتصر في تدخّله على جملة استفهاميّة واحدة لا تخلو من إلزام[1] مثّلت حجّة لنتيجة مضمرة، خرج الاستفهام فيها من معناه الأصليّ القاضي بطلب معرفة شيء مجهول إلى معنى حجاجيّ يحرّض بمقتضاه الرّجل الأندلسيّ الملك على استعمال نفوذه ويوجّهه نحو نتيجة واحدة هي إلزام الرّجل المبتاع بإرجاع الجارية[2].

وتفطّن الملك بدوره إلى النّتيجة التي سعى الرّجل الأندلسيّ إلى توجيهه إليها فعارضه بقولَيْن، ورد الأوّل حجّة وصيغ استفهاميّا «وهل ها هنا غير الرّغبة والبذل؟»، وقد عدل الملك بالاستفهام إلى معنى الاستنكار، فهو يستنكر وجود حلول أخرى غير التّرغيب. والمعنى المهمت في ملفوظ الملك عدم السّماح للرّجل الأندلسيّ بأن يرميه بالتّقصير في حقّه، أو التّناقض بين ما يقول وما ينوي فعله[3]،والانتصار لرعيّته، أو يدفعه إلى الظّلم والجور. وللاستفهام في هذا السّياق وظيفة إيحائيّة مفادها الإيحاء بالنّتيجة[4]، وتقريب مسافة المفاوضة[5] بين الملك والرّجل الأندلسيّ من خلال إقناعه باستنفاذ جميع الوسائل لتحقيق طلبته، وتوقّع إقراره بجواب يشاطر به جواب الملك.

ولمّا أيقن الملك أنّ هذه الحجّة قد تمكّنت من الرّجل الأندلسيّ ووجّهته إلى النّتيجة المقصودة وتقديرها «ليس بيدي حلول أخرى»، صرّح له بها «ما أستطيع لك أكثر»، موظّفا أسلوب النّفي الجدالي[6] ليرسّخ في ذهن الرّجل الأندلسيّ انتهاء مساعي الملك، وفي الوقت ذاته انتهاء الحوار.

---

[1] تحيل الجملة الاستفهاميّة عند ديكرو في بعض السّياقات على معنى الالزام، كأن يسألك عون الدّيوانة: هل لديك شيء مّا تصرّح به؟ يُنظر:

Oswald Ducrot,*la valeur argumentative de la phrase interrogative: logique argumentation, conversation*, Edition peter Lang, Berne – franc Fort, 1981, p. 101.

[2] لعلّ هذا ما قصده ديكرو بقوله إنّ المرسل هو الذي يجبر المرسل إليه على الإجابة.

Ibid, p. 100.

[3] يرى بيرلمان وتيتيكاه أنّ الاستفهام لا يهدف إلى تنوير السّامع وإنّما يعكس رغبة في إفحامه وإظهار التّناقض بين قوله وفعله. يُنظر:

Chaim Perelman et Lucie Olbrechts Tyteca, p. 214. op. cit.*Traité de l'argumentation,*

[4] من أنواع الاستفهام عند ديكرو الاستفهام الإيحائيّ. يُنظر:

Oswald Ducrot, *la valeur argumentative de la phrase interrogative*, op. cit. p. 83.

[5] ينهض السّؤال ــ حسب ميشال ماير ــ بوظيفته الحجاجيّة القائمة على مفاوضة المسافة فيمكن أن يضخّم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلّم الإقرار بجواب مّا. كما يمكن أن يلطّف السّؤال ما بين الطّرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب المتكلّم.

محمّد علي القارصي، البلاغة والحجاج من خلال نظريّة المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص 399.

[6] يكتسب عامل النّفي قيمته الحجاجيّة من خلال دوره في توجيه المتلقّي إلى النّتيجة التي أرادها المتكلّم. وانطلق ديكرو من القولين التّاليين: =

ويتوقّف بانتهاء الحوار هذا السّياق التّخاطبيّ ويظهر من جديد السّياق المتخفّي راوي الحكاية / ابن حزم الرّاوي الأوّليّ. لينجز راوي الحكاية مجموعة أقوال تلتقي حججها ونتائجها في زيادة تشويق السّامع ابن حزم وحمله على التّفاعل من خلال تصوير محاولة الرّجل الأندلسيّ الانتحار برمي نفسه من العليّة إلى الأرض، وإنقاذ الغلمان له وإعادته إلى مجلس الملك. ويعود بذلك السّياق التّخاطبيّ.

يقتصر الملك في تدخّله على جملة استفهاميّة صريحة ومباشرة «ماذا أردت بهذا؟»، ومن شأن وظيفة الاستفهام هنا أن «توجّه الحوار نحو وجهة معيّنة»[1].

ويقتصر الرّجل الأندلسيّ بدوره في تدخّله على قول واحد نزّله منزلة الحجّة وأضمر نتيجته. تكوّن القول من ملفوظين، ورد أوّلهما نداء يذكّر بواسطته الرّجل الأندلسيّ المنادى بجلال مقامه ورفعة شأنه، وورد ثاني هما نفيا جداليّا يقتضي[2] العجز عن مواصلة الحياة بعيدا عن الجارية. يقود هذان الملفوظان إلى نتيجة واحدة تقديرها «أنتحر». ولئن لم يتلفّظ بها الرّجل الأندلسيّ فإنّه شرع في تنفيذها وأعلمنا راوي الحكاية بها في قوله: «ثمّ همّ أن يرمي نفسه ثانية».

ثمّ يتدخّل الملك من جديد منجزا عدّة أقوال. ينتهي القول الأوّل بـ«لو لا أنّ اللّه عزّ وجلّ وقاه»، وهو حجّة بُنيت على الإثبات بانتمائها إلى موضع[3] مشترك بين المتخاطبين،

= لم يقرأ جميع روايات بلزاك
قرأ جميع روايات بلزاك
ثمّ وضّح ذلك بقوله: «إنّ القول الأوّل موجّه أساسا نحو نتيجة سالبة من صنف أنّ هذا الشّخص لا يعرف روايات بلزاك جيّدا، أمّا القول الثّاني فهو على خلاف ذلك إذ أنّه موجّه نحو نتيجة إيجابيّة من صنف أنّ هذا الشّخص يعرف بلزاك».
يُنظر:
Oswald Ducrot,*Les échelles argumentatives*, op. cit. p. 7.

[1] من أبرز وظائف الاستفهام عند ديكرو توجيه الحوار وجهة مّا.
Oswald Ducrot, *la valeur argumentative de la phrase interrogative*, op. cit. p. 92.

[2] من المفاهيم الأساسيّة في نظريّة الحجاج اللّغويّ مفهوم الاقتضاء (présupposé). ويتعلّق بما ينقله القول إلى المخاطب ضمنيّا دون التّصريح به.
ويرى ديكرو أنّ المعطى (le posé) أو القول (le dire) من إنشاء المتكلّم، بينما المفهوم أو المهمت (le Sous-entendu) متروك للسّامع كي يستخلصه. وأمّا المقتضى (le présupposé) فهو المشترك بين المتكلّم والسّامع. ويستدلّ ديكرو على هذا التّمييز بالأمثلة التّالية:
القول: يدخّن زيد حاليّا.
المقول: لم ينقطع زيد عن التّدخين.
المقتضى: كان زيد يدخّن.
ولا يتغيّر المقتضى بتغيير صياغة الجملة من الإثبات إلى النّفي أو الاستفهام، فقولنا لا يدخّن زيد حاليّا أو قولنا هل يدخّن زيد حاليّا؟ يحافظان على المحتوى القضوي نفسه وهو تدخين زيد.
Oswald Ducrot,*Le dire et le dit*, op. cit.p. 20.

[3] الموضع أو «مخازن الحجج» على حدّ عبارة شيشرون ينهض بوظيفة التّأليف بين الحجّة والنّتيجة. وقد استعير مفهوم الموضع من مواضع أرسطو، ويعيّن هذا المفهوم مبادئ مقبولة داخل مجموعة لغويّة تمثّل دعامة لكلّ عمليّة حجاجيّة. ويستكنّ الموضع في بعض الكلمات داخل الجمل، وهو بمثابة الكلمات الممتلئة التي تتضمّنها الجمل. =

فأكّدت ما نُسب إلى الرّجل من أقوال وأعمال للبرهنة على عشقه للجارية، ويوجّه التّأكيد ملفوظ الملك والرّجل المبتاع إلى نتيجة واحدة ماثلة في القول الثّاني «قم فصحّح حبّك وترام من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك. وليجعل الملك هذه النّتيجة ملزمة للرّجل المبتاع وظّف صيغة الأمر مجريا إياها في أسلوب مباشر لينتقل الملفوظ مباشرة إلى الإنجاز، وتزداد إمكانية نجاح الفعل لكونه صادرا من أعلى إلى أسفل، ومتى أمر الملك ما على المأمور إلّا السّمع والطّاعة. أمّا بقيّة قول الملك فتعاقبت فيها الحجج والنّتائج تعاقبا سريعا، نستعين بالتّرسيمة التّالية في بيانها:

الحجّة	النّتيجة
فإن مت	فبأجلك
وإن عشت	كنت أولى بالجارية، إذ هي في يدكويمضي صاحبك عنك
وإن أبيت	نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها إليه

بُنيت جميع الأقوال الواردة حججا على الشّرط وتدعّم توجّهها نحو نتائجها بما في الأفعال المفترضة من توجيه حجاجيّ. فافتراض الموت يوجّه القول الأوّل والرّجل المبتاع إلى نتيجة واحدة هي انتهاء الأجل. وافتراض النّجاة يؤدّي إلى النّجاح في البرهنة على حبّ الجارية والفوز بها، والامتناع عن الاختبار يؤدّي إلى الفشل والحرمان من الجارية.

ويرتفع في آخر الخبر نسق تواتر الأفعال ويتداخل السّياق المتخفّي مع السّياق التّخاطبيّ. وينجز الرّجل المبتاع قولا واحدا «أترامى» أورده حجّة، وآثر إظهار النّتيجة

= وتتمثّل وظيفة الموضع الأساسيّة في تحقيق التّأليفات الخطابيّة، فهو القاعدة الضّامنة للانتقال من الملفوظ الحجّة إلى الملفوظ النّتيجة، وبهذا تصبح المواضع هي القاعدة الأوّليّة للحجاج الذي سيرتبط باشتغال هذه المواضع المحايثة لبنية اللّغة الدّاخليّة.

فتقلّص الدّور المحوريّ للرّوابط والعوامل الحجاجيّة في حركيّة الحجاج داخل الخطاب، فما يؤلّف بين جملة وأخرى لم يعد العوامل والرّوابط الحجاجيّة وإنّما هو الموضع. ونوضّح ذلك بالمثال التّالي:

زيد عاق لوالديه فلا يمكنه إرضاء الله

إنّ الفعل الحجاجيّ المنجز في هذا الملفوظ نابع من موضع دينيّ مفاده أنّ إرضاء الوالدين شرط لإرضاء الله. ويمثّل هذا الموضع حكما دينيّا يحظى بالإلزام والسّلطة في الدّين الإسلاميّ. ويمنح استدعاء هذا الموضع القوّة للارتباط بين الحجّة: زيد عاق لوالديه، والنّتيجة: لا يمكنه إرضاء الله. وهو المسؤول عن الوجهة الحجاجيّة في هذا الملفوظ والمحدّد للمسار المفضي إلى النّتيجة. ويبدأ عمل هذا الموضع مباشرة بعد حمل الصّفة على زيد «عاق لوالديه»، وتستوجب هذه الصّفة أو المحمول نتيجة تلقائيّة تتمثّل في غضب الله على زيد. فهذا الموضع الكامن في أعماق البنية الدّلاليّة في الجملة مكّن من التّأليف بين طرفيْ الملفوظ أي الملفوظ الحجّة والملفوظ النّتيجة ووجّه الحجاج وجهة مخصوصة. وأصبحت الحجاجيّة أكثر عمقا ولم تعد رهينة العوامل والرّوابط الحجاجيّة للتّوليف بين الحجّة والنّتيجة، وانحصر دور الرّوابط والعوامل الحجاجيّة في بيان كيفيّة استعمال الموضع.

عن طريق الحركة، ولكنّه لم يفعل. وورد تدخّل الملك في قول واحد «هو والله ما قلت» حجّة لنتيجة مضمرة قوامها «افعل ما فعل صاحبك». وبُنيت الحجّة على الإثبات والقسم وهما عملان لغويّان يوجّهان الملفوظ والرّجل المبتاع نحو نتيجة محدّدة ألمح إليها الملك في الحجّة بقوله «ما قلت».

ولكنّ أقوال الملك تؤول إلى الفشل ويمتنع الرّجل المبتاع عن الارتماء فيتدخّل الملك من جديد وينجز قولا تكوّن من حجّة هي: «لا تتلاعب بنا، يا غلمان، خذوا بيده»

ونتيجة وهي: «وارموا به إلى الأرض». وظّف الملك في حجّته النّهي والأمر وبينهما النّداء،وهي أعمال لغويّة تبين معانيها المضمرة عزم الملك على إمضاء حكمه والفصل بين الرّجلين، وتوجّه الملفوظ والسّامعين إلى نتيجة واحدة هي إجبار الرّجل المبتاع على الارتماء قياسا إلى صاحبه.

أدّى العزم في قول الملك إلى تدخّل الرّجل المبتاع منجزا في قوله «أيّها الملك قد طابت نفسي بالجارية» حجّة، ساكتا عن نتيجتها. وقد وظّف النّداء لتعظيم المنادى وإعلان الولاء له، كما وظّف أداة التّحقيق «قد» وحركة الفعل «طابت» الحجاجيّة ليوجّه ملفوظه والسّامعين إلى نتيجة واحدة مضمرة تقديرها «أرجع له جاريته». أدّى هذا التّغيّر في الحوار بين الذّوات إلى تدخّل أخير أنجزه الملك مقتصرا على حجّة تتكرّر باستمرار في مثل هذه السّياقات والمقامات.

ويعود السّياق المتخفّي ليتمكّن راوي الحكاية من بيان النّتائج التي أعقبت موافقة الرّجل المبتاع على إرجاع الجارية إلى الرّجل الأندلسيّ، حيث تكفّل الملك بدفع ثمن الجارية ثمّ سلّمها إلى صاحبها الأندلسيّ.

يتبيّن لنا ممّا تقدّم أنّ ابن حزم قد طوّع الوسائل والأساليب اللّغويّة فجرت على يده مجرى جديدا يجمع بين إمتاع التّخييل الأدبيّ وإقناع الحجاج اللّسانيّ ليصيب من ذلك مآرب شتى، منها إقامة الحجّة على مهارة أهل الأندلس في صناعة الخبر الأدبيّ وتقدّمهم على نظرائهم في الشّرق الإسلاميّ، ومنها إظهار البرهان على رهافة حسّ الأندلسيّين ورقّة مشاعرهم ولطف طباعهم، ومنها كذلك إقامة الدّليل على عدالة ملوك البربر وحلمهم ونفاذ بصائرهم وسداد رأيهم، وهم المنسوبون ظلما إلى الغلظة والشّدّة.

وللحجاج أن يتجاوز حدود بنى اللّغة القاعديّة لينتشر في فضاء الخطاب ويتحوّل إلى ضرب من السّجال بين صور الذّات المنشئة وصور المخاطب، يحاول كلّ طرف من

طرفيْ الخطاب بناء هذه الصّور في خطابه بناء يخدم مقاصده، فكيف تتشكّل هذه الصّور الخطابيّة؟ وكيف تشتغل حجاجيّا ويتحقّق بها عمل المحاجّة؟

سنسعى في الفصل الأخير من هذا الكتاب إلى نشر الكلام وبسطه في الحجاج الخطابيّ، مختبرين أبرز مقولاته من خلال خبر أدبيّ مرهّن في الأندلس.

الفصل السّادس

الخبر الأدبيّ حجاجا خِطابيّا

رأينا في الفصل السّابق أنّ الحجاج ملازم للّغة ماثل في بناها القاعديّة المختلفة، ووصلنا إلى أنّ عمل المحاجّة يتحقّق أساسا من خلال قانون التّوجيه، ولئن كان الخبر الأدبيّ مصنّعا من اللّغة فهو إلى جانب ذلك فعاليّة خَطابيّة (oratoire) وخِطابيّة (discursif)، ولذلك فإنّ الحجاج لن يظلّ حبيس البنى اللّغويّة وإنّما سيشتغل كذلك من خلال الخطاب، وسيعى كلّ طرف من طرفيْ العمليّة الحجاجيّة إلى توظيف الخطاب في التّمكين لدعواه أو ردّ دعوى الخصم ودحضها.

I ـ مقولات الحجاج الخطابيّ

تبلور هذا التّوجّه الحجاجيّ من خلال أعمال مجموعة من الباحثين أبرزهم موشلير (Jacques Moeschler) ودومينيك مانغينو (Dominique Maingueneau) وروث أموسي (Ruth Amossy)، الذين سعوا إلى رصد جميع الآليات التي ترد في الخطاب وبيان كيفيّة اشتغالها حجاجيّا لإيصال رسائل من المتكلّم إلى السّامع من أجل إقناعه أو التّأثير فيه أو حمله على الاقتناع. ولا يُشترط في الحجاج أن يكون مباشرا بين طرفيْن يجمع بينهما سياق تخاطبيّ واحد، وموجّها إلى سامع خاصّ، وخاضعا لشرط القول والتّلقّي، وإنّما قد يرد غير مباشر وفي سياق تواصليّ لا يجمع بين الطّرفين، وموجّها إلى سامع كونيّ(Auditoire universel)[1].

بل إنّ تصوّر أموسي كان أبين عندما رفضت اعتبار الحجاج مجرّد نوع من الأنواع الخطابيّة وإنّما هو ملازم للخطاب ويتجلّى من خلال الأبعاد والمقاصد الصّريحة أو المضمرة فيه. ويجد هذا التّصوّر سندا معرفيّا في ما ذهب إليه أونسكمبر (Jean-Claude Anscombre) وديكرو (Oswald Ducrot) عندما اعتبرا الحجاج ماثلا في بنيات اللّغة القاعديّة، وقيمته مقدّمة على القيمة الإخباريّة في كلّ ملفوظ.

---

[1] صنّف روث أموسي السّامع صنفين، صنفا حاضرا حضورا مباشرا وصنفا افتراضيّا، وكلّ صنف يقتضي نوعا معيّنا من الحوار وكذلك نوعا معيّنا من الحجاج. وتميّز كذلك بين السّامع الكونيّ والسّامع الخاصّ. يُنظر ذلك مفصّلا في الفصل الأوّل من الباب الأوّل من كتاب أموسي.
Ruth Amossy,*L’argumentation dans le discours*, op. cit. pp. 50-81.

لم يعد الحجاج مجرّد تقديم حجج لدعم أطروحة أو تفنيد أخرى وإنّما هو فعاليّة تجري إلى مخاطبة عقل المتقبّل لإقناعه أو مخاطبة وجدانه للتّأثير فيه أو مخاطبتهما معا لحمله على الاقتناع تمهيدا لتغيير سلوكه، يُتوسّل فيها بأدوات الخطاب وحدها.

يسعى المتكلّم في الحجاج الخطابيّ إلى بناء صورة لذاته (image de soi)[1] في خطابه تخدم مقاصده من الحجاج، ويستعين في ذلك بصورة ذاته المسبقة(Ethos préalable) أو صورة الذّات السّابقة للخطاب (Ethos prédiscursif) على حدّ عبارة منغنو التي يحملها عنه المتقبّل. وفي المقابل يعمل على رسم صورة خطابية[2](image discursive) للمتقبّل تقوم على الإضمار أكثر ممّا تقوم على التّصريح، يستعين فيها كذلك بالصّورة السّابقة للخطاب (Image prédiscursif) التي يحملها عنه.

تتيح مقولات هذا الضّرب من الحجاج الانفتاح على الخطابات التّخييليّة وتتجاوز حصر العلاقة بين السّرد والحجاج في قانون الخدمة أو التّبعيّة أو جعل السّرد مجرّد حجّة شارحة أو حجّة تمثيليّة، ناهضة أو داحضة لأطروحة مّا في خطاب حجاجيّ. فيصبح كلّ خطاب أدبيّ حمّال أبعاد حجاجيّة صريحة أو ضمنيّة، لها أن تؤثّر في المتقبّل أو تغيّر قناعاته وتحفّزه على الفعل.

II ـ الخبر الأدبيّ الأندلسيّ حجاجا خطابيّا

سنعمل على اختبار مدى نجاعة مقولات الحجاج الخطابيّ بتطبيقها على خبر أدبيّ من أخبار الطّفيليّين، وقد دعانا قصره إلى إيراده بنصّة: «...حدّثنا نصر بن علي أبو عمرو الجهضمي قال: كان لي جارطفيليّ، وكان من أحسن النّاس منظرا وأعذبهم منطقا وأطيبهم رائحة وأجملهم لباسا. فكان من شأنه أنّي إذا دعيت إلى مدعاة تبعني، فيكرمه النّاس من أجلي، ويظنّون أنّه صاحب لي. فاتّفق يوما أنّ جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يختن بعض أولاده، فقلت في نفسي: كأنّي برسولا لأمير قد جاء، وكأنّي بهذا الرّجل قد تبعني، والله لئن تبعني لأفضحنّه.

---

[1] صورة الذّات في الخطاب (image de soi)، أو الإيتوس، هي الصّورة التي يبنيها المتكلّم في خطابه عن ذاته. ويشمل الإيتوس كذلك الصّورة التي يحملها المتقبّل عن المتكلّم قبل أن يتكلّم. للتّوسّع يُنظر:
Ruth Amossy,*L'argumentation dans le discours*, op.cit. pp. 164-170.

[2] الصّورة الخطابيّة هي الصّورة التي يبنيها المتكلّم لذاته أو للمخاطب في الخطاب دون أن يضطرّ إلى التّصريح بمضمونها، ويُترك أمر استنباطها إلى المخاطب، وتؤدّي عادة دورا حجاجيّا من خلال التّأثير في المخاطب أو إقناعه أو حمله على الاقتناع.

فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني، فما زدت أن لبست ثيابي وخرجت، وإذا أنا بالطّفيليّ واقف على باب داره قد سبقني بالتّأهّب، فتقدّمت وتبعني، فلمّا دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة، ودُعي بالطّعام، وحضرت الموائد،وكان كلّ جماعة على مائدة لكثرة النّاس، فقُدّمت إليّ مائدة والطّفيليّ معي. فلمّا مدّ يده وشرع لتناولا لطعام قلت: أخبرنا درست بن زياد عن أبان بن طارق عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسولا لله صلّى الله عليه وسلّم: من دخل دار قوم بغير إذنهم فأكل طعامهم، دخل سارقا وخرج مغيرا.

فلما سمع ذلك، قال: أنفت لك والله أبا عمرو من هذا الكلام، فإنّه ما من أحد من الجماعة إلّا وهو يظنّ أنّك تعرض به دون صاحبه، أولا تستحي أن تتكلّم بهذا الكلام على مائدة سيّد من أطعم الطّعام،وتبخل بطعام غيرك على من سواك؟ ثمّ لا تستحي أن تحدّث عن درست بن زياد وهو ضعيف، عن أبان بن طارق وهو متروك الحديث، تحكم برفعه إلى النّبي، والمسلمون على خلافه، لأنّ حكم السّارق القطع وحكم المغير أن يعزّر على ما يراه الإمام. وأين أنت عن حديث حدثّناه أبو عاصم النّبيل، عن ابن جريج، عن أبي الزّبير، عن جابر، قال: قال رسول الله: طعام الواحد يكفي الاثنين، وطعام الاثنين يكفي الأربعة، وطعام الأربعة يكفي الثّمانية، وهو إسناد صحيح؟ قال نصر بن علي: فأفحمني، فلم يحضرني له جواب. فلمّا خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطّريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي، وسمعته يقول [المتقارب]:

ومن ظنّ ممّن يلاقي الحروب   بأن لا يصاب فقد ظنّ عجزا»[1].

يمثّل هذا الخبر وحدة سرديّة واحدة قوامها سعي الجهضميّ إلى تأديب جاره الطّفيليّ وفشله في ذلك، وينفتح ببيان ملامح السّياق التّخاطبيّ الخارجيّ المستفادة من السّند. ولئن استجاب السّند إلى الشّروط الواجب توفّرها في صناعة الإسناد من عبارة أداء وسلسلة رواة وفعل إسناديّ فإنّه ورد ضامرا مختزلا لا يفي إلّا بالحدّ الأدنى من المعطيات. واقتصرت العناصر المقاميّة على الجهضمي والرّاوي الأوّليّ (Narrateur primaire) وهو الذي حدّثه الجهضمي ثمّ دوّن الخبر ونقله إلينا، وقد أغفلت عناصر مقاميّة أخرى من زمان الأحداث ومكانها ومناسبة اللّقاء، كان لها أن توجّه القراءة وعمليّة

[1] أورد البونسي خبر «الجهضمي» في كتاب «كنز الكتّاب ومنتخب الآداب»، ص ص 657-658، لكنّنا اعتمدنا الرّواية التي رهّنها الخطيب البغداديّ، والوجه في ذلك أنّنا نعتبرها الأكمل والأتمّ. يُنظر:
الخطيب البغداّديّ، التّطفيل وحكايات الطّفيليّين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم،موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009، صص 67-68.

التّأويل. ويظهر بالتّوازي مع هذا السّياق سياق آخر يشتغل بصورة مزامنة له وهو سياق الرّاوي الأوّليّ / القارئ.

سعى الجهضمي في هذا السّياق الخارجيّ إلى إقناع الرّاوي الأوّليّ أو حمله على الاقتناع بدعوى مفادها أنّ الجار الطّفيليّ قد أساء السّلوك وتجاوز الأدب بمقدار يوجب تأديبه. فما هي الاستراتيجيّة التي اعتمدها؟ وما طبيعة الحجج التي وظّفها لينخرط معه السّامع (الرّاوي الأوّليّ) في الخطاب ويؤيّده في دعواه ويقتنع بوجاهة رأيه؟

افتتح الجهضمي كلامه بوصف الجار لكنّه اتّبع سبيلا في الوصف مغايرة تماما للوصف الإخباريّ، فقد عدل عن ذكر الاسم واستبدله بصفة أولى «جار»، والعدول من الاسم إلى الصّفة إيغال في التّنكير وتكثيف لمعنى تبغيض الموصوف والنّفور منه، وتبدأمن هناك ملامح الاستراتيجيّة الحجاجيّة في التّشكّل فـ«من مظاهر اختيار المعطيات وجعلها ملائمة للحجاج اختيار النّعوت والصّفات، فالصّفات تنهض بدور حجاجيّ يتمثّل في كون الصّفة إذ تختارها تجلو وجهة نظرنا وموقفنا من الموضوع(1)[1]. وتمثّل هذه الصّفة الأولى الحقل الاجتماعي الذي يجمع بينهما، وسيكون لهذا الحقل تأثيره في اشتغال خطاب الجهضميّ الموجّه إلى الرّاويّ الأوّليّ كما سينيخ بكلكله في السّياق التّخاطبيّ الدّاخليّ عندما يتواجه الجهضمي مع الجار الطّفيليّ.

وتزداد ملامح هذا الاستراتيجيّة الحجاجيّة بيانا من خلال الجملة الاسميّة الجارية إلى الإقناع من خلال تعبيرها عن حقيقة عامّة، فهي «لا تنقل معطى حدثيّا وإنّما تقرّر حكما لا زمنيّا دائما، يفعل في النّفوس فعل حجّة السّلطة»[2].ويردف الجهضمي الصّفة الأولى بأخرى تدقّقها «طفيليّ» وتنزّل الموصوف ضمن فئة اجتماعيّة تراوحت منزلتها بين الاستطراف والاشمئزاز في المجتمع العربيّ القديم. وتنفتح مسالك التّأويل وسيعة أمام المتلقّي بشأن ما سيأتيه الطّفيليّ في علاقته بالجهضمي، وإن كان ذلك سيؤدّي إلى تعاطف المتقبّل معه أو السّخط عليه.

يمرّ الجهضمي إلى المرحلة الثّانية من استراتيجيّته الحجاجيّة في حواره مع الرّاوي الأوّليّ ويشرع في بناء صورة الجار الطّفيليّ، وقد اختار لذلك بيان السّمات المميّزة له بدءا من السّمات الخِلقيّة، فإذا هو حسن الوجه عذب المنطق. وهي سمات من شأنها أن

[1] عبد الله صولة: الحجاج، أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنّف في الحجاج – الخطابة لجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، ص 316.
[2] Emile Benveniste, *Problèmes de linguistique générale* 1, op. cit. pp. 162-163.

تكون عونا له في التّواصل مع الآخرين تجلب له الودّ وتدرأ عنه البغض وتمكّن له في قلوب النّاس.

ويدعم الجهضمي هذه الصّورة بالسّمات المظهريّة للجار، فإذا هو أجمل النّاس رائحة وأجملهم لباسا، والمعنى المهمت[1] (sous-entendu) في هذا الوصف تعمّد الجار اختيار هذا المسلك في مظهره لغاية في نفسه، ومن شأن القارئ المتعاون أن يستعين بكفاءته الموسوعيّة للوصول إلى ما يضمره الوصف ولا يصرّح به ولمعرفة مقاصد الجار من حرصه على الاعتناء بمظهره، فالطّفيليّ هو من يدخل على القوم فيأكل طعامهم ويشرب شرابهم من غير أن يدعوه، ومن كان هذا صنيعه وجب أن يتحلّى بالفطنة والظّرف.

وتوجب فطنته أن يحتال بشتّى الحيل ويخادع بمكر حتّى لا يثير النّفور وتنقدح في صدور القوم الشّكوك حول نواياه. وأوّل مراتب الاحتيال والخداع الظّهور بمظهر حسن ورسم صورة له في أذهان الآخرين تنزّهه عن التّطفيل والطّمع، فتشمئزّ منه النّفوس وتوصد في وجهه الأبواب وينقلب شرّ منقلب ويبوء بالخسران المبين. فالجار الطّفيليّ وظّف حسن المظهر على سبيل التّقيّة للتّمويه وإخفاء سوء المخبر، وتندرج هذه الصّورة ضمن ما يعتبره أرسطو حجّة الإيتوس (Ethos)[2]. وقد نزّلت صيغة التّفضيل المطلق التي بُني عليها الوصفُ الجارَ الطّفيليّ في الطّبقة العليا من هذه السّمات التي قد تكون شائعة بين النّاس.

إنّ الصّورة التي بناها الجهضمي لجاره الطّفيليّ في مستوى سماته الخِلقيّة وسماته المظهريّة تعمل على دفع السّامع إلى استظرافه واستطرافه بل والإعجاب به، ومن ثمّة القبول بكلّ ما يمكن أن يرتكبه من وجوه الاحتيال والخداع وحمله محمل الظّرف واللّطف، وهذا ما يعتبره جون ميشال آدام (J-M. Adam)[3] التّوجيه الحجاجيّ في الوصف إذ يعتبر كلّ وصف بمثابة الحجّة التي تقود إلى استنتاج.

[1] يشمل المهمت كلّ المعلومات التي يمكن أن يتضمّنها ملفوظ مّا وتؤوّل في ظلّ خصائص السّياق التّلفّظي، وهو آلية ماكرة ومخادعة تمكّن المتكلّم من المناورة والاختفاء وراء ظلال المعاني. والمهمت أصناف أبرزها التّلميح (Allusion) والتّعريض (Insinuation). يُنظر تفصيل ذلك في: مؤلّف جماعيّ، معجم السّرديات، إشراف محمّد القاضي، صص 395-396.

[2] الإيتوس، هو صورة المتكلّم في الخطاب إلى جانب صورته الخارجيّة وما يرمز إليه من فضائل ليكون مقنعا بالنّسبة إلى السّامع، ويشمل كذلك الصورة التي يحملها السامع عن المتكلّم قبل أن يتكلّم. وينبني الخطاب الحجاجيّ عند أرسطو على الإيتوس واللّوغوس (Logos) ويتّصل بالخطاب ذاته ويشمل الأساليب والبنى الخطابيّة، والباتوس (Pathos) ويتّصل بالسّامع وما يبديه من أثر انفعاليّ.

[3] Jean-Michel Adam, *Les textes types et prototypes*, op. cit. p.91 .

وستعجّل هذه الصّورة الأولى بالتّأثير في السّامع على خلاف ما يريد الجهضمي فيتعاطف مع الجار الطّفيليّ وتداركه أريحيّة منه واستهواء. لذلك عدل الجهضمي مباشرة إلى تصوير السّمات السّلوكيّة، وتتّصل بعادة دأب عليها الجار الطّفيليّ وهي ملازمة الجهضميّ كلّما استدعي إلى مدعاة، مستغلّا وجاهته وعلوّ شأنه ورفعة منزلته، فيحظى بالإكرام والتّبجيل بسبب ما سبق في وهم النّاس من أنّه من الجهضميّ بسبب متين. والمقتضى الدّلاليّ في الوصف لا يتّصل بضجر الجهضميّ من تطفيل الجار وإنّما ضجره من الإحراج الذي يطاله كلّما اضطرّ النّاس إلى مداراة هذا الجار وإكرامه متوهّمين أنّه منه بمنزلة كبرى.

بنى الجهضمي هذه الصّورة الثّانية للجار الطّفيليّ وعدل فيها من جميل الصّفات في الصّورة الأولى إلى قبيح الفعال، فلم يقل صراحة إنّه انتهازيّ وإنّما قدّم هذه الصّورة من خلال الخطاب الموجّه إلى الرّاويّ الأوّلي والمتضمّن ضمائر غيبة عائدة على الجار الطّفيليّ. وهي الصّورة التي يحملها عنه، ويريد إيصالها إلى السّامع لتنهض بدورها الحجاجيّ المتمثّل أساسا في محو أثر الصّورة الأولى التي قدّر الجهضمي أنّها استمالت السّامع، والتّمكين لمعنى الانتهازيّة في سلوك الجار لحمل السّامع على النّفور منه والاتّقاد غيظا عليه وانتظار فرصة النّيل منه. فيتحوّل السّامع من استظراف الجار في الصّورة الأولى إلى النّقمة عليه في الصّورة الثّانية، والتّعاطف في الوقت ذاته مع الجهضمي.

ولتمكين هذه الصّورة الثّانية السّلبيّة في ذهن السّامع يعضدها الجهضمي بصورة أخرى عن ذاته قوامها ضجره وانزعاجه من سلوك الجار واسترساله في هذه العادة، ولم يصرّح الجهضمي بذلك وإنّما أضمره في خطابه وعلى السّامع أن يستنبطها، فيكون تأثيرها أشدّ من أيّ صورة أو نتيجة أخرى تقدّم إليه تقديما مباشرا لا تخلو من إلزام وقصر.

أدرك الجهضمي أنّ لصورة الجار الثّانية وصورته مفعولا حجاجيّا قويّا في السّامع من شأنه أن يحمله على الانخراط معه ويصدّقه في الدّعوى القائمة على ترصّد فرصة النّيل منه وتأديبه. لذلك سارع بالتّصريح بهذا القرار. فهيّأ له السّياق وهو عزم أمير البصرة ختن بعض أولاده، وتوقّع استدعاءه ضمن سراة القوم ووجهائهم، وتوقّع ثبات الجار على عادته في انتهاز الفرص والوصول إلى الموائد مختفيا وراء وجاهة

الجهضمي. وهيّأ السّامع كذلك، فعدل بالخطاب من الوصف إلى الحوار الباطنيّ، ليعلن القرار الذي عزم عليه والقاضي بـ«فضح» الجار الطّفيليّ إن هو أعاد الكرّة في هذه المناسبة.

ويصدق توقّع الجهضميّ الأوّل فيأتيه رسول الأمير مستدعيًا، ولا يخيب توقّعه الثّاني في عزم الجار ملازمته. ويستأنف الجهضمي بناء صور الجار ليطمئنّ إلى أنّ السّامع ما زال نافرا من الجار مستهجنا سلوكه منتظرا فرصة وقوعه في مأزق.، وقد أبانت الصّورة الجديدة ثلاث خصال سلبيّة في الجار وهي مراقبته الدّائمة لكلّ وارد على بيت الجهضميّ وتنسّم أخباره، وترصّده له عن قصد، واستعجاله في تصيّد الفرص.

ومن شأن هذه الصّورة أن ترسّخ في ذهن السّامع معنى سوء الطّباع ولؤم الجار الذي لم يراع مقتضيات احترام الجار والإحسان إليه، فتتكامل مع الصّور السّابقة وتخرج الجار مخرج المخالف لجميع المقتضيات التّداوليّة السّائدة في المجتمع العربيّ الإسلاميّ، فتوغر الصّدور عليه ويُتربّص به وتُنتظر فرصة تأديبه.

ولمّا اطمأنّ الجهضمي إلى أنّ السّامع صدّق الدّعوى وأصبح متعاطفا معه في الأخذ بالثّأر من الجار الطّفيليّ وتأديبه على قبيح فعاله انتقل إلى تهيئة العناصر المقاميّة الحافّة بالسّياق التّخاطبيّ الدّاخليّ، سياق الجهضمي / الجار، وتتمثّل في المكان وهو دار الأمير، والشّخصيّات الحاضرة وهي ممّا لا شكّ فيه من صفوة القوم وخيارهم، ممّا يجعل الخطاب خاضعا لشروط المؤسّسة الاجتماعيّة. والحدث القادح هو الشّروع في تناول الطّعام، وقد كان الجار شريكا للجهضميّ في المائدة.

يبدأ التّفاعل الخطابيّ[1] في اللّحظة ذاتها التي همّ فيها الجار الطّفيليّ بتناول الطّعام. واقتصر الجهضمي في تدخّله (intervention) على حجّة واحدة يفيد محتواها القضوي صفات المتطفّل في الشّرع الإسلاميّ وهي السّرقة أثناء الدّخول والإغارة أثناء الخروج، وفي كلتا الحالتين فهو معتد أثيم، ويفيد المعنى المضمر في هذه الحجّة الحثّ على تطبيق حدّ السّرقة وحدّ الإغارة على كلّ من اجتمعت فيه شروطهما ممّن كان حاضرا حول موائد الأمير.

[1] تميّز أموسي بين التّفاعل الخطابيّ الحقيقيّ والتّفاعل الخطابيّ الافتراضيّ، وتوظّف مبدأ الحواريّ (Dialogal) ومبدأ التّحاوريّ (Dialogique) للتّمييز بين صنفيْ التّفاعل الخطابيّ. يُنظر تفصيل ذلك:
Ruth Amossy, *L'argumentation dans le discours*, op.cit. pp. 268-269.

وانبنت حجّة السّلطة[1] على نصّ ملزم يفصّل جانبا من التّشريع الإسلاميّ، وبسبب اشتراك الحاضرين في الانتماء إلى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة فلا شكّ أنّهم يسلّمون بما ورد في محتوى الحجّة ويخضعون لحكمه.

والملاحظ أنّ الجهضمي لم يوجّه خطابه إلى الجار الطّفيليّ وإنّما تكلّم كلاما مطلقا بانيا صورة لمتحدّث عنه مجهول، ولكنّنا بالعودة إلى السّياق السّابق واستحضار عزم الجهضمي على تأديب جاره الطّفيليّ في قوله «والله لئن تبعني لأفضحنّه» أدركنا على الفور أنّ المقصود بكلام الجهضمي هو الجار الطّفيليّ دون جميع الحاضرين.

وقد بنى الجهضمي من خلال الخطاب صورة مركّبة لهذا الجار تقوم على ثلاثة وجوه: طفيليّ / سارق / مغير. دون أن يصرّح بذلك أو يورد في خطابه بعض القرائن الدّالة على أنّ المقصود هو الجار. ورسم في الوقت ذاته هذه الصّورة في أذهان السّامعين[2] الحاضرين حول موائد الأمير، وهي صورة من شأنها أن تحملهم على تطبيق الحكم الشّرعيّ على من تثبت إدانته من الحاضرين، فيجد الجار نفسه في ما لا ينادى فيه وليده إن تفطّن القوم إليه.

وكان الجار الطّفيليّ على بيّنة من صورة ذاته التي يحملها عنه الجهضميّ والتي وردت ملامحها في الخطاب، فأدرك على الفور أنّه المقصود بالتّلميح والتّعريض، وأنّه قد يكون عرضة لتطبيق الحدّ عليه أو أن يُطرد على مرأى الجميع وسمعهم ويُحرم من الوليمة وذلك أهون الشّرين عنده، وقد تأكّد ذلك لديه بالتّلازم بين شروعه في الأكل وشروع الجهضمي في الخطاب.

وتنفتح مفاصل احتمالات[3] وسيعة أمام الجار الطّفيليّ، فله أن يواصل الأكل ويلتزم الصّمت مختفيا وراء انعدام القرائن الدّالة عليه في خطاب الجهضمي باستثناء التّلازم بين بداية الخطاب وشروعه في الأكل، وقد لا يكون من القوم من تفطّن إلى هذه اللّحظة الحرجة لا سيّما أنّ اهتمام الجميع منصرف إلى تصفّح وجوه ألوان الطّعام فوق الموائد. وله كذلك أن ينخرط في تفاعل خطابيّ من باب الاستلزام الحواريّ (implicature

[1] تستمدّ حجّة السّلطة قوّتها الحجاجيّة من انتسابها إلى نصّ ملزم أو شخصيّة مرجعيّة بالنّسبة إلى طرفيْ الحوار.

[2] ترى أموسي أنّ السّامع ينتقل من حالة تمثّل ذهنيّة بالنّسبة إلى المحاجّ إلى صورة خطابيّة، فتتجلّى صورته في الخطاب الذي ينتجه المحاج. يُنظر ذلك مفصّلا: *Ibid*, pp.55-58 .

[3] ترجمة اقترحها محمّد نجيب العمامي لـمصطلح أيكو Nœud de probabilités. بحوث في السّرد العربيّ، دار نهى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، صفاقس، الطّبعة الأولى، 2005، ص 107.

conversationnel)[1]، وهو تفاعل مشروط بخصائص المقام، إذ الجار ملزم بتفنيد حجّة الجهضمي وإقناع السّامعين بحجّته لثلاثة أسباب:

أوّلهما كي يدافع عن حياضه فلا يثير الشّكوك حوله ويعرّض نفسه إلى انتهاك وجهه السّلبيّ (La face négative)[2]، وثانيهما كي يؤدّب الجهضمي الذي أراد به سوءا ويردّ كيده فلا يعود ثانية إلى التّعريض به. وأمّا ثالث الأسباب فيتّصل بحرصه على أن يوفّر لنفسه أقصى أسباب الأمان والنّجاح في المرّات المقبلة كلّما تبع الجهضمي إلى مدعاة.

ويبدو أنّ الجار قد تلمّس بعض الغيظ في خطاب الجهضمي جرّاء الصّورة التي يحملها عنه فآثر المسلك الثّاني واختار طريق المواجهة، ووجّه خطابه مباشرة إلى الجهضمي مؤّكدا ذلك باستعمال الكنية «أبي عمرو». وإذا كان إيراد الكنية من علامات إعلاء شأن المخاطب فإنّ المضمر في خطاب الجار الحطّ من المخاطب من خلال الفعل «أنفت»، وتظهر قيمته الحجاجيّة[3] في أنّه تقدّم على نظرائه من الأفعال من قبيل «كرهت». وإذا أفاد الفعل في معناه الحرفيّ الأصليّ أنّك أشرف من هذا الكلام فإنّه يفيد من جهة المقتضى الدّلاليّ أنّ الجهضميّ وضيع.

وهذه اللّبنة الأولى من لبنات الصّورة التي بدأ الجار يبني ملامحها في أذهان السّامعين من خلال خطابه دون أن يصرّح بها. وتتأكّد صفة الوضاعة في خرقه لأبرز

---

[1] لكلّ جملة دلالتان، دلالة أصليّة تُستفاد من خلال المعجم والتّركيب، ودلالة متغيّرة حسب سياق الاستعمال والعناصر المقاميّة التي قيلت فيها. وهي الدّلالة التي يرتبط بها مفهوم الاستلزام الحواريّ أو الاستلزام المحادثيّ.

[2] تنسب نظريّة الوجوه (La théorie des faces) إلى عالم الاجتماع الأمريكيّ غوفمان (Erving Goffman)، وهي تندرج ضمن قواعد السّلوك الاجتماعيّ وتكمّل المبادئ والقوانين الواجب توفّرها لإنجاح الحوار أو التّفاعل القوليّ. وتقوم هذه النّظريّة على أن كلّ إنسان يسعى في تواصله مع الآخرين إلى الدّفاع عن حياضه وفضائه الذّاتيّ ويتكتّم على أسراره أو ما يسمّى بالوجه السّلبيّ، فهو يُخفي ما يراه يحطّ من شأنه أمام الآخرين، ولا يقبل منهم الإهانة والاستنقاص والاحتقار والتّجريح والمسّ من عرضه والقدح في سمعته، ويبذل كلّ ما في وسعه لحفظ ماء وجهه.
ويسعى في المقابل إلى الرّفع من قيمته الذّاتيّة أو ما يسمّى بالوجه الإيجابيّ، من خلال إظهار صورة مشرقة عن نفسه يقدّمها إلى الآخرين وبناء صورة اجتماعيّة قوامها الفضائل والمحاسن.
وتوجب هذه النّظريّة على المتكلّم ألّا يريق ماء وجه المخاطب وينتهك فضاءه الذّاتيّ كأن يذكّره بعيوبه أو يشهّر بجهله أو ينزّله في موقع الأدنى ويلاحقه إلى مواقعه الأخيرة،أو أن يشير إليه بحركة ...
... أو إيماءة، فمن شأن ذلك أن يحفّز المخاطب ويدفعه إلى انتهاك وجه المتكلّم السّلبيّ، فتنقلب عليه موازين الرّبح والخسارة وتتوتّر علاقاته الاجتماعيّة.
يُنظر تفصيل ذلك:
Erving Goffman,*Les rites d'interaction*, Editions de minuit, Paris, 1974.

[3] تكتسب الكلمة قيمتها الحجاجيّة حسب عبد الله صولة من خلال حركتها الحجاجيّة في تنافسها مع مرادفاتها، وأنّ هدف إقناع المتكلّم مخاطبه يقتضيها أكثر ممّا يقتضي غيرها.
يُنظر ذلك مفصّلا:
عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 1، ص 187.

قاعدة من قواعد قانون الخطاب وهي قاعدة العلاقة التي توجب على المتكلّم أن يقول كلاما في محلّه ووثيق الصّلة بالمقام، والمقام هنا مقام احتفال في بيت الأمير.

ويعدل الجار في خطابه عدولا نوعيّا نسقيّا على حدّ عبارة عبد الله صولة، من خلال الانتقال من الجملة الفعليّة إلى الجملة الاسميّة «فإنّه ما من أحد من الجماعة إلّا وهو يظنّ أنّك تعرّض به دون صاحبه»، فتكون الجملة الاسميّة حجّة على الدّعوى الواردة في الجملة الفعليّة، وتكون الغاية من العدول إقامة الحجّة الثّابتة المؤكّدة بضروب من التّوكيد[1]، ويجري تركيب الحصر[2] إلى الغاية ذاتها.

ويرسم الجار بهذا العدول ملمحا آخر من ملامح صورة الجهضمي يتصّل بخرقه ثانية قاعدة أخرى من قواعد المحادثة وقوانين الخطاب[3] وهي قاعدة الكيف وتقوم على المبدأ التّالي: «كن واضحا»[4] وتجنّب الإيهام في التّعبير وتجنّب اللّبس. وإذا أفاد المحتوى القضوي في خطاب الجار غموض كلام الجهضمي فإنّه يفيد في معناه المهمت عياء الجهضمي وعجزه عن مراعاة مبادئ المحادثة وقوانين الخطاب في مثل هذه المقامات، وهو مقصد خفيّ وتحريض ماكر للسّامعين على الحطّ من منزلة الجهضمي واستنقاص قيمته.

ويصعّد الجار تدريجيّا من حدّة خطابه الموجّه مباشرة إلى الجهضميّ مستعملا

---

[1] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 1، ص 543.

[2] يتركّب الحصر من أداة تفيد النّفي وأخرى تفيد الاستثناء وأشهر تراكيبه: «إن...إلاّ» و«ما...إلاّ» و«ليس...إلاّ». فإذا دخل هذا العامل على قول من الأقوال وجّهه نحو نتيجة مخصوصة وأقصى سائر النّتائج المحتملة لذلك القول نفسه متى ورد مجرّدا منه. ومن الأمثلة على عوامل الحصر القولان التّاليّان:
ـــ بقي أسبوع على موعد الامتحانات.
ـــ لم يبق إلّا أسبوع على موعد الامتحانات.
ورد القول الأوّل خلوا من العوامل الحجاجيّة، لذلك فهو يخدم النّتيجة من قبيل «راجع دروسك» بالدّرجة نفسها التي يخدم بها النّتيجة المضادّة «لا تراجع دروسك». وأمّا القول الثّاني فقد اشتمل على العامل الحجاجيّ «ما...إلّا» الذي قلّص من الإمكانات الحجاجيّة وحصر المسالك التّأويليّة في النّتيجة التّالية: «راجع دروسك».
وتلتقي عوامل الحصر في معناها مع عوامل القصر باتبارها تندرجضمن التّوكيد، ومن أبرزها الأداة «إنّما»، فمتى أدخلها المتكلّم على الملفوظ فإنّه يقصره على نتيجة واحدة ويقصي بذلك جميع المسالك التّأويليّة.
كما ينهض ضمير الفصل أو ضمير الشّأن والـ الموصولة بدور القصر إذ يضيفان إلى القول وظيفة حجاجيّة كما في الأقوال التّالية: ق1: زيد قاتل / ق2: زيد هو القاتل / ق3: زيد القاتل
وجّه ضمير الفصل في القول الثّاني والـ الموصولة في القول الثّالث الملفوظ والمتلقّي إلى نتيجة أساسيّة مفادها قصر فعل القتل على زيد، ومن هنا تكمن حجاجيّتهما. وأمّا القول الأوّل الوارد خلوا من أيّ عامل حجاجيّ فهو مجرّد إخبار عن زيد ووصف له.

[3] حدّد منغينو مبادئ المحادثة وقوانين الخطاب انطلاقا ممّا صاغه غرايس وكذلك ديكرو من مبادئ وقوانين وقواعد. للتّوسّع يُنظر:

Dominique Maingueneau ,*Pragmatique pour le discours littéraire* ,op .cit .pp.111-101 .

[4] جاك موشلير وآن ريبول، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدّين المجدوب، دار سيناترا، تونس، 2010، ص 215.

ضمائر الخطاب موظّفا المقارنة الخفيّة، فكلام الجهضمي وضيع بينما المقام شريف، والجهضمي بخيل بل وساقط الهمّة لأنّه يبخل بطعام غيره، والأمير كريم بل وسيّد الكرماء. فتؤّكد هذه المقارنة الخفيّة جهل الجهضمي بآداب الكلام وقوانين الخطاب، وبخله. ويكتمل الملمح الثّاني من صورة الجهضمي في خطاب الجار الطّفيليّ.

ويكون السّامعون من الحاضرين حول موائد الأمير قد تشكّلت في أذهانهم صورة عن الجهضمي من خلال خطاب الجار قوامها أنّ الجهضميّ وضيع وعييّ وبخيل وساقط الهمّة دون أن يكون الجار قد صرّح بذلك، وإنّما يُستنبط ذلك استنباطا من خلال المعاني المضمرة في خطاب الجار، وتكون هذه النّتيجة أبلغ أثرا في السّامع من النّتيجة المصرّح بها لأنّ مساهمته في استنباطها تجعله لا يعتبر النّتيجة مفروضة عليه من الخارج وإنّما يعتبرها نتيجته هو شخصيّا[1].

وقد يكون لهذه الصّورة تأثير سلبيّ على مكانة الجهضمي الاجتماعيّة ومنزلته من نفوس الحاضرين فيفقد وجهه الإيجابيّ وتنتهك حياضه ويُستباح وجهه السّلبيّ، وليس أشدّ مضاضة على المرء من المساس بوجهه السّلبيّ. ومن شأن مقتضيات هذه الصّورة التّداوليّة أن تُخرج الجهضمي مخرج الخزي وتقصيه من دائرة المعاملات الاجتماعيّة وتفرده إفراد البعير المعبّد.

ويسترسل الجار في خطابه على الوتيرة ذاتها من الحدّة، تاركا مفعول الصّورة الأولى يؤتي أكله في نفوس السّامعين أملا في التّأثير فيهم في نهاية خطابه وإقناعهم بقبيح صفات الجهضميّ وذميم فعاله، وما قد يتبع ذلك من تغيّر مواقفهم من الجهضميّ وأساليب تعاملهم معه[2].

وتتجلّى حدّة الخطاب في القيمة الحجاجيّة الماثلة معجميّا في الفعل «استحى» الذي هو بحبل متين من الفعل «أنف» في الدّلالة على الوضاعة. ولكنّ موضوع الوضاعة يتغيّر ليتّصل بكفاءة الجهضمي العلميّة، فإذا هو يروي الحديث عن رواة مطعون في ثقتهم ولا يستجيبون لمقاييس علم الجرح والتّعديل عند علماء الحديث، ويقضي بأحكام مخالفة تماما لما هو شائع بين المسلمين في حكم السّارق والمغير. وإذا صورة الجهضمي الجديدة في خطاب الجار قائمة على أنّه قليل الضّبط وليس عدلا ثبتا من

[1] هذا الرّأي لروجي بوتييه (Roger Bautier) وقد أورده محمّد نجيب العمامي في مقاله، البعد الحجاجيّ في أقصوصة القلعة لجمال الغيطاني، ضمن كتاب: الحجاج: مفهومه ومجالاته، الجزء الرّابع: الحجاج والمراس، ص 213.
[2] يُعتبر تغيير ألوان سلوك المتقبّل أقصى ما يطمع إليه الخطاب الحجاجيّ.

الثّقات. وهي صورة من شأنها أن تجهز على ما تبقّى في أذهان السّامعين من توقير للجهضمي وإعلاء لشأنه.

ولمّا تيقّن الجار الطّفيليّ من أنّه استباح وجه الجهضمي السّلبيّ اجتماعيّا وعلميّا مرّ حسب ما يقتضيه التّمشّي الحجاجيّ الذي اختاره إلى إقامة الحجّة وتقديم البرهان على صحّة دعواه ولينتصب إماما والجهضميّ متعلّما فتنقلب المواقع ويصبح الجار الطّفيليّ في الموقع الأعلى من العلاقة والجهضمي في الموقع الأدنى، وتلك منزلة لا ينهض بعدها من وقع فيها.

وقد رافق هذا التّحوّل في المسار الحجاجيّ تحوّل في آليات الخطاب فساق الجار الاستفهام ولكنّه عدل به من معناه الأصليّ القاضي بطلب معرفة شيء مجهول إلى معناه الحجاجيّ القاضي بوجود شيء مقتضى وشيء مبأّر على حدّ عبارة عبد الله صولة[1]، وهما في هذا المقام عجز الجهضمي عن تمييز الأسانيد الصّحيحة من الأسانيد الضّعيفة، وجهله بأحكام الشّريعة الإسلاميّة.

ويتولّى الجار سدّ هذا النّقص الحاصل في كفاءة الجهضمي العلميّة ويسوق حديثا نبويّا يتنزّل في سلّم الحجج منزلة حجّة السّلطة، ولئن أفاد محتوى الحجّة القضوي التّذكير بتضاعف مفعول الطّعام فإنّ المعنى المضمر فيها يفيد جشع الجهضمي وعدم تحلّيه بالقناعة، ويصنّف الجشع ضمن سلّم الرّذائل في الثّقافة العربيّة الإسلاميّة.

وتكتمل بذلك صورة الجهضمي الواردة في خطاب الجار عند السّامعين جليّة بيّنة، قوامها اجتماعيّا الوضاعة والبخل وسقوط الهمّة، وأخلاقيّا الجشع، وعلميّا العياء والجهل وقلّة الضّبط، وهي صورة لا تبقي من شخصيّة الجهضمى شيئا ولا تذر. وقد أدرك الجهضمي حرارة سعوط خطاب الجار وتيقّن أنّه هلك وتلف، فأفحم وبهت كأنّما الطّير على رأسه أو أُلقم حجرا، وأقرّ بذلك واعترف قائلا: «فأفحمني ولم يحضرني له جواب».

وبإقراره يُرفع السّياق التّخاطبيّ الجهضمي / الجار الطّفيليّ، ويوضع السّياق التّخاطبيّ الجهضميّ / الرّاوي الأوّليّ. ولكن يظلّ حبل الوصل بينهما ممتدّا، إذ ينقل الجهضميّ بعد مغادرة دار الأمير موقف الجار الطّفيليّ من المواجهة، اقتصر فيه على بيت شعريّ من باب حجّة السّلطة، شبّه فيه المواجهة بينهما بالحرب وشبّه الجهضمي

[1] عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، ج 1، ص 449.

بالعاجز لأنّه لم يتوقّع أنّه سيُهزم وستستباح حياضه، والمقتضى الدّلاليّ في هذه الحجّة استعداد الجار الطّفيليّ مسبقا لمثل هذه المواجهة لما سبق في وهمه أنّ الجهضمي واجد عليه ينتظر فرصة تأديبه، فانقلبت الأدوار وأصبح الجار الطّفيليّ مؤدِّبا والجهضمي مؤدَّبا.

وتنقلب بذلك الموازين في المجتمع العربيّ الإسلاميّ القديم فإذا صورة الطّفيليّ المحيل إلى فئة المهمّشين قائمة على التّرفّع ومراعاة المقامات فضلا عن القناعة والعلم الغزير، وأمّا صورة الجهضمي المحيل إلى فئة الخاصّة فهي مبعث اشمئزاز ونفور، ويعلو شأن العامّة أو الطّبقة المهمّشة وينحطّ شأن الخاصّة أو طبقة المركز، والفضل في ذلك لمن امتلك السّلطة، ولكنّها ليست سلطة سياسيّة أو دينيّة، وإنّما هي سلطة خطابيّة تقوم على القدرة على التّصوير الخطابيّ وإقامة الحجّة وتقديم البرهان والنّفاذ إلى النّفوس والعقول واستمالتها لتأييد الدّعوى.

الخاتمة

لنا أن نستصفي الآن أبرز النّتائج التي وصلنا إليها، فقد تبيّن لنا أنّ الخبر الأدبيّ في الأندلس يتوفّر على الشّروط الأساسيّة التي تجعل منه خطابا حجاجيّا، فهو يتأسّس في بنيته العميقة على حوار بين الأخباريّ الأندلسيّ من جهة والمتقبّل المشرقيّ أو المتقبّل الكونيّ من جهة أخرى، إلى جانب ضروب الحوار الأخرى بين الشّخصيات.

كما انطوى الخبر الأدبيّ على مقاصد مختلفة سعى الأخباريّ الأندلسيّ إلى إيصالها إلى المتقبّل تتّصل أساسا بتفنيد قناعة وترسيخ أخرى أو تعديلها، والتّأثير في النّفوس والتّحفيز على الفعل.

وتوصّلنا إلى بعض سبل الدّمج بين الحجاج والتّخييل باعتبارهما مسلكيْ البلاغة من خلال بيان كيفيّة اشتغال البنيات الحجاجيّة الأساسيّة تخييليّا وكيفيّة اشتغال البنيات التّخييليّة الأساسيّة حجاجيّا، وشملت منطقة التّداخل والتّخارج بينهما مجاليْ الحجّة والصّورة وتجلّت في تصويريّة الحجّة وحجاجيّة الصّورة. فأمكننا الحديث عن بلاغة عامّة نتوسّل بها في مقاربة النّصوص التّخييليّة وتحديدا الخبر الأدبيّ مثلما نقارب سائر الخطابات الأخرى.

وتدعّم هذ التّصوّر بما وصلنا إليه من نتائج في الفصل الثّالث حيث عالجنا آليات الحجاج البلاغيّ نظريّا وتطبيقيّا، وتبيّن لنا تقلّص الوظيفة الجماليّة لسائر الأساليب والآليات البلاغيّة وتضخّم وظيفتها الحجاجيّة، فلم تعد هذه الأساليب والآليات مجرّد زخرفة لفظيّة أو محسّنات بديعيّة بقدر ما أصبحت تقنيات إقناع وأدوات تحمل على الاقتناع ووسائل تأثير تحفّز على القيام بفعل مّا وتحثّ على ترك آخر.

وأتاح الحجاج التّداوليّ مجموعة من الآليات الإجرائيّة أضاءت جوانب عديدة كانت مظلمة في الخبر الأدبيّ، فتبيّن دور الأعمال اللّغويّة في بناء الحوار بين الشّخصيّات

وتناميه، وكشف مبدأ التّعاون مدى التزام كلّ شخصيّة بقوانين المحادثة أو الإخلال بها خدمة لمقاصدها والغايات التي تجري إليها، متوسّلة في ذلك بتقنيّة الإضمار.

كما ساعد الحجاج اللّغويّ بما وفّره من آليات إجرائيّة على بيان ما ينطوي عليه الخبر الأدبيّ من ثراء في مستوى الأساليب اللّغويّة والرّوابط والعوامل الحجاجيّة التي وُظّفت توظيفا حجاجيّا تجلّى أساسا في توجيه الملفوظات نحو النّتيجة التي يروم المحاجج الوصول إليها.

وساهم الحجاج الخطابيّ بمختلف مقولاته في إنارة جوانب جديدة من الخطاب، فقد أصبح فضاء تتشكّل فيه صورة الذّات كما تتشكّل صورة المخاطب تبعا للمقاصد الحجاجيّة المراد تحقيقها منه.

وبذلك نكون قد وقفنا عند أمرين مهمّين في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ، أوّلهما كونه ليس خطابا تخييليّا محضا وإنّما هو خطاب تتوفّر فيه سائر الشّروط الواجب توفّرها في كلّ خطاب يروم أن يكون حجاجيّا، وقد بلغ من الثّراء حدّا جعله مستجيبا لمقولات مختلف أنواع الخطابات الحجاجيّة.

ويتّصل الأمر الثّاني باندماج الحجاج والتّخييل في بلاغة عامّة تُوظّف في مقاربة الخبر الأدبيّ مقاربة تتيح بيان سماته التّخييليّة وخصائصه الجماليّة من جهة، وأبعاده الحجاجيّة من جهة أخرى.

ولئن أضاء هذا العمل جانبا من جوانب الخبر الأدبيّ في علاقته بالبلاغة فإنّه يظلّ في حاجة إلى بحوث ودراسات أخرى من شأنها أن ترسّخ أركان هذه العلاقة وتوطّد الأسس التي تقوم عليها، وتنير جوانب أخرى عديدة مازالت غائمة سواء في الخبر الأدبيّ الأندلسيّ أو المشرقيّ، أو في مختلف الأنواع السّرديّة الوجيزة القديمة والحديثة.

المصادر

1 – ابن أبي حجلة (أحمد بن يحي بن أبي بكر التّلمسانيّ)، ديوان الصّبابة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

2 – ابن حزم (علي بن أحمد بن حزم الظّاهري)، طوق الحمامة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

3 – ابن خاقان (الفتح بن محّمد بن عبيد الله)، مطمح الأنفس ومسرح التّأنس في ملح أهل الأندلس موسوعة الشّعر العربيّ،الإصدار الأوّل، 2009.

4 – ابن سعيد المغربي (أبو الحسن نور الدّين)، المقتطف من أزاهر الطّرف، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

5 – ابن عاصم (محمّد بن محمّد)، حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنّوادر،موسوعة الشّعرالعربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

6 – ابن عبد البرّ (يوسف بن عبد الله)، بهجة المجالس وأنس المجالس وشحن الذّهن والهاجس، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

7 – البونسي (إبراهيم بن علي بن أحمد الفهري)، كنز الكتّاب ومنتخب الآداب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

8 – الحُصْري (إبراهيم بن علي)،

– زهر الآداب وثمر الألباب، موسوعة الّشعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

- جمع الجواهر في الملح والنّوادر، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

9 - الخطيب (الحسن بن علي بن خلف الأموي)، روضة الأزهار وبهجة النّفوس ونزهة الأبصار الجامعة لفنون الأدب، موسوعة الشّعرالعربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

10 - الرّقيق (إبراهيم بن القاسم القيروانيّ)، قطب السّرور في أوصاف الخمورموسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009

المراجـــع

1 – المراجع العربيّة

- الأبشيهي (محمّد بن أحمد)، المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، موسوعة الشّعر العربيّ، 2009.
- أدرواي (العياشي)، الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني من الوعي بالخصوصيّة النّوعيّة للظّاهرة إلى وضع القوانين الضّابطة لها، دار الأمان، الرّباط، ومنشورات الاختلاف، الجزائر العاصمة، الطّبعة الأولى، 2011.
- أرمينكو (فرنسواز)، المقاربة التّداوليّة، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء العربيّ.
- الأصبهاني (أبو الفرج)،

  – الأغاني، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

  –الدّيارات، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- أعراب (الحبيب)، الحجاج والاستدلال الحجاجيّ: عناصر استقصاء نظريّ، الحجاج مفهومهومجالاته: دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، الجزء الثّالث: الحجاج وحوار التّخصّصات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.
- أوكان (عمر)، اللّغة والخطاب، أفريقيا الشّرق، 2001.
- ابن الأثير الكاتب (نصر الله بن محمّد)، المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن بسّام (أبو الحسن علي)، الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.

- ابن الجوزي (عبد الرّحمان بن علي)، أخبار النّساء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن جنّي (عثمان)، الخصائص، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن رشيق (الحسن)، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن سيده (علي بن إسماعيل)،المخصّص، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن عامر (أبو الوليد)، البديع في وصف الرّبيع، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن عبد ربّه (أحمد بن محمّد)، العقد الفريد، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم)، الشّعر والشّعراء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن منظور (محمّد بن مكرم بن علي)،لسان العرب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- ابن وهب (أبو الحسن إسحاق)، البرهان في وجوها لبيان، تقديم وتحقيق: جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، عابدين، مصر، د ت.
- باديس (نور الهدى)، بلاغة المنطوق وبلاغة المكتوب، دراسة في تحوّل الخطاب البلاغيّ من القرن الثّالث إلى القرن الخامس هـ، مركز النّشر الجامعيّ، 2005.
- بارت (رولان)، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، أفريقيا الشّرق، 1994.
- بلانتان (كريستيان)، الحجاج، ترجمة عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للتّرجمة، تونس، 2008.
- بلانشيه (فيليب)، التّداوليّة من أوستن إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار الطّبعة الأولى، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، سوريا، 2007.
- بلنجر (ليونيل)، عدّة الأدوات الحجاجيّة، ترجمة قوتال فضيلة، الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، الجزء الخامس: نصوص مترجمة، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.

- بن ثقفان (عبد الله بن علي)،ظاهرة الانتماء في الأدب الأندلسيّ، (القسم الأوّل) مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد الحادي عشر، 1994.
- بن رمضان (فرج)، محاولة في تحديد وضع القصص في الأدب العربيّ القديم، حوليات الجامعة التّونسيّة، عدد 32، 1991.
- التهانوي (محمّد علي)، كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، الطّبعة الثّانية، 1996.
- الجاحظ (عمرو بن بحر)،
- -البيان والتّبيين، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- -البخلاء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- الجرجاني (عبد القاهر)، أسرار البلاغة في علم البيان، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- الحموي (ياقوت)، معجم الأدباء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- الخبو (محمّد)، الخطاب القصصيّ في الرّواية العربيّة، مكتبة علاء الدّين، صفاقس، الطّبعة الأولى، 2014.
- الدّريدي (سامية)، الحجاج في هاشميّات الكميت، حوليّات الجامعة التّونسيّة، العدد 40، 1996.
- روبول (أوليفي)، هل يمكن أن يوجد حجاج غير بلاغيّ؟ ترجمة محمّد العمري، ضمن كتابه البلاغة الجديدة بين التّخييل والتّداول، إفريقيا الشرق، الدّار البيضاء،الطّبعة الأولى، 2005.
- الرّيفي (هشام)، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود، كلّيّة الآداب منّوبة، 1998.
- السكاكيّ (يوسف بن أبي بكر)، مفتاح العلوم، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- شارودو (باتريك) ومنغنو (دومينيك)، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، دار سيناترا، تونس، 2008.
- الشهري (عبد الهادي بن ظافر)، آليات الحجاج وأدواته، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته، الجزء الأوّل، الحجاج: حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.

- صحراوي (مسعود)، التّداوليّة عند العلماء العرب،التّداولية عند العلماء العرب دراسة تداوليّة لظاهرة «الأفعال الكلاميّة» في التراث اللّسانيّ العربيّ، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان ، طبعة 2005.
- صولة (عبد الله)،

-الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال «مصنّف في الحجاج: الخطابة الجديدة»، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود، 1998.

-الحجاح في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيّة، كليّة الآداب بمنّوبة، 2001.

- طاليس (أرسطو)،الخطابة،ترجمةعبدالرحمان بدوي،وكالة المطبوعات الكويت، دارالقلم بيروت،لبنان،1979.
- الطّلبة (محمّد الأمين)، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوّره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته: الجزء الثّاني: الحجاج: مدارس وأعلام، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.
- الطوانسي (شكري)، المقام في البلاغة العربيّة: دراسة تداولية، عالم الفكر، المجلّد 42، العدد 1، سبتمبر 2013.
- عبدالمجيد (جميل)، البلاغة والاتّصال، دار غريبل لطّباعة والنّشر والتّوزيع، مصر، 2000.
- العزّاوي (أبو بكر)، الحجاج في اللّغة، ضمن كتاب الحجاج: مفهومه ومجالاته، الجزء الأوّل، الحجاج: حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.
- عشير (عبد السّلام)، عندما نتواصل نغيّر، أفريقيا الشّرق، المغرب،الطّبعة الثّانية، 2012.
- علوي (حافظ إسماعيل)، التّقديم، الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة: ج 1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.
- العمامي (محمّد نجيب)،

ـــ بحوث في النّصّ السّرديّ، دار نهى للطّباعة والنّشر والتّوزيع، صفاقس،الطّبعة الأولى، جانفي 2005.

ـــ البعد الحجاجيّ في أقصوصة «القلعة» لجمال الغيطاني، ضمن كتاب: الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة: الجزء الرّابع: الحجاج والمراس، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.

- العمري (محمّد)،

ـ في بلاغة الخطاب الإقناعيّ،أفريقيا الشّرق، الطّبعة الثّانية، 2002.

ـ البلاغة الجديدة: بين التّخييل والتّداول، إفريقيا الشرق، الدّار البيضاء،الطّبعة الأولى، 2005.

ـ الحجاج مبحث بلاغيّ فما البلاغة؟ الحجاج: مفهومه ومجالاته، دراسة نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة. الجزء الأوّل: الحجاج: حدود وتعريفات، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.

- القارصي (محمّد علي)، البلاغة والحجاج من خلال نظريّة المساءلة لميشال ميار، ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمّود، منشورات كليّة الآداب بمنوبة، 1998.
- القرطاجنّي (حازم)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- القزويني (محمّد بن عبد الرّحمان)، الإيضاح في علوم البلاغة، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- كروم (أحمد)، الاستدلال في معاني الحروف: دراسة في اللّغة والأصول، المطبعة والوراقة الوطنيّة، مرّاكش، الطّبعة الأولى، 2000.
- ليتش (جيوفري)، مبادئ التداوليّة، ترجمة عبد القادر قنيني،أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2013.
- مجموعة من مؤلّفين، معجم السّرديّات، إشراف محمّد القاضي، نشر مشترك، الطّبعة الأولى، 2010.
- مشبال (محمّد)،

ـــ البلاغة والسّرد: جدل التّصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، منشورات كليّة الآداب جامعة عبد الملك السّعدي تطوان، المغرب، 2010.

-السّرد والحجاج: تحليل بلاغيّ حجاجيّ لنصّ سرديّ قديم، الحجاج: مفهومه ومجالاته: دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة الجديدة، الجزء الرّابع: الحجاج والمراس، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، 2010.

- التّصوير والحجاج: نحو فهم تاريخيّ لبلاغة الجاحظ، مجلّة عالم الفكر، العدد 2، المجلّد 40، أكتوبر، ديسمبر 2011.

- المقّري (أحمد بن محمّد التّلمسانيّ)، نفح الطّيب في غصن الأندلس الرّطيب، موسوعة الشّعر العربيّ، الإصدار الأوّل، 2009.
- المودن (حسن)، حجاجيّة المجاز والاستعارة، الحجاج مفهومه ومجالاته: دراسات نظريّة
- موشلر (جاك) وريبول (آن)، القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة: ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين بإشراف عز الدّين المجدوب، دار سيناترا، تونس، 2010.
- هالي (فرنان)، التّداوليّة والتّحليل الأدبيّ، ترجمة أحمد الجوّة، الحياة الثّقافيّة، السّنة 24، العدد 110، ديسمبر 1999.
- الوسلاتي (بشير)، في القصّ العربيّ قديمه وحديثه، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بسوسة، وحدة البحث: «الدّراسات الإنشائيّة»،2010.
- الولي (محمّد)، مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، ع 2، م 40، أكتوبر ديسمبر 2011.

2/ المراجع باللّغة الأجنبيّة

*Adam (Jean-Michel),*Les textes types et prototypes*, Editions Nathan/ HER, Paris, 4e édition, 2001.

*Amossy (Ruth),*L'argumentation dans le discours*, Armond Colin, 2006.

* Anscombre (Jean-Claude) et Ducrot (Oswald),*L'argumentation dans la langue*, Editions Mardaga, 1997.

*Austin (John Langshaw),*Quand dire c'est faire*, Ed, Seuil, 1970.

* Bance (Pierre),*Pragmarique et littérature, in Logique Argumentation Conversation*, Actes du Colloque de Pragmatique, Fribourg, 19981 ; Editions Peter Lang SA, Berne, 1983.

* Benveniste Emile,*Problèmes de linguistique générale*, T, 1, Editions Gallimard, 1966.

* Berrendonner (Alain),*Eléments de pragmatique linguistique*, Les éditions de minuit, Paris, 1981.
* Berthelot(Francis),*Parole et dialogue dans le roman*, Ed Nathan, 2001.
* Chatman (Seymour),*Arguments et narration*. L'argumentation, Colloque de Cerisy. Mardaga, 1991.
* Ducrot (Oswald),
- *Les mots du discours*, Editions de Minuit, Paris, 1980.
- *la valeur argumentative de la phrase interrogative : logique argumentation, conversation*, Edition peter Lang, Berne – franc Fort, 1981.
- *le dire et le dit*, Editions de Minuit, Paris, 1984.
- *Les échelles argumentatives*, Editions de Minuit, Paris, 1989.
- *dire et ne pas dire*, Hermann, Nouveau tirage 2003.
*Genette (Gérard),*Figures III*, Editions du Seuil, Paris, 1972.
* Gouvard (Jean-Michel),*La pragmatique outils pour l'analyse littéraire*, Armond Colin, Paris, 1998.
*Grice (Paul),*Logique et conversation* in Communication, N° 30, Seuil, 1979.
* Kerbart-Orecchioni (Catherine),*Les interactions verbales*, Tome 1, Armand Colin, Paris, 1990.
*Maingueneau (Dominique),*Pragmatique pour le discours littéraire*, Bordas, Paris, 1990.
* Meyer (Bernard),*Maitiser l'argumentation*, Armond Colin, Paris, 1996.
* Meyer (Michel),
- *Logique, langage et argumentation*, Editions Hachette, 1982.
-*Questions de rhétorique: langage, raison et séduction*, Librairie Générale Française, 1993.
-***Qu'est-ce que l'argumentation***? Paris, 2005.
*Mitterand (Henri),*Le discours du roman*, Presses universitaires de France,1980.

*Moeschler (Jacques),
- *Argumentation et conversation: éléments pour une analyse pragmatique du discours*, Hatier-Paris, 1985.
- *Théorie pragmatique et pragmatique conversationnelle*, Armond Colin, Paris, 1996.

* Perelman (Chaim),*L'empire rhétorique, rhétorique et argumentation*, Librairie philosophique , J. Vrin, 2002.

*Perelman (Chaim) et Tyteca (Lucie Olbrechts),*Traité de l'argumentation: La nouvelle rhétorique*, 5eEdition, Editions de l'université de Bruxelles, 1992.

*Platin (Christian),*L'argumentation*, Editions du Seuil, collection Mémo, Paris, 1996.

*Propp(Vladimir),*Morphologie du conte*, Editions du Seuil, 1965 et 1970.

*Reboul (Anne), Moeschler (Jacques),*La pragmatique aujourd'huit, une nouvelle science de la communication*, Editions du Seuil, septembre 1998.

* Riboul (Olivier), *Introduction à la rhétorique*, Press Universitaire de France, Paris, 1994.

*Ricardou (Jean),*Le nouveau roman*, Seuil, Paris, 1990.

*Ricoeur (Paul),*La métaphore vive*, Editions du Seuil, 1975.

*Robrieux (Jean-Jacques),*Rhétorique et argumentation*, Editions Nathan/ Her, Paris, 2000.

*Todorov (Tzvetan),*Grammaire du Décaméron*, Mouton, The Hague-Paris, 1969.

* Vignaux (Georges),*Le discours acteur du monde, Enonciation argumentation et cognition*, Ophrys, 1988.

الفهرس